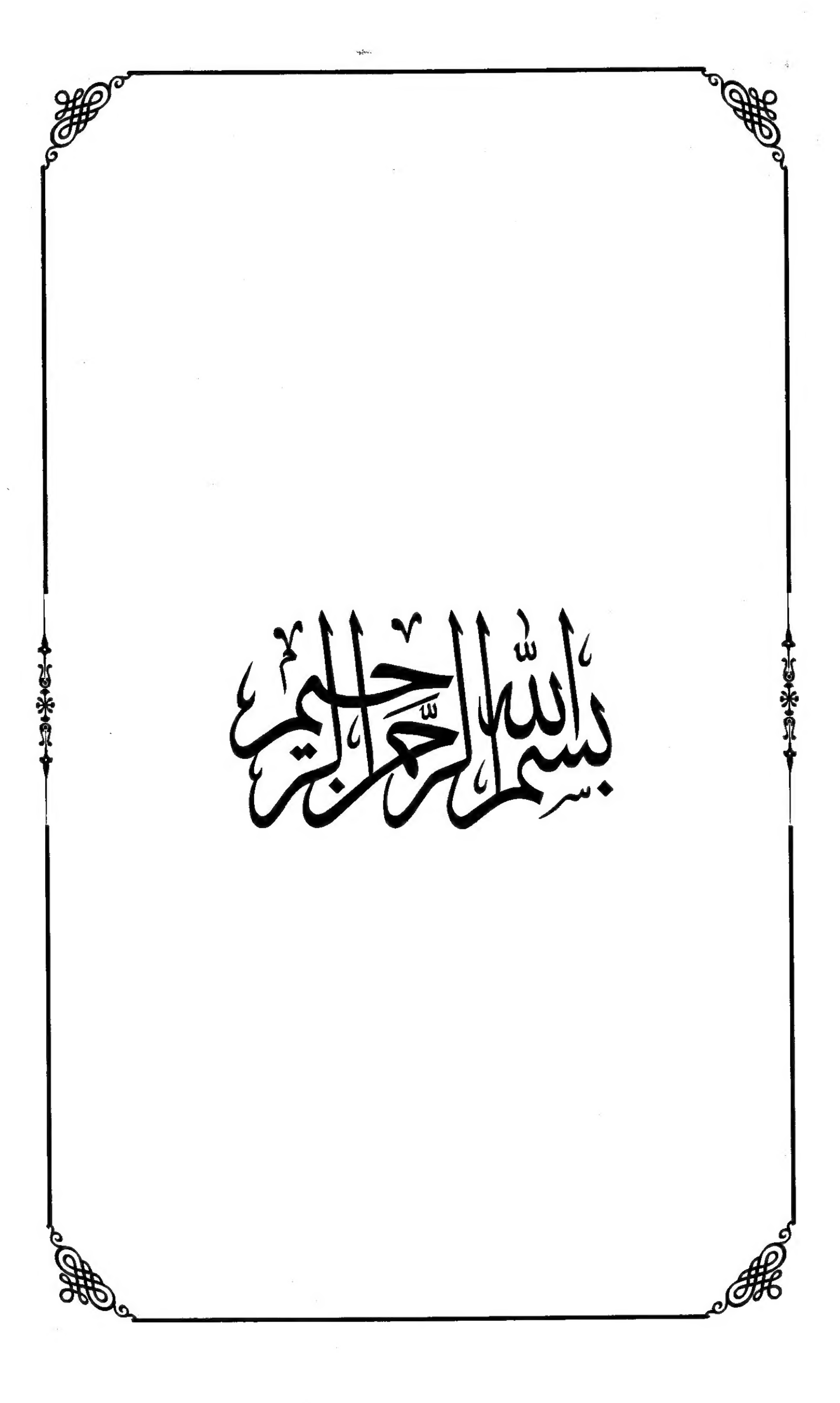
شعاع

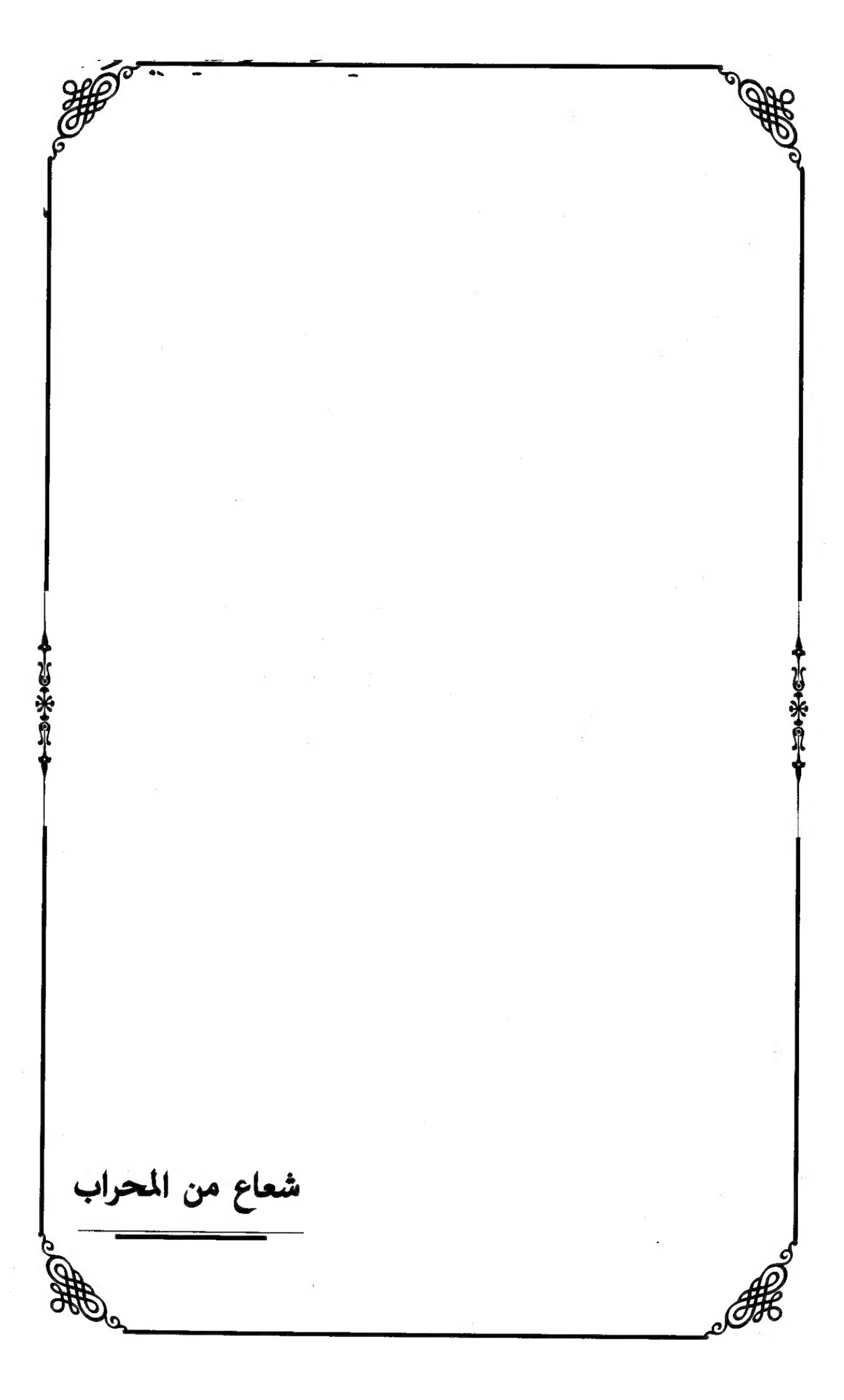
من المحراب

الجزء الأول

إعداد

سليمان بن حمد العودة


بسم الله الرحمن الرحيم



شعاع من المحراب

(ح)سليمان بن حمد العودة، ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سليمان بن حمد

شعاع من المحراب .. خطب / سليمان بن حمد

الرياض، ١٤٣٣ هـ

١٠ مج

١- خطبة الجمعة ٢- الخطب الدينية ٣- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ‏ ‏ ‏ ‏ ٩٣١٥ / ١٤٣٣

رقم الإيداع: ٩٣١٥ / ١٤٣٣

ردمك: ٢ - ١١٥٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٩ - ١١٥٨ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ١)

رقم الإيداع: ٩٣١٥ / ١٤٣٣

ردمك: ٢ - ١١٥٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٦ - ١١٥٩ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٢)

الطبعة الثانية

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

دار المغني للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية

dar_almoghny@hotmail.com

هاتف ناسوخ: ٠٠٩٦٦١٤٩١٦٩١٥ - ٠٠٩٦٦١٤٢٥٧٠١٩

مقدمة الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين أعان ويسر، وأسأله القبول والتسديد، والمغفرة عن الخطأ والتقصير، والصلاة والسلام على معلم الإنسانية الخير وسيد البشر محمد ابن عبد الله عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والتسليم.

وبعد فهذه مجموعة خطب ألقيتها في جامع (سلطانة) ببريدة، في أزمنة متفاوتة، وهي حاوية لموضوعات في العقائد والعبادات وأخرى في الأدب والأخلاق، وثالثة في السير والتراجم، كما تشمل أحاديث عن فرائض وواجبات، وفضائل ومندوبات، ولم تخل من وقفات تاريخية فيها عبرة، أو مواعظ موقظة.

وهذه وتلك لم يتم تصنيفها وتبويبها حسب الموضوعات، ولم يوضع في الاعتبار ترتيبها حسب الأولوية والمهمات، وإنما جاء عفويًا تؤكد الأولوية فيه أو الاهتمام ظروف الزمان أو المكان المتحدث فيها، أو حاجة الناس المتحدث إليهم، أو اختيار المتحدث نفسه لأحد الموضوعات.

وقد رأيت نشرها رجاء الفائدة منها، ولا أظن الإفادة منها تعني ضعف المستفيد، ولا أفضلية المفيد، ولكن الموضوع الواحد تختلف في تحديد عناصره الأقلام، وتتناول الفكرة الواحدة بأكثر من زاوية الفهوم والأفكار.

وسروري عظيم إن ستجد (الواعظ)، أو (المربي)، أو (الداعية) فيها ما يعينه على أداء مهمته، فنشر الخير بغيتنا جميعًا، والتنبيه للمخاطر على مستوى الفرد والجماعة والأمة مسؤوليتنا -كذلك- جميعًا.

ولقد حرصت -قدر المستطاع- تأصيل وتوثيق المعلومات الواردة بإثبات مصادرها، والتأكد من صحة النص الشرعي، وأرى ذلك مهمًا في خطب الجمع أو غيرها لأنه يبصر المطلع بمصدر المعلومة من جهة، ويمكنه من الرجوع إليها لمزيد الفهم أو استكمال ما اختصر -عند الحاجة- من جهة أخرى، وأنصح للخطباء وغيرها أن يعتنوا بمصدر العلامة تدوينًا وتحريًا، إذ قد يحتاج الخطيب نفسه يومًا الرجوع إلى معلومة نقلها وربما أخذت نصيبًا من وقته في سبيل البحث عنها.

ولا يفوتني في نهاية هذه المقدمة أن أسأل الله أن يجزل مثوبة من أعان على نشر الخير بماله أو جاهه، أو مجهوده ونصحه.

كما لا يفوتني أن أذكر المطلع على هذا الكتاب باغتفار الزلة، وتقديم النصيحة والمشورة، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، وثبتنا عليه إلى أن نلقاك.

وكتبه

سليمان بن حمد العودة

القصيم/ بريدة ٧/ ٧/ ١٤١٧هـ

ص. ب. ١١٩٣

محنة يوسف عليه السلام القصة والعبر[1]

الخطبة الأولى:

إخوة الإسلام، كلما اغتم المسلمون، وترادفت الفتن، وتسلط الجبارون، ووقع الأذى على المسلمين، كلما كانت حاجتهم أشد لمعرفة سنن الله في الكون، وكان شوقهم أكبر للوقوف على سير الصالحين وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

ولئن كان الحديث قد مضى عن طائفة من أنبياء الله ورسله، وما فيها من دروس وعبر، يعقلها العالمون، وينساها الجاهلون، فإن يوسف عليه السلام نموذج للابتلاء، ومثال للصبر، ومؤشر لعاقبة المتقين، وفصول قصته تؤذن بأن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن الله لا يؤيد كيد الخائنين، وأن الله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.. إلى غير ذلك من معان وقيم تبدو للعيان حين يكون الصبر واليقين، وتبرز للناظرين حين يكون الصدق ومجاهدة النفس، والانتصار على الشيطان في معركة الإغواء والإغراء.

أجل إخوة الإيمان إن المسافة هائلة بين غيابة الجب وبين علو الشأن في ملك مصر، والفرق كبير في عرف الناس بين يوسف عليه السلام وهو في غياهب السجن، وبين كونه من خلصاء ومستشاري عزيز مصر، وليس أقل منه الفرق بين يوسف عليه السلام وهو بمثابة السلعة تباع وتشترى بأزهد الأثمان، وينتقل في الرق من سيد إلى سيد، وهو لا يملك من أمره شيئًا وبين يوسف عليه السلام وهو على خزائن

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ٨/ ١٤١٥هـ.

الأرض، يتبوأ منها حيث يشاء، يملك الكيل لفئة ويمنعه أخرى، ويمنع الميرة والطعام عن وفد ويهبه لآخرين.

ولكن هذه المسافة الهائلة، وتلك الفروق الكبيرة لم تكن في حياة الصديق عليه السلام لولا الصدق والإحسان، والصبر ومراقبة الرحمن، والشكر لله والرضاء بما قسم والتسليم بالعسر واليسر، والدعوة لدين الله الخالص وتوحيده في كل حال، حتى وهو يعيش في ظلمات السجن ووحشته ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

وهذه العاقبة الحميدة وذلك التمكين العظيم في الأرض لم يتسن ليوسف عليه السلام إلا بعد أن امتحنه ربه وابتلاه، وبعد أن عانى صنوفًا من المحن والابتلاءات قص القرآن علينا محنة كيد الإخوة وما أشقه على النفس.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

ومحنة الجب والخوف والترويع فيه وما صاحبها من أذى وشدة إذ ربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره حتى صعد إلى صخرة في وسطه، ولم يتخل الله عنه في هذه اللحظة، بل أنزل الله عليه اليسر في حال العسر، وطمأنه بما أوحى إليه أن له مخرجًا مما هو فيه، بل وسينصره الله على إخوته ويرفع درجته، وسيخبرهم بصنيعهم وهم لا يشعرون ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: ١٥.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك(١).

ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ودون تقدير أو معرفة من استرقه به، ولذا باعوه بأزهد الأثمان ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾(٢).

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله «وشروه» عائد على إخوة يوسف، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة، قال ابن كثير: والأول أقوى لأن قوله ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه(٣).

ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة وما صاحبها من إغراء وشهوة وفتنة، وما أشدها وأقساها!! ويوسف عليه السلام في ريعان الشباب يمتلئ جسمه حيوية وقوة، وهو في حال غربة وعزبة، وأسباب الفاحشة ودواعيها تتهيأ له، فالمرأة هي الداعية، وقد تزينت بكل ما تملك، والدعوة في بيت آمن حيث منزل عزيز مصر، والأبواب تغلق، ويبقى باب السماء مفتوحًا، فيتذكر يوسف عليه السلام من خلاله عظمة الله، ويتصور رقابته، ويرى برهان ربه، فيلوذ بحماه، وينتصر على الإغراء والشهوة، ويمتنع مقارفة الفاحشة، ويستحق أن يكون من عباد الله المخلصين ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٢.

(٢) سورة يوسف: ٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٥.

(٤) سورة يوسف: ٢٤.

قال ابن جرير ﷺ في تفسير البرهان الذي رآه يوسف ﷺ: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان همّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب ﷺ -عاضًا على أصبعه- وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك، ولا صحة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب بدأ يطلق كما قال الله تعالى[١].

إخوة الإسلام لم تقف محن يوسف عند هذا الحد، فثمة محنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز مع ما في السجن من غربة وعزلة ووحدة، فآلام السجين تشتد حين يكون السجن ظلمًا وعدوانًا، ومحنة السجين تتضاعف حين يكون الطهر والعفاف جريمة وتهمة يؤاخذ بها الصالحون المخلصون.

وتزداد الحيرة والغرابة حين نعلم أن الذين سجنوا يوسف ﷺ قد تبين لهم من الآيات والبراهين القاطعة ما يبرئ ساحته ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ فقدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز أيدي النساء، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف ﷺ كلها أدلة للبراءة كما قال[٢].

ومع ذلك يسجن يوسف ﷺ حتى لا تنشر فضيحة امرأة العزيز بمراودتها يوسف عن نفسه عند عامة الناس، وهكذا حين يغيب العدل بين الناس يستهان بحق الأبرياء في سبيل الحفاظ على سمعة الكبراء، ويبقى بعد ذلك أن الذي يدخل السجن متهمًا مظلومًا يخرج منه بعد حين عزيزًا مكرمًا بريئًا ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٩.

(٢) القرطبي ٩/ ١٨٦ في تفسيره.

(٣) سورة يوسف: ٣٣.

ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يديه لقمة العيش التي تقوتهم، وليست محنة السراء بأقل من محنة الضراء فثمة، دواعي الكبر والخيلاء، والشح والبخل، والظلم والعدوان، والغفلة عن ذكر الله والدار الآخرة كلها أدواء تصاحب الغنى واليسر إلا من رحم الله، ويوسف عليه السلام كما كان نموذجًا للصبر والرضا والتسليم بما قدر الله في زمن الشدة والضراء، فقد كان نموذجًا آخر للعدل والأمانة والشكر والذكر لله في زمن الفرج والسراء ومقاليد أمور مصر بيديه، وخزائن الأرض تحت تصرفه.. أجل لقد ضرب الصديق عليه السلام نموذجًا للعفة وحسن السياسة في الرعية، وعرفت الأرض والناس به نموذجًا للحكام الصالحين، الذين تكثر نفقاتهم دون منٍ أو أذى، وتكثر الخيرات من حولهم، بهم تصلح الحياة الدنيا، وبسيرتهم يتذكر الناس الدار الآخرة، فلا جوع أو تسفيه، ولا فتنة ولا تخمة. وتأملوا كيف ترتبط الحياة الدنيا بالآخرة في أذهان العارفين ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) ألا إنها أخلاق الأنبياء، نماذج خيرية بالاعتبار والاقتداء.

اللهم احشرنا مع البررة الأتقياء، وبلغنا منازلة الشهداء ... أقول ما تسمعون.



(١) سورة يوسف: ١٠١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره، وأسأله المزيد من فضله وأستغفره وأتوب إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون.. أيتها الأخوات المؤمنات..

في قصة يوسف عليه السلام مزيد من الدروس والعبر لمن تأملها وتدبرها ففيها تسلية لكل مظلوم، وفيها تسرية لكل مغموم، إذ يتذكر مقام الصالحين، فيستيقن أن الابتلاء على قدر الإيمان واليقين «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام -في حديث صحيح آخر-: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحويها- أي يقطع وسطها فيلبسها ويبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشدّ فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء**»[2].

وسورة يوسف كما يقول أهل التفسير: نزلت أول ما نزلت تسرية للنبي ﷺ والمسلمين معه في وقت كانوا في أشد الحاجة إلى مثلها، فالسورة مكية،

---

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما، صحيح الجامع ١/ ٣٣٣.

(٢) صحيح الجامع ١/ ٣٣٤.

ويقال: إنها نزلت بعد سورة هود في تلك الفترة الحرجة بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها سندي رسول الله ﷺ، وبين العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما للإسلام والمسلمين فرجًا ومخرجًا بالهجرة إلى المدينة.

وكما أخرج يوسف عليه السلام من حضن أبيه، وغرب عن ديار أهله ليواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين، كذلك أخرج النبي ﷺ، وضيق على المسلمين حتى هاجروا من مكة إلى المدينة مكرهين، وكان النصر والتمكين(١).

وهي باقية كذلك تسرية لكل مسلم تنزل به فتنة أو تمر به ظروف وحالات تشابه حالة الصديق عليه السلام.

وما أحوج الدعاة للوقوف مليًا عند أحداث القصة يستلهمون منها العبر، ويتسلون بها حين الضجر، فتهديهم أن العاقبة للمتقين، وأن النصر في النهاية والتمكين لعباد الله الصالحين، ولكن لابد من الصبر والرضاء واليقين واحتساب الأجر عند رب العالمين.

وما أحوج الساسة والأمراء والمسؤولين لسياق القصة تبصرهم بقصر الحياة من جانب، وفداحة الظلم من جانب آخر، وتهديهم إلى أحسن أساليب الحكم والعدل في الرعية من جانب ثالث.

وقصة يوسف عليه السلام موقظة للرقابة من الله حين يكون إغراء الشهوة، وحين تتوافر للمرء أسباب الفاحشة والفتنة.

وهي تذكر بالاستغفار والتوبة حين تضعف النفس وتقع في الخطيئة، وتعترف

---

(١) سيد قطب: الظلال ١٩٤٩/٤، ١٩٥٠ بتصرف.

بالضعف وتلتمس المخرج ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(١)].

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٢)].

وفي القصة عزاء للسجناء الأتقياء، وسلوة للمتهمين الأبرياء.

وفيها يجتمع نموذج السراء والشكر ونموذج الضراء والصبر، وهما نموذجان ملازمان للمؤمن (**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكره فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**)[(٣)].

وفي القصة يبرز الصبر سلاحًا يتكئ عليه المسلم في الشدائد والأزمات، وهو صبر لا تسخط فيه ولا جزع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[(٤)].

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٥)].

وكذلك يلتقي صبر يعقوب عليه السلام بعد رحلة شاقة من الهم والضيق وجدب الأرض ولوعة الفراق، وصبر يوسف عليه السلام بعد رحلة شاقة بين ظلمات الجبّ، وظلمات السجن وشدة الغربة، وألم التهمة.. يلتقي الصبران الجميلان بإذن الله ليجمع الشمل ويرأب الصدع، ويعود الصفا، وتنتهي في بيت يوسف و ملكه

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٢) سورة يوسف: ٩٧، ٩٨.

(٣) رواه أحمد ومسلم عن صهيب، صحيح الجامع ٤/٢٦.

(٤) سورة يوسف: ١٨.

(٥) سورة يوسف: ٨٣.

حالة الفرقة والشحناء، ويخر الأبوان سجدًا لله شاكرين، ويطلب الأبناء المخطئون العفو والمغفرة، ويتذكر الصديق مع أبيه رؤياه في صغره. ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق- ويقول: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١)، ويذكر يوسف عليه السلام إخوته بعاقبة الصبر وجزاء الصابرين فيقول: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

اللهم ارزقنا الصبر والاحتساب، وادفع عنا وعن إخواننا المسلمين البلاء والمحن، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب... هذا وصلوا..



(١) سورة يوسف: ١٠٠.

(٢) سورة يوسف: ٩٠.

الإمام الشافعي والنيل من العلماء[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . . .

أيها الإخوة المؤمنون، أخرج ابن أبي الدنيا من طريق أسامة بن زيد عن أبي معن قال: لقي عبد الله بن سلام كعب الأحبار عند عمر ﷺ فقال يا كعب: من العلماء؟ قال: الذين يعملون بالعلم، قال: فما يذهب العلم من قلوب العلماء؟ قال: الطمع، وشره النفس، وتطلب الحاجات إلى الناس، قال: صدقت[2].

هذه كلمات جامعة، وصفات عزيزة غالية، ما أحوج الأمة إلى توفر أصحابها، وما أسعد عيش أربابها بهذه النوعية من العلماء يعرف الحق، وبهم وعلى أيديهم يكتب الله الهداية والاستقامة للخلق، يدفعون عن هذا الدين انتحال المبطلين، ويقومون ما اعوج من سلوك أصحاب الشهوات والمترفين، ويبينون للناس ما خفي من أحكام الدين، يعيشون هموم الأمة فيفرحون لعزها ويسعدون بانتصارها، ويحزنون لمصابها ويقلقون لآلامها.. يتجردون من ذواتهم ويعيشون لغيرهم، يفتون السائل، ويعلمون الجاهل، وينصحون الغافل، ويتحملون في ذات الله ما يصيبهم من المصائب والمحن، بهم تحيا السنن، وبجهودهم ونصحهم تقمع البدع، بصدقهم وإخلاصهم يقوى جانب الأمر بالمعروف، ويعتز الآمرون، وبتجردهم وقوتهم ويوهي جانب المنكر ويذل

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة يوم الجمعة الموافق ١٤/ ١١/ ١٤١٥هـ.

(٢) الإصابة ٨/ ٣٣٧.

المبطلون، بهم لا يلتبس الحق بالباطل ولا يستوي الأخيار مع الأشرار، ولا تروج بضاعة النفاق ولا يسود المجتمع المنافقون.

هم حراس الأمة من المتسللين الأدعياء، وهم صمام الأمان إذا أحدقت بالأمة الخطوب وتناوشتها الأخطار، هم النجوم تضيء إذا تاه الدليل، أو تغيرت معالم الطريق، هذه النوعية من العلماء على الرغم من جدها وجهادها فهي مبتلاة في نفسها وأعراضها.. فالسهام موجهة إليها، والحسدة والمغرضون لا يألون جهدًا في التقليل من شأنها، وكيل التهم الفارغة لها.. ولا يزيدها ذلك عند الله إلا علوًا في الشأن، ولا عند الخلق إلا مزيدًا من الرفعة والمحبة والذكر الحسن.

وسأسوق لكم نموذجًا لهؤلاء العلماء العاملين الذين لم يسلموا من أسهم الموتورين فكانت سببًا لعلو شأنهم واستمرار ذكرهم عبر القرون.

حديث اليوم عن الإمام الشافعي مجدد الدين في القرن الثاني الهجري عالم عصره، وفقيه الملة، وصفه الذهبي بالثقة، الحجة، الحافظ[(١)].

قال عن نفسه رَحِمَهُ اللهُ حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وكنت أقرئ الناس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، وحفظت الموطأ قبل أن أحتلم[(٢)].

وقال عنه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: وقد سئل عنه: لقد منّ الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير[(٣)].

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٨.

(٢) السير ١٠/ ٥٤.

(٣) السابق ١٠/ ٥٨.

وكان أحمد إذا سئل عن مسألة لا يعرف فيها خبرًا يقول فيها بقول الشافعي لأنه إمام قرشي[١].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ قال يا بني: كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس فهل لهذين من خلف أو منهما عوض؟[٢].

ولا غرو أن يدعى لمثل هذا في الصلاة، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإني لأدعو للشافعي منذ أربعين سنة في صلاتي[٣].

هذا العالم الجهبذ كان مثالًا للزهد والورع وهو القائل: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة فأدخلت يدي فتقيأتها وذلك لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب، ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف عن العبادة[٤].

وهو نموذج يحتذى في العبادة واستثمار الوقت بما ينفع، وقد نقل عنه أنه كان يجزئ الليل أثلاثًا، فثلثه الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام[٥].

فإذا كان هذا شأنه في الليل فلا تسأل عن عبادته وحديثه في الطلب في النهار.

ومع حرصه على العلم وحثه على طلبه حتى قال: طلب العلم أفضل من النافلة[٦] فكان يزينه التواضع والتجرد في طلب العلم وهو القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط[٧].

---

(١) نفسه ١٠/ ٨٢.
(٢) السير ١٠/ ٤٥.
(٣) السير ١٠/ ٨٢.
(٤) السابق ١٠/ ٣٦.
(٥) ١٠/ ٣٥.
(٦) السابق ١٠/ ٣٥.
(٧) السابق ١٠/ ٣٥.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته[١].

وهو داعية خير وناصح أمين لكل متردد أو شاك متحير، وانظره كيف يجلي الصورة للسائل في وسوسة الإيمان، ويقنعه بالحجة والبرهان، فقد جاء المزني إلى الشافعي وهو يقول: إن كان أحد يخرج ما في ضميري وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرت إليه وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد فعلمت أن أحدًا لا يعلم علمك فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت لا، قال: هل تعلم من الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجمًا في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها تعرف جنسه، طلوعه أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علم خالقه؟ ثم سألني عن مسألة في الوضوء فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه فلم أصب في شيء منه فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلف علم الخالق؟ إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية فاستدل بالمخلوق على الخالق ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك قال: فتبت[٢].

وكذلك يضيء العلماء الطريق للحيارى، ملأ هذا العالم الدنيا علمًا نافعًا، وذكرًا طيبًا ونشر الله بجهوده الملة، وحفظ به وبأمثاله الفقه والسنة، ولا تزال

---

(١) السابق ١٠/ ٣٣.

(٢) السير ١٠/ ٣١، ٣٢.

مدونات العلم تشهد بفضله وتخلد ذكره.. حتى إذا حانت منه ساعة الرحيل خاف الوعيد ورجا ربه العفو والتسديد، وقد دخل عليه المزني وهو في مرضه الذي مات فيه فقال: يا أبا عبد الله: كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، ولإخواني مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، وما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي دون عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منةً وتكرما
فإن تنتقم مني فلست بآيس ... ولو دخلت نفسي بجرمي جهنما
ولولاك لم يغو بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما
وإني لآتي الذنب أعرف قدره ... وأعلم أن الله يعفو ترحما[1]

اللهم عفوك ورحمتك وغفرانك، اللهم اغفر لأئمة المسلمين وألحقنا بركب الصالحين .. أقول ما تسمعون ...

❀ ❀ ❀

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٥، ٧٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحاط بكل شيء علمًا، ووسعت رحمته الآخرة والأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قضى بالرفعة والفضل لأهل العلم والإيمان ولو كره المبطلون، وكتب على كل بشر قدره من الفتنة والبلوى، وعلى قدر الإيمان يكون البلاء، فلأشد الناس بلاءً الأنبياء عليهم السلام ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما صح بذلك الحديث.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ناله أصناف الأذى واتهمته قريش بألوان من التهم فأظهره الله عليهم والعاقبة للتقوى اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد وعلى سائر المرسلين.

إخوة الإيمان.. الإمام الشافعي الذي أطبق في الخافقين ذكره، وانتفع العالم بعلمه لم يسلم من حسد الحاسدين، ولم يكن بمنأى عن تقول المتقولين، وتناوشته سهام المتكلمين، شأنه في ذلك شأن المتقدمين والمتأخرين كما قال الإمام الذهبي رحمه الله وهو يصف هذه الظاهرة ويقول: ونال بعض الناس من الشافعي غضًا، فما زاده ذلك إلا رفعةً وجلالة، ولاح للمنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوى، وقل من برز في الإمامة ورد على من خالفه إلا وعودي، نعوذ بالله من الهوى[1] ويحدد الذهبي -في موضع آخر- أصناف الذين يتكلمون في أهل العلم ويتهمونهم بغير حق، وأثر ذلك على العالم فيقول: «وما تكلم فيه -يعني الشافعي- إلا حاسد أو جاهل بحاله، فكان ذلك الكلام الباطل منهم موجبًا لارتفاع شأنه وعلو قدره، وتلك سنة الله في عباده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ

(١) السير ١٠/٩.

﴿كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١].

وقبل الذهبي كشف الإمام أحمد رحمه الله أسباب كثرة الكلام والتهم على العالم من أقرانه ومعاصريه فقال «اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم وحرمه قرناؤه وأشكاله حسدوه، فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم»[٢].

أي وربي صدق الإمام أحمد، وبئست الخصلة في أهل العلم إنها الماحقة للدين، والموغلة بصدور المؤمنين، والميدان الرحب يفرح به المغرضون والمنافقون، وتلك بضاعة الشيطان يصد بها المسلمين عن ذكر الله وشكره وحسن عبادته وهو يصور لهم أن ذلك هو الجهاد الحق وإنه أولى من جهاد الكفار والمنافقين، وأن كشف زيف هؤلاء أولى وخطرهم على الدين أشد وأقضي.

وهكذا يزين الشيطان لبعض الناس ويتلاعب بعقولهم حتى تصبح الردود والتهم شغلهم الشاغل بها ينصرفون عن البناء وإكمال مسيرة العلماء، وبها ينسون عيوبهم وسبل إصلاحها ويشتغلون بعيوب الآخرين ويتزيدون فيها.. والمسلم الحق كما قال النبي ﷺ من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأربى الربى استطالة المرء في عرض أخيه، كما جاء في الحديث، وفي الرواية الأخرى «**أربى الربا شتم الأعراض**»[٣].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٩، ٧٠، سير أعلام النبلاء ١٠/٤٨.

(٢) السير ١٠/٥٨ هامش (١).

(٣) صحيح الجامع ٢/٣٠٠.

إخوة الإيمان .. أما كيف تعامل العلماء قديمًا مع هذه الخلافات والنجوى .. وماذا ينبغي أن يتعامل به الناس حديثًا، فهو طيّ هذا اللغط وإهمال أصحابه، والحرص على ردم الهوة بين المسلمين، وعدم مجاراة المغرضين فلا يعني السكوت على ترديد الشائعات والتهم الضعف والخور بقدر ما يعني التعقل والثقة والانشغال بالأهم، وسيكفي الله عباده الصالحين شر الأشرار وكيد الفجار، والله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، والحق مهما اختلط بغيره فلا بد أن يظهر أصحابه، والباطل مهما تستر أصحابه فلا بد أن يكشفهم الله ويفضحهم في جوف دارهم.. وما ربك بغافل عما يعملون، ولا يظلم ربك أحدًا، والعاقبة للتقوى.

حول هذا المنهج قال الإمام الذهبي ﵀ كلامًا طويلًا أقتبس منه العبارات التالية: «كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية لا يلتفت إليه بل يطوى ولا يروى، ثم تحدث عما شجر من الصحابة وقال: إن أكثره منقطع وضعيف وبعضه كذب.. فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء، إلى أن قال: ثم تكلم خلق من التابعين بعضهم في بعض وتحاربوا وجرت أمور لا يمكن شرحها فلا فائدة في بثها، ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصم نفسه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ولحوم العلماء مسمومة .. إلى آخر كلامه[(١)].

ألا فليتق الله أولئك الذين يروجون الشائعات ويلصقون التهم ويكتبون الكتابات ويتزيدون في التأويلات، ويتدخلون في تفسير المقاصد والنيات .. وتلك لا يعلمها إلا عالم السر والخفيات.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٢-٩٤.

وعلى من اتهم في دينه أو عرضه بغير حق أن يصبر ويحتسب، ويتجرد عن حظوظ النفس والهوى، وأن يقوم بالقسط والعدل كما أمر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وينبغي أن يستقر في أذهان المسلمين أن الخلاف في الرأي دون هوى ليس مسوغًا للفرقة والاختلاف وملغيًا لحقوق إخوة الإسلام، وتأملوا هذه اللفتة الطيبة عن الإمام الشافعي: يقول يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة.

ثم يعلق الذهبي على ذلك ويقوله: قلت: هذا يدل على كمال عقل هذا في ما- وفقه نفسه، فمازال النظراء يختلفون[٢].

فهل يفقه المسلمون أدب الخلاف، وهل يتقون الله حين الاتفاق أو الاختلاف، وهل يلتفت العقلاء إلى خطط الكافرين وموائد المنافقين، وأطماع اليهود والنصارى والمجوس والمشركين فذلك أولى وأحرى من تصويب السهام في صدور المسلمين، والحط من قدر العلماء والدعاة المجتهدين .. إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. والموفق من وفقه الله والمعصوم من عصمه الله .. اللهم اعصمنا من الزلل وطهر قلوبنا وألسنتنا من الغل والحقد والكذب.



(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) السير ١٠/١٦، ١٧.

(١) المسلم بين الخوف والرجاء[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين أنزل خشيته في قلوب المؤمنين، وجعل خوفه سببًا للمسارعة في الخيرات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى قوله.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، امتدح أنبياءه عليهم السلام، وأثنى على أوليائه بالخوف: فقال جل من قائل عليمًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٣].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان في أعلى مقامات الخوف من ربه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف.. اللهم صلّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام عليكم بوصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾[٤].

أيها المسلمون والمسلمات لقد أثنى الله على ملائكته لخوفهم منه، فقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[٥].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/ ١٠/ ١٤١٥هـ.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٤) سورة النساء: ١٣١.

(٥) سورة الأنبياء: ٢٨.

فإذا كان هذا حال الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وتلك صفة الذين يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون.. فكيف ترونه ينبغي أن يكون خوف المقصرين المفرطين؟

إخوة الإيمان وللخوف من الله موجباته وأسبابه ودواعيه، قال الحليمي رحمه الله والخوف على وجوه:

أحدها: ما يحدث من معرفة العبد بذل نفسه وهوانها وقصورها وعجزها عن الامتناع عن الله إن أراده بسوء، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي لا تخافوا الله عظمةً.. حيث خلقكم من نطفة ثم علقة ثم مضغة. كذلك فسره ابن عباس وغيره[1].

والثاني: ما يحدث من المحبة وهو أن يكون العبد في عامة الأوقات وجلًا من أن يكله الله إلى نفسه، ويمنعه مواد التوفيق، ويقطع دونه الأسباب، فلا يزال مشفقًا من حرمان محبته، خائفًا من السقوط عنده، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهؤلاء لفرط محبتهم وكثرة دعائهم لخالقهم سماهم الراسخين في العلم.

الثالث: ما يحدث من الوعيد، قالي تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3].

(١) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة إبراهيم: ١٤.

(٣) سورة التحريم: ٦.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

١) معرفة الجناية وقبحها.

٢) تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

٣) أن المرء لا يعلم لعله يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه[١].

قال العارفون: ليس للعبد صاحب خير من الهم والخوف، هم فيما مضى من ذنوبه، وخوف فيما لا يدري ما ينزل به، ومن المفاهيم الخاطئة عند بعض الناس أن الخوف ضعف ومنقصة، وهو كذلك إذا كان من هموم الدنيا أو تخوف من البشر مهما كانت منازلهم، لكنه قوة ومنقبة إذا كان لله وفي الله، فالخائفون من الله أزكى قلوبًا وأكبر عقولًا من الغافلين السادرين في غيهم وشهواتهم.

والخوف من الله في الدنيا من علامات أهل الجنة، حتى قيل: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[٢]، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[٣].

وقال ابن المبارك: من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيرًا ثم لا

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٨٣، ص المصدر السابق ١/ ٥٩.

(٢) سورة فاطر: ٣٤.

(٣) من شعب الإيمان ١/ ٢١٥، ٢١٧ (الطور ٢٦).

يبالي ولا يحزن عليه[١]. ولهذا كله روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يحب كل قلب حزين**»[٢].

ذلك هو الخوف المحمود، وهو الذي يمنع صاحبه من اقتراف المعاصي، لأن صاحبه مستحضر لرقابة الله، خائف منه على كل حال، قال سهل التستري رحمه الله: لا يبلغ حقيقة الخوف حتى يخاف مواقع علم الله فيه ويحزن على ذلك[٣].

وقال الخليفة هارون الرشيد ما رأت عيناي مثل الفضيل بن عياض، قال لي وقد دخلت عليه: يا أمير المؤمنين فرغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه فيقطعاك عن معاصي الله تعالى ويباعداك من عذاب النار[٤].

ويشبه العارفون حزن القلب بسكنى الدار، فكلاهما إذا خلا من الساكن خرب، قال مالك بن دينار: إن القلب إذا لم يحزن خرب، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب.

وخوف المسلم من الله نابع من خشيته سوء العاقبة، فهو مهما عمل لا يدري بما يختم له، فتراه دائما خائفًا وجلًا، وتلك من أشدّ الأشياء على الشيطان، وهي مبعدة لعجب الإنسان بعمله، قال إسحاق بن خلف: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم: ليت شعري بم يختم لي؟! قال: عندها ييأس إبليس منه، ويقول: متى يعجب هذا بعمله[٥]؟!.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢١٤.

(٢) رواه البزار والطبراني وقال الهيثمي: إسناده حسن، وضعفه غيره.
انظر ثلاث من شعب الإيمان ١/ ٢١٣، ٢١٤.

(٣) السابق ١/ ٢١٥.

(٤) السابق ١/ ٢١١.

(٥) السابق ١/ ١٩٧.

وفي تغييب الخاتمة عن الإنسان حكمة إلهية بالغة، قال ابن بطال: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف لأنه لو علم وكان ناجيًا أعجب وكسل، وإن كان هالكًا ازداد عتوًّا فحجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء»[(١)].

أيها المسلمون لم لا يخاف المسلم وأعماله مهما بلغت لا تنجي صاحبها إن لم يصحبها خوف من الجليل وطلب الرحمة من الرحمن الرحيم؟ وهذا خير البرية ﷺ يقول: «**ما منكم من أحد ينجيه عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل**»[(٢)].

ويروى عنه قوله «**لو أن رجلًا يخر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضات الله ﷻ لحقره يوم القيامة**»[(٣)].

وبإسناد موقوف صحيح عن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه قال: لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في طاعة الله ﷻ لحقر ذلك اليوم ولود أنه زاد كيما يزاد من الأجر والثواب[(٤)].

معاشر المسلمين الخوف الشرعي هو الذي يعلق صاحبه بالله تعلقًا مشروعًا، يدفعه إلى عمل الطاعات واجتناب المعاصي وطب المغفرة والرحمة مقرونًا بالرجاء وحسن الظن بالله، وليس بالخوف السلبي الذي يقعد بصاحبه عن العمل، أو يدعوه إلى فعل ما حرمه الله من الأقوال أو الأفعال، كحال جهلة الصوفية وأمثالهم ممن يعبد الله بالأهواء والتخيلات الفارغة.

---

(١) السابق ١/ ٨٩.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ١/ ١٠٨.

(٣) رواه أحمد وغيره، وقال الهيثمي: إسناده جيد ١٠/ ٢٢٥، السابق ١/ ١٠٩.

(٤) السابق ١/ ١١٠.

إن حقيقة الخوف من الله مراقبته على الدوام والوقوف عند حدوده في السرّ والجهار ولذا كان أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ولا شك أن الخائفين في الدنيا هم الآمنون يوم القيامة، فمن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا أن سلعة الله الجنة.

وقد جاء في الأثر المروي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»[١].

اللهم اجعل خوفنا لك ووجلنا منك، وبخوفنا في الدنيا آمنا يوم نلقاك .. أقول ما تسمعون ...



(١) أخرجه ابن حبان، وابن المبارك، وابن أبي الدنيا، وأبو نعيم وغيرهم، واختلف في صحة إسناده أو ضعفه، ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ١/ ١٢٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره، وأسأله تعالى أن يجعل خوفنا ورجاءنا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونسأله تعالى أن يجعلنا يوم الفزع الأكبر من الآمنين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بين للأمة بسلوكه القولي والفعلي ما به يأمنون وكيف ومم يخافون؟ اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى الآل والأصحاب والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون، وكما أن الخوف من الله من صفات المؤمنين فهو من شروط الإيمان كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وهو سمة من سمات العلماء العارفين ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولا ينبغي لعاقل أن يغتر بطول غفلة الغافلين، وأمن المفرطين، وقلة خوفهم من رب العالمين، فذلك دليل جهلهم بحقيقة ما هم مقدمون عليه من الأهوال التي يشيب لهولها الولدان، وهو مظهر من مظاهر جهلهم بعظمة خالقهم، ولو قدروا الله حق قدره لخافوه وعظموه وتقربوا إليه.

وهذه مواكب الإيمان قديمًا وحديثًا يتسابقون في عمل الصالحات، ويكفون عن المحرمات، ويمتنعون من ظلم أنفسهم أو ظلم الخلق من حولهم، ومع ذلك كله يبلغ بهم الخوف من الله مبلغه، ويظلون يبكون على خطيئتهم، ويتمنى الواحد منهم لو كان جذنًا أو شجرة تعضد قبل يوم القيامة، فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه أعلم الناس بالحلال والحرام حين حضرته الوفاة جعل يبكي، فقيل له: أتبكي وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ولمسلم وأنت أنت، فقال: ما أبكي جزعًا من الموت إن حل بي، ولا دينًا تركته بعدي، ولكن إنما

هما القبضتان: قبضة في النار، وقبضة في الجنة، فلا أدري في أي القبضتين أنا»[١].

وهذا عبد الله بن مسعود ﷺ كان يقول: «والذي لا إله غيره لوددت أني أنقلب روثة وأني دعيت عبد الله بن روثة وأن الله غفر لي ذنبًا واحدًا»[٢].

بل إن أحد الخيرين عمر ﷺ يروى عنه أنه كان يقول «يا ليتنى كنت كبش أهلي سمنوني ما بدا لهم، حتى إذا كنت كأسمن ما يكون زارهم بعض من يحبون فذبحوني لهم، فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديدًا ثم أكلوني، ولم أكن بشرًا»[٣].

وكيف لا يخاف هؤلاء وأمثالهم كثير. . وهذا صفوة الخلق محمد بن عبد الله ﷺ يضرب المثل في العبادة والتقوى ويضرب المثل في الخوف والبكاء.

فعن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى- وفي رواية كأزيز المرجل- من البكاء»[٤].

ويقول أبو ذر ﷺ قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها، والآية قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٥].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد وغيره في سنده انقطاع وله شاهد مرفوع عن عبد الله بن عمرو بن العاص شعب الإيمان ١/ ١٧٨، وانظر صحيح الجامع ٢/ ٢٩٢.

(٢) إسناده حسن وأخرج أحمد نحوه في الزهد، السابق ١/ ١٨٤.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٣٠.

(٤) أخرجه ابن المبارك والترمذي وغيرهما بإسناد حسن، السابق ١/ ١١٥.

(٥) سورة المائدة: ١١٨.

أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ١/ ٢٤١، والشعب ١/ ١١٧.

حتى ختمها قال: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ﷻ»**[(١)] ثم قال أبي ذر: «والله لوددت أني شجرة تعضد».

أمة الإسلام يطول الحديث عن الخوف من الله، وتكثر القصص في نماذج الخائفين بحق من الله.. وليس في المقام متسع لأكثر من هذا، والعبرة بالعمل بعد العلم، وعلى قدر إيمان العبد وعلمه وتقواه بخالقه يكون خوفه وكما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: رهبة العبد من الله تعالى على قدر علمه بالله، وزيادته في الدنيا على قدر شوقه إلى الجنة.

يا أخا الإيمان إذا أردت أن تعلم من نفسك قدر الله عندك فانظر في نسبة خوفك منه، فعلى قدر عظمة الله عندك يكون خوفك منه، وبرهان خوفك من الله مسارعتك في الطاعات وامتناعك عن المحرمات. ومن عزائم محبة الله محبة ما يحبه الله ومحبة أوليائه، وبغض ما يبغض الله والبراءة من المشركين والمنافقين، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الجوارح[(٢)].

وحتى لا ييأس العبد من مولاه.. وحتى لا تظلم الدنيا في عينيه، وتتحول حياته إلى خوف دائم يقعد به عن العمل.. فثمة جناح آخر ينبغي أن يطير به الزمن ألا وهو الرجاء ذلك الحبل الممدود بين الأرض والسماء.. وذلك مجال الحديث في خطبة قادمة بإذن الله..

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وإسناده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، الشعب ١/ ١٢٦.

(٢) شعب البيهقي ١/ ٢٠٧.

(٢) المسلم بين الخوف والرجاء[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين ملاذ الخائفين، وأمل الراجين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له يفر الخلق منه إليه وليس أحد يفر منه ويلجأ إليه سواه ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾[٢] وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله علم الأمة كيف يكون الخوف منه، وكيف يكون الرجاء فيه، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله عباد الله واحترزوا من كل شيء دون الله، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع به.

أيها الإخوة المسلمون قد سبق الحديث عن الخوف من الله حقيقته وفضله وآثاره ونماذج لخوف المؤمنين، فليس يسوغ الحديث عنه مهما كان مختصرًا إلا باستكمال الحديث عن الرجاء، حتى قيل: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا جميعًا صار الطائر في حدّ الموت، لذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا[٣].

وقبل الحديث عن الرجاء أستكمل نماذج أخرى من خوف السلف، وبعضًا من ثمار الخوف وآثاره في الدنيا، وثماره في الآخرة أعزّ وأغلى، فسفيان

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ١٠/ ١٤١٥هـ.

(٢) سورة التوبة: ١١٨.

(٣) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٣٠٢.

الثوري رحمه الله- كان إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم[١].

وحين أصابه السقم حُمل مقدار من بوله فعرض على الأطباء فلم يعرفوا ما به، حتى حمل إلى راهب في ناحية الحيرة، فلما نظر إليه قال: ليس بصاحبكم مرض، إنما الذي به لما دخله من الخوف[٢].

وفي رواية: قال الطبيب: هذا ماء رجل قد أحرقه الخوف[٣].

ولا غرابة في ذلك، فمع قيام هذا العالم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو يشعر بتقصيره في أداء الواجب، ويقول: «إني لأرى الشيء يجب علي أن آمر به أو أنهى عنه لا أفعل فأبول دمًا»[٤].

وإذا كان يطيب ذكر الخائفين من علماء وأعلام المسلمين، فالذكر أطيب حين يكون الخوف من الولاة الورعين، ويتمثله أحد أئمة المسلمين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، أولئك حقًّا هم النماذج لولاة المسلمين، وعلى قدر خوفهم من خالقهم تهابهم وتجلهم رعيتهم.

قالت فاطمة بنت عبد الملك -زوج عمر بن عبد العزيز يرحمه الله- تصف خوف عمر: يا مغيرة إنه قد يكون في الناس من هو أكثر صلاةً وصيامًا من عمر، وما رأيت أحدًا قط أشد فرقًا من ربه من عمر. كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد، ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عيناه[٥].

وعمر بن عبد العزيز -يرحمه الله- هو الذي كانت لا تجف له دمعة من هذه

---

(١) الحلية لأبي نعيم ٧/ ٢٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٢٤٢.
(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي ١/ ٧٢٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٧٠، وشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٥٤.
(٤) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٥٢، الحلية ٧/ ١٤، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣.
(٥) أحمد في الزهد ص٣٦٣، الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧١. والبيهقي في الشعب ١/ ٢٦٧.

الأبيات:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له   من الله في دار القرار نصيب
فإن تعجب الدنيا أناسًا فإنها   متاع قليل والزوال قريب[١]

إخوة الإسلام لا غرابة أن يحب الخلق من يخاف الله، فمن خاف الله أخاف منه كل شيء، ومن شغل بالله انشغل الخلق بأمره، ومن أحب الله أحبه الخلق.

يقول عمر بن عبد العزيز والفضيل بن عياض رحمهما الله: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء[٢].

وقال: يحيى بن معاذ الرازي -يرحمه الله-: على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بأمر الله شغل في أمرك الخلق[٣] وتلك وربي من ثمار الخوف في الدنيا.

ولكل شيء حقيقة، ولكل عمل علامة يستدل بها عليه، وقد قال ذو النون: ثلاث من أعلام الخوف: الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد، وحفظ اللسان مراقبةً للعظيم، ودوام الكمد إشفاقًا من غضب الحكيم[٤] فالخوف شعور قلبي بعظمة الخالق في الباطن، ينشأ عنه سلوك حسن في الظاهر، إذ ليس يكفي مجرد الخوف الظاهري، فقد ينخدع الناس ببكاء شخص في الظاهر، ويشهد الله على فساد طويته في الباطن.. ولهذا لم يكتف العلماء بمجرد بكاء العينين دليلًا على

(١) ثلاث من شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٦٨، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١٣٨.
(٢) ثلاث شعب من شعب الإيمان ١/ ٢٦٤، ورجال الإسناد ثقات.
(٣) الحلية لأبي نعيم ٨/ ١٠، ابن الجوزي: صفة الصفوة ٤/ ٩٥، البيهقي شعب الإيمان ١٣/ ٦٦.
(٤) الحلية ٩/ ٣٦١، شعب البيهقي ١/ ٢٧٠.

الخوف، بل ربما عدوه في النفاق، قال علي بن عثام: بكى سفيان يومًا ثم قال: بلغني أن العبد أو الرجل إذ كمل نفاقه ملك عينيه فبكى[١].

أيها الإخوة المؤمنون، الرجاء قرين الخوف، وهو الاستبشار بفضل الله، والثقة بجوده، والارتياح لمطالع كرمه ﷻ وهو من شعب الإيمان، وإنما كان الرجاء من شعب الإيمان لأنه من أمارات التصديق.

قال الإمام البيهقي رحمه الله: وأفضل الرجاء ما تولد من مجاهدة النفس ومجانبة الهوى، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وفرق بين الرجاء والتمني، فالرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، أما التمني فيكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، ولذا أجمع العلماء على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل[٣].

وإذا استحكم الرجاء وكان على وجهه المشروع حدث عنه من التخشع والتذلل نحو ما يحدث عن الخوف إذا استحكم، لأن الخوف والرجاء متناسبان، إذ الخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه ويدعو الله ﷻ به، والراجي في حال رجائه خائف خلاف ما يرجو ويستعيذ بالله منه، ولا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف، ولأجل تناسب الأمرين قرن الله تعالى

---

(١) ويروى مرفوعًا عن عقبة بن عامر ولا يصح (ثلاث من شعب الإيمان ١/ ٢٥٣، ٢٥٤، الزهد لأحمد/٣٩٠، الكامل لابن عدي ٤/ ٤٦٨، والعلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٣٣٥.

(٢) سورة البقرة: ٢١٨، شعب البيهقي ١/ ٢٩٠.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٣٧، شعب البيهقي ١/ ٢٧٨.

بينهما في غير آية من كتابه، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٢].

وفي الحديث المتفق على صحته يبين النبي ﷺ لماذا يكون الخوف والرجاء فيقول: «**لو يعلم المؤمن بما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**» وقد اشتمل الحديث -كما قال الحافظ ابن حجر- على الوعد والوعيد المقتضيين للخوف والرجاء، فمن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه، والانتقام بما أراد أن ينتقم منه، لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة لو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة»[٣].

دخل المصطفى ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسوله الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو**».

إخوة الإيمان إذا كان يحسن الرجاء بالله في كل موطن، وحسن الظن بالله في كل حال، فذلك أجمل وأحرى في لحظات العبد الأخيرة وقرب رحيله من الدنيا، ولهذا كان السلف رحمهم الله يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٦.

(٢) سورة الإسراء: ٥٧.

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٠٢، في الرقاق باب الرجاء مع الخوف.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله** ﷻ»(١).

وحين دخل واثلة بن الأسقع رضي الله عنه على يزيد بن الأسود وقد نزل به مرض ذهب عقله منه، ووجه نحو القبلة، فلما سمع يزيد باسم واثلة الصحابي بقي له من عقله ما يطلب به كف واثلة فأخذها ووضعها على صدره مرة وعلى وجهه أخرى وعلى فيه ثالثة- وذلك لموضع يد واثلة من يد رسول الله ﷺ فقال له واثلة: ألا تخبرني عن شيء أسألك عنه، كيف ظنك بالله؟ قال: اعترتني ذنوب لي أشفيت على هلكة، ولكن أرجو رحمة الله، فكبر واثلة وكبّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر سمعت رسوله الله ﷺ يقوله: «**يقول الله ﷻ أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء**»(٢).

فاحرصوا معاشر المسلمين على حسن الظن بربكم مع حسن العمل، واحرصوا على ذلك في وقت شدتكم، وذكِّروا موتاكم في حال نزعهم بضرورة حسن الظن والرجاء بالله، وتأملوا حال السلف من قبلكم، وهذا المعتمر بن سليمان يقول: قال لي أبي حين حضرته الوفاة: يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله وأنا حسن الظن به(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم وغيره ٤/ ٢٢٠٥.

(٢) حديث حسن أخرجه أحمد ٣/ ٤٩١، وابن المبارك والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وغيرهم، شعب البيهقي ١/ ٢٨٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٩٩، شعب البيهقي ١/ ٢٨٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، قال في محكم التنزيل ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾(١) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يضاعف الحسنات ويعفو عن الزلات، وما يزال العبد بخير ما زال يرجو رحمته ويخاف عذابه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كان من أشد الناس خوفًا من الله، وأكثرهم رجاءً به، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام حضر أحد السلف -عبد الأعلى التيمي- جارًا له قد حضره الموت فقال له: أبا فلان: ليكن جزعك لما بعد الموت أكثر من جزعك من الموت، وأعد لعظيم الأمور حسن الظن بالله ﷻ»(٢).

وهنا يرد السؤال: متى يكون الخوف أفضل، ومتى يكون الرجاء أفضل؟ قال السري بن المغلس: الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف، فقال له رجل: كيف يا أبا الحسن؟ قال: لأنه إذا كان في صحته محسنًا عظم رجاؤه عند الموت وحسن ظنه بربه، وإذا كان في صحته مسيئًا ساء ظنه عند الموت ولم يعظم رجاؤه.

قال البيهقي رحمه الله -معلقًا- وإنما أراد به خوفًا يمنعه من معصية الله ﷻ، ويحمله على طاعته، حتى إذا حضره الموت عظم رجاؤه في رحمة ربه، وكثر عمله في إحسان الله ثقة منه بوعد الله ﷻ(٣).

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) أبو نعيم في الحلية ٥/ ٨٧، شعب البيهقي ١/ ٢٨٩.

(٣) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان البيهقي ١/ ٢٨٩.

ويربط ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بين حسن الظن وحسن العمل فيقول: ولا ريب أن حسن الظنّ إنما يكون مع الإحسان فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده.. ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز[(١)].

وهكذا يربط ابن القيم بين حسن الظن وحسن العلم، ويوضح أثر حسن الظن بالله على حسن العمل، وتأملوا هذا الحديث من مشكاة النبوة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**حسن الظن من حسن العبادة**»[(٢)].

ومرة أخرى يوضح ابن القيم الفرق بين حسن الظن والغرور فيقول: وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساقه إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور[(٣)] والرجاء بلا عمل- اجتراء على الله عَزَّوَجَلَّ- كما قيل[(٤)].

وهذا عبد الله بن خبيق يقسم الناس إلى ثلاثة أصناف، ويقول: الرجال ثلاثة: رجل عمل حسنةً فهو يرجو ثوابها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الرجل الكذاب يتمادى في الذنوب ويقول: أرجو المغفرة، ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغي أن يكون خوفه غالبًا[(٥)].

---

(١) الجواب الكافي ص ٢٦- ٢٨.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه وأقره الذهبي ١٤/ ٢٤١، شعب البيهقي ١/ ٢٩٨.

(٣) الجواب الكافي ص ٤٦.

(٤) شعب البيهقي ١/ ٢٩٨.

(٥) السابق ١/ ٢٩٧.

وأنشد بعضهم:

ما بال دينك ترضى أن تدنسه   وإن ثوبك مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس(١)

ومن حكم لقمان أنه قاله لابنه، يا بني أُرج الله رجاءً لا يجرئك محلى معصيته، وخف الله خوفًا لا يؤيسك من رحمته.

قال ابن القيم رحمه الله: الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله، فلولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء(٢).

وإذا علم حد الرجاء الشرعي وعلم حسن الظن بالله على مفهومه الصحيح، فقد كان للسلف رحمهم الله أقوال ومأثورات في تطميع الناس بفضل الله وسعة رحمته وعدم الانقطاع عن رجائه والوقوف ببابه، بل كانوا يحذرون من تيئيس الناس وتقنيطهم من رحمة الله.

فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين دخل عليها عبيد بن عمير قالت: أعمير بن قتادة؟ قالوا: نعم، قالت: أحدث أنك تجلس ويجلس إليك، قال: بلى يا أم المؤمنين فقالت: «فإياك وإملال الناس وتقنيطهم»(٣).

ومر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على قاص وهو يذكر فقالت: يا مذكر لا تقنط الناس، ثم قرأ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾(٤) وليس الأمر قصرًا على عائشة وابن مسعود في تطميع

---

(١) السابق ١/ ٣٠٤.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٥٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه وغيره بإسناد حسن، شعب البيهقى ١/ ٣٢٤.

(٤) سورة الزمر: ٥٣ (أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وغيره، شعب البيهقي ١/ ٣٢٥).

الناس بفضل الله وعدم تقنيتهم، بل كان ديدن الصحابة رضوان الله عليهم عدم التشديد حتى قال عمير بن إسحاق: «كان ممن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ فمن سبقني، فما رأيت قومًا أهون سيرة ولا أقل تشديدًا منهم»[١].

وما بالهم لا يكونون كذلك وهذا قدوتهم ومعلم البشرية وهاديها بإذن ربها يقول وقد خرج على رهط من أصحابه وهم يتحدثون، والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، فلما انصرفوا: أوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادي، فرجع إليهم فقال: «**أبشروا وقاربوا وسددوا**»[٢].

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: ففي هذا دلالة على أنه لا ينبغي أدن يكون خوفه بحيث يؤيسه ويقنطه من رحمة الله، كما لا ينبغي أن يكون رجاؤه بحيث يأمن مكر الله أو يجرئه على معصية الله عَزَّوَجَلَّ[٣].

وينبغي أن تكون هذه وتلك منهجًا لمن يتصدرون لتعليم الناس وتوجيههم.

اللهم ارزقنا خوفك ورجاءك ووفقنا لطاعته واسلك بنا سبيل أوليائك يا رب العالمين... هذا وصلوا...



(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/ ٢٢٠، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٤، والبيهقي في شعبه ١/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان وإسناده صحيح، شعب البيهقي ١/ ٣٢٨.

(٣) شعب البيهقي ١/ ٣٢٨.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، بعث الرسل بالتوحيد الخالص، فقال جل من قائل عليمًا ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وصف خليله إبراهيم عليه السلام بصفات غاية في تحقيق التوحيد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أمره خالقه بإخلاص العبادة لله وحده وفي كل شأن من شؤونه وهو أمر لأمته بعده، فقال جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4].

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى معلمي الناس الخير من عباد الله الصالحين وأشمل بالصلاة والسلام آل محمد الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله معاشر المسلمين وتأملوا في عقيدتكم فإنها أغلى ما تملكون، وانظروا في سلامة وإخلاص عبوديتكم لله رب العالمين.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٢/ ١٤١٥هـ.

(٢) سورة النحل: ٣٦.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ١٢٠، ١٢١.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

إخوة الإيمان وفي زحمة الحياة الدنيا وصخبها، وفي ظل زينتها وافتتان الناس بها. ولهوهم وغفلتهم وانشغالهم عن الحياة الأخرى نحتاج إلى تذكير بقضايا العقيدة الكبرى فعليها ينبغي أن تقوِم الحياة، وعليها ينبغي أن يكون الممات، وليس للعبد خيار في صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، كالخوف والرجاء والدعاء والذبح والنذر، والتوكل والإنابة، والاستعانة والاستعاذة.. ونحوها من أمور العبادة الأخرى.

لا خيار لنا في صرف شيء منها لغير الله والحق تعالى يقول ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وحين يضعف اليقين، أو تغيب عن الناس تعاليم المرسلين يتخبطون في مسيرتهم، ويشركون مع الله غيره في عبادتهم.

وتعالوا بنا معاشر المسلمين لنقف مع أنفسنا وقفة مصارحة ومحاسبة في واحدة من هذه العبادات لنرى واقعنا ونبصر حجم أخطائنا ونعود إلى رشدنا.

إنها عبادة التوكل على الله التي يدعوني للحديث عنها قلة ما يسمعه الناس عنها، وكثرة الأخطاء فيها، وشيوع الجهل في تحقيق مقصد الشرع منها.

وأستعجل في ذكر شيء من هذا الأخطاء الواقعة في هذه العبادة في حياة الناس اليوم حتى يعلم مسيس الحاجة للحديث في الموضوع هذا من جانب، ومن جانب آخر حتى تكون معرفة الداء طريقًا لأخذ الدواء.

فمن مظاهر عدم التوكل على الله- حق توكله- التخوف الذي يصل إلى درجة الهلع والرعب- ليس من تذكر القيامة ومشاهدها، وإنما لأمر طارئ من أمور الدنيا، والحرص والطمع المؤديان إلى الشح والبخل، وطلب الشفاعة دائمًا من الآخرين فيما قدروا عليه وما لم يقدروا، والاستدواء بالأدوية المحرمة

والذهاب للسحرة والكهان وأهل الشعوذة والدجالين وطلب النصر والحماية من الآخرين، وتعليق الرزق أو الأجل على أسباب لا تنتهي إلى رب العالمين، والشعور الدائم بالقلق، والتفكير السلبي بالمستقبل، والتخوف المستمر على المال والولد والاستجابة لوساوس وأوهام الشياطين، والتذلل المخزي للخلق أيًا كانت منازلهم، والسكوت عن قولة الحق لا لمصلحة في الدين وإنما خوف التبعة وإيثارًا للسلامة والعافية حتى وإن كان في ذلك غضب رب العالمين، والتجاوز في طلب الرزق من الحلال إلى الحرام ومرده ضعف اليقين وقلة التوكل على الله في تأمين رزقه ورزق من يعوله من البنات والبنين.. إلى غير ذلكم من المظاهر.

إخوة الإيمان إذا علم هذا فينبغي أن يعلم أن التوكل عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، وإنها من أعمال القلوب، وهي اعتماد القلب على الله وثقته به، وأنه كافيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ جاء في المسند وسنن ابن ماجه والدارمي عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لأعلم آية في كتاب الله ﷻ لو أخذ الناس بها لكفتهم**» ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[١].

وينبغي أن يعلم أيضًا أن التوكل قرين الإيمان، فلا إيمان بلا توكل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

قال العلماء: التوكل فريضة يجب إخلاصه لله، وهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة فإنه إذا أعتمد على الله في جميع

---

(١) سورة الطلاق: ٣. (معارج القبول ١/ ٤٠٥- ٤٠٧)

(٢) سورة المائدة: ٢٣.

أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صحّ إخلاصه ومعاملته مع الله، وهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله(١).

وإذا كان التوكل قرين الإيمان، فهو علامة الإسلام قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(٢).

إخوة الإسلام أما الأنبياء والمرسلون عليهم السلام فكانوا قممًا شامخة في التوكل على الله، التزموه في ذوات أنفسهم، ودعوا الناس إليه، وتأملوا في مسيرتهم، واسلكوا طريقتهم، فهم المبلغون عن الله وهم أدرى الناس بطرق الخير والفلاح.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾(٣).

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

وقال عن شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وعن توكل الرسل إجمالًا ودعوتهم إليه قال الله عنهم ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٤).

---

(١) فتح المجيد/ ٤١٢.

(٢) سورة يونس: ٨٤.

(٣) سورة يونس: ٧١.

(٤) انظر: معارج القبول ١/ ٤٠٥- ٤٠٦.

أمة الإسلام أمر التوكل عظيم، وصرف شيء منه لغير الله يؤدي بصاحبه إلى الشرك صغيرًا كان أو كبيرًا، قال أهل العلم: التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة فهذا شرك أكبر.

والثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق أو رفع أذى ونحو ذلك فهو نوع شرك أصغر، والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليست له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على الله الذي أوجد السبب والمسبب[١].

تأملوا ذلك جيدًا واحرصوا على عقيدتكم، ولا يأتينكم الشيطان من حيث لا تشعرون أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ . . . نفعني الله وإياكم . .



(١) فتح المجيد/ ٤١٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين وفق من شاء لسلوك صراطه المستقيم، وأغنى من استغنى به عن الخلق أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بيده الخير كله، وعنده مفاتح الغيبة لا يعلمها إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى سائر المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام إذا علمتم معنى التوكل ومنهج الأنبياء فيه، والمظاهر السلبية لعدم التوكل، والآثار السيئة لعدم التوكل على الله، فمن حقكم أن تعلموا أثر التوكل على الله، ومآثره الجليلة في حياة الإنسان.

فالتوكل على الله يكسب صاحبه قوة وشجاعة تهون في سبيلها قوة الخلق ومكائدهم مهما كانت، وكلما قل قدر المرء من التوكل زاد نصيبه من الضعف والخور، ولاحقته الهموم وسيطرت عليه الأوهام ومن يتوكل على الله فهو حسبه ويورث التوكل صاحبه حفظًا وحمايةً له من الله وقت الشدائد والأزمات فهذا الخليل عليه السلام حين ألقي في النار تجلله التقوى ويحميه التوكل على الله من الاحتراق، وزاده في هذه اللحظات الحرجة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وهذا محمد ﷺ وأصحابه في حمراء الأسد يدفع الله عنهم الوهن، ويقذف في قلوب أعدائهم الرعب حين قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

روى البخاري والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: له ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

فالتوكل على الله طريق السعادة فأسعد الناس في هذه الحياة هم المتوكلون على الله حق توكله، إذ ليست السعادة بالأموال الطائلة ولا بالزينة الظاهرة، ولكنها الطمأنينة في القلب وهدوء البال وراحة الضمير، والاستعداد ليوم الرحيل وتلك وربي لا تحصل إلا بالتوكل واليقين، ولعل هذا يفسر لكم سر شقاء القوم الكافرين مهما توفرت لهم ملاذ الحياة وتهيأ لهم من سبل الراحة، ويفسر لكم من جانب آخر كيف نال السعادة أقوام عاشوا بالأكواخ أو شبهها وقامت بنيان بيوتهم على جريد النخل أو نحوها، كانوا يأكلون القديد ويفترشون الحصير حتى أثرت في جنوبهم، ومع ذلك كانت السعادة تغمر حياتهم في الدنيا وهم في الآخرة في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وعلى قدر نقصان مكيال التوكل يقل حجم السعادة كافرًا كان أم فاسقًا.

ففي التوكل على الله باب واسع للرزق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ ويلهث دون جدوى أولئك الذين يعلقون رزق الله على مجهودهم دون ربطه بحبل التوكل على الله، وفي حياة الناس عبرة فأنت ترى فئامًا من الناس يجهدون أنفسهم وربما واصلوا ليلهم بنهارهم في سبيل البحث عن الدرهم والدينار وقد تراهم من أفقر خلق الله وقد لا يوفرون لأنفسهم لقمة العيش فيضطرون إلى سؤال الناس واستجدائهم في حين ترى خلقًا من خلق الله أضعف حيلًا وأقل تفكيرًا وقد ضمن الله رزقهم وكفاهم من عنده، ويا له من حديث عظيم رواه عمر ﷺ عن النبي ﷺ وفيه قال: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

ولماذا لا يتوكل المسلم على الله ويثق بما عنده وهو يعلم أن الأجل محدود، والرزق مضمون، وقد قدر للمرء نصيبه من هذه الحياة وهو بعد لم ير النور.

ففي التوكل على الله قطع لدابر وساوس الشيطان الذي لا يفتأ يخوف الإنسان عن مخاطر المستقبل الذي سيصير إليه، ويرجف به في طلب المعاش خشية الفقر والعيلة، وما يزال يلقي الأوهام عليه في صحته حتى يمرضه وإن كان سليمًا معافى، ويحاول جاهدًا قطع حبله بالله فيصله بمخلوقين لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا فكيف يرتجى منهم تقديم النفع لغيرهم، أو جلب الفقر لسواهم.

أيها المسلمون لا يعني التوكل على الله عدم الأخذ بالأسباب المأمور بها شرعًا، فذلك نوع من التواكل لم يقره الإسلام، وأنتم تعلمون قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال له أعقل دابتي أم أتكل على الله؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام «**اعقلها وتوكل**»[١].

وحين كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن الموكلون، أنزل الله لهم ولغيرهم ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[٢].

قال العارفون: التوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها- كما ذكر ذلك ابن القيم وغيره[٣].

إخوة الإسلام، قال بعض السلف جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فلم يقل له

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي، صحيح الجامع ١/ ٣٥٢.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧، تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٨.

(٣) فتح المجيد/ ٤١٧.

كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه[1] فتوكلوا على الله حق توكله، واستعينوا به وحده يكفكم ما أهمكم، ويوسع لكم في أرزاقكم ويمتعكم متاعًا حسنًا في الدنيا، وتفوزوا بالسعادة يوم لقاه.

أختي المسلمة ألتفت إليك بشكل خاص.. وأنت أدرى الناس بنفسك، أدعوك لترك القلق وعدم الاستسلام للأوهام، والاعتصام باليقين والتوكل على الله وستجدين فيه علاجًا لكل مرض وداء من كل سقم.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة، وأن يهب لنا صدق التوكل عليه وخالص العبادة له.



(١) السابق/ ٤١٦.

محنة التتر أحداث وعبر[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين واخشوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

إخوة الإيمان من أيام موسى عليه السلام وما حصل له ولبني إسرائيل من الأذى والعذاب على يد فرعون وملأه، إلى غزوة أحد وما وقع فيها من شدة على الرسول ﷺ والمؤمنين على أيدي الكافرين، أنتقل بكم للحديث عن أحوال العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري يوم أن ضعف سلطان المسلمين، وتفرقت كلمتهم، وأثقلتهم خطاياهم، وتنازعوا أمرهم بينهم، حينها خرجت جحافل المغول المتوحشة تسفك الدماء، وتقتل الأبرياء، وتهتك أعراض النساء، وتستولي على الممتلكات والضياع دون رادع أو حياء، في مشاهد بشعة تكاد تنكرها العقول لولا ثبوتها، ولهولها وشدتها ظنت طوائف من المسلمين بالله الظنون، وربما خيل لبعضهم أن شجرة الإسلام قد اجتثت من أصولها،

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق، ١٠/ ١/ ١٤١٦هـ.

وأن بذرة المسلمين قد استؤصلت من جذورها، بل بالغ البعض فظن في تلك الحوادث المؤلمة نهاية العالم، واعتبرها آخرون أشد من فتنة الدجال، أجل لقد بقي المؤرخ ابن الأثير -وهو شاهد عيان لبعض أحداثها- عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها وهو يقول: فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا أو كنت نسيًا منسيًا إلا أني حدثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا.. فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله ﷻ آدم ﵇ وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا[1].

وبالله لا شك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فينظر أننا سطرنا نحن، وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه[2].

هذا الوصف من ابن الأثير وهو بعد لم يشهد الفاجعة العظمى والمصيبة الكبرى لسقوط بغداد ونهاية الخلافة الإسلامية الكبرى على أيدي العباسيين، ويقول ذلك وهو لم يعلم بتجاوز التتر بلاد العراق إلى بلاد الشام وما حصل فيها من المآسي والآثام، تلك الأحداث التي يصفها بجلاء، ويشخص فيها أحوال

---

(١) الكامل ١٢/ ٣٥٨.

(٢) الكامل ١٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.

الناس، ويصور مشاعرهم ومواقفهم بدقة وخبرة شيخ الإسلام ابن تيميه عليه رحمة الله حين يقول: فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيها عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع وينصرم وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدًا.. ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت اللبيب لكثرة الوساوس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى[1].

معاشر المسلمين: هذا جزء من وصف ابن الأثير وابن تيمية رحمهما الله - لهذه الحادثة الكائنة وهو يكشف لكم عن استمرار البلوى والامتحان لأهل الإيمان عبر الزمان والمكان، ويكشف من جانب آخر اختلاف مواقف الناس حين الشدائد والمحن، وكيف يثبت الله المؤمنين، ويفضح المنافقين، ويكشف حقد الكافرين، وكيف يرفع بها أقوام، وتحط من خطاياهم، ويزل بها آخرون

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٤٢٧، ٤٢٨.

وتكون فتنة لهم، يقول شيخ الإسلام- في بقية وصفه- من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرضه- بعد أن تحدث عن أصناف الناس في هذه المحنة- «ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى، وبليت فيها السرائر وظهرت الخبايا، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه من المال، وذم سابقه وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيل، كما حمد ربه من صدق ما جاءت به الآثار النبوية.. إلى أن يقول وتحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام..»[1].

أيها الإخوة المؤمنون فإن قلتم: وهل وقع في هذه المحنة ما يستوجب هذه الوحشة وذلك الفرق والذهول لأهل الإسلام؟ أجبت أن نعم وإليكم نماذج لما حصل.

ففي بخارى المسلمة دخل التتر عنوة، وطلب أهلها الأمان، فأظهر لهم «جنكيز خان» العدل وحسن السيرة وهو يروم غير ذلك، إذ أمر بالتوجه إلى قلعتها الحصينة التي احتمى بها طائفة من العسكر لم يتمكنوا من الهروب مع أصحابهم، وطلب من أهل البلد الخروج معه لمحاصرتها ومن تخلف عنه قتل، فكانت تلك بداية الاستخفاف والاستذلال، فخرجوا خوفًا من بطشه، وأمرهم بردم الخندق المحيط بالقلعة ففعلوا، وبلغ من سوء التتر واستهتارهم أن استخدموا كل شيء في ردم هذا الخندق حتى ألقيت المنابر وربعات القرآن في الخندق، وبعد قتال مرير دخلوا القلعة وقتلوا جميع من احتمى بها من المسلمين، ولم تقف المأساة عند هذا الحد، بل عادوا مرة أخرى إلى البلد

(١) الفتاوى ٢٨/ ٤٢٨.

يقتلون ويأسرون ويفسدون، حتى قال ابن الأثير: وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان.. ورضي بعض المسلمين بالقتل دون ذلك الفساد لا سيما أهل العلم والفقه والدين[(١)].

وفي سمرقند نصب التتر كمينًا لأهلها، فوقع في شراكهم سبعون ألفًا من المسلمين قتلوا في غداة واحدة شهداء[(٢)].

ثم عادوا إلي البقية من أهلها يقتلون ويأسرون ويفسدون، فهدمت المساجد وفضت الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب.

أما في «مرو» فأحصى ما قتلوه في يوم واحد فبلغ سبعمائة ألف إنسان- كما نقل- ابن كثير[(٣)].

وفي نيسابور ذبح المغول جميع أهلها، وحتى يتأكدوا من هلاكهم جميعًا قطعوا رؤوسهم، وعملوا منها ثلاثة أهرامات، هرمًا لرؤوس الرجال وهرمًا لرؤوس النساء، وثالثًا لرؤوس الأطفال[(٤)].

إخوة الإيمان هذه المآسي كلها وأمثالها، دون مأساة بغداد- التي تحتاج إلى حديث خاص- خلفت- في بدايتها- جوًّا من الرعب والضعف والمسكنة يصف لنا ابن الأثير بعض مظاهره ويقول: حكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلًا في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا: حتى يكتف بعضنا بعضًا، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله

(١) الكامل ١٢/ ٣٦٥- ٣٦٧.
(٢) الكامل ١٢/ ٣٨.
(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٦٧.
(٤) العالم الإسلامي في المشرق الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي/ ١٨٧.

ونهرب؟! فقالوا: نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينًا وقتلته وهربنا فنجونا(١).

ويذكر المؤرخون أن رجلًا من التتر أخذ رجلًا من المسلمين ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ففعل حتى جاء التتري بسيف وقتله به(٢).

قال ابن الأثير: وبلغني أن امرأة من التتر دخلت دارًا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلًا، فوضعت السلاح وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرًا(٣).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(٤) نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



---

(١) الكامل ١٢/ ٥٠١.

(٢) الكامل ١٢/ ٥٠١.

(٣) الكامل ١٢/ ٣٧٨.

(٤) سورة البروج: ١٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالين أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فيا إخوة الإسلام فليس القصد من ذكر هذه الأحداث المؤلمة التلذذ بذكر قصصها، ولا الاستزادة من معرفة أخبارها، فلمثل هذه الأحداث يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان.

وإنما القصد الاستفادة من عبرها ودروسها، والوقوف على الأسباب التي أدت إليها، ومعرفة طرق العلاج التي تسلك للخلاص منها.

وإليكم بعض الدروس والعبر لمثل هذه الأحداث والخطوب:

١- إن سنة الله جارية قديمًا وحديثًا، والذين تروعهم الأحداث المؤلمة في البوسنة والهرسك أو فلسطين، أو يعجبون للحرب العقائدية في أرض الشيشان، أو يستغربون تصفيات المسلمين في بورما وتايلند، وكشمير والفلبين وغيرها من بلاد المسلمين- ومن حقهم ذلك- لكن عليهم أن يتذكروا أنها حلقة في صراع الحق مع الباطل، وأنها معركة أطرافها القرآن الحق، حتى وإن ضيعه أهله، ولم يلتزموا بكل ما فيه.. والتوراة والإنجيل وسواهما من الأديان والنحل الباطلة، إذ يراد القضاء على البقية الباقية من هذا الدين، والسحق لهذه الشعوب المسلمة التي بدأت تتلمس طريق الخلاص، وتعود للإسلام وتعتز بالدين.

٢- وغربة الدين وضعف المسلمين لا ينبغي بحال أن يقود إلى الإحباط وخور النفوس، ولا ينبغي أن يكون سلمًا لأن يخامر القلب الشكوك، أو أن

يظن المسلمون بربهم الظنون السيئة، بل يجب أن يكون مادة للصبر والثبات على دين الله والبذل في سبيله حتى يأذن الله بالفرج يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ اللهُ. . معلقًا على حديث: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**» «وكثير من الناس إذا رأى المنكر وتغير كثير من أحوال الإسلام فزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنبه فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»(١).

٣- وكما أن المسلم مأمور بالصبر والثبات على دين الله في كل حال ولاسيما في المحن، ومنهي عن سوء الظن بالله، فهو منهي كذلك عن التأفف أو الاعتراض على شيء من أقدار الله، وقد حكى ابن كثير في ترجمة الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال قال: كان صالحًا ورعًا زاهدًا حكى عن نفسه قال: كنت بمصر فبلغني ما وقع من القتل الذريع ببغداد في فتنة التتار، فأنكرت في قلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلًا وفي يده كتاب فأخذته فقرأته، فإذا فيه هذه الأبيات فيها الإنكار علي:

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم في حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة البحر هلك
إليه تصير أمور العباد ... دع الاعتراض فما أجهلك(٢)

٤- الدرس الرابع أن يفتش المسلمون في أحوالهم، ويصدقوا مع أنفسهم في

(١) الفتاوى ١٨/ ٢٩٥.
(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤١.

البحث عن أسباب الذلة والهوان.. وسيجدون أن أعظم الأسباب كامن في ذوات أنفسهم، وأن الله لا يسلط عليهم عدوًا من خارج أنفسهم إلا إذا هم خالفوا أمره وعصوا رسوله ﷺ.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

ويقول جل ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾[3].

بل لقد أنزل الله- فيما أنزل على محمد ﷺ قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

وإذا كان هذا مع أهل الإيمان فلا تسأل عن غيرهم من أهل الضلالة والفجور والعصيان؟ وما ربك بغافل عما يعملون.

٥- الدرس الخامس: هذه الأحداث المؤلمة على أهل الإسلام قديمًا وحديثًا كما تؤكد سنة الابتلاء وتمييز الصادقين من الكاذبين، فهي تؤكد كذلك عظمة هذا الدين، وأنه صخرة شماء، غني عنهم، لكنهم هم الفقراء إلى عفو الله ورحمته، فإذا صلحت أحوالهم واستقامت أمورهم على شريعة الله فليبشروا

---

(١) سورة الشورى: ٣٠.

(٢) سورة الرعد: ١١

(٣) سورة محمد: ٣٨.

(٤) سورة المائدة: ٥٤.

بنصر الله تحقيقًا لوعد الله والله لا يخلف الميعاد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

٦- سادسًا- ويبقى بعد ذلك صنفان من الناس لهما أثر كبير في صلاح الناس واستقامتهم ألا وهم العلماء والأمراء، وحيث لا يزال الحديث متصلًا بأحداث التتر منع المسلمين، وللحديث بقية، فسأورد لكم في الخطبة القادمة بإذن الله بأن العلماء والأمراء لهم أثر كبير في استصلاح أوضاع المسلمين، ومن ثم تحقيق النصر المؤزر في وقعة عين جالوت على أعداء الدين.

٧- أيها المسلمون ويبقى سلاح الدعاء سهمًا نافذًا، وعدة ما لها من نفاد يملكها الفقراء كلما يملكها الأغنياء، وتشوي فيها الذكر والأنثى على حد سواء، ولا يعذر بها العامة فضلًا عن العلماء، فألحوا على الله بالدعاء بنصرة هذا الدين والتمكين للمؤمنين واظهروا لله الفاقة والتضرع والخشوع، وادعوه دعاء المضطر، لاسيما في مثل هذا اليوم الذي نصر الله فيه الحق على الباطل (يوم عاشوراء) وهو يوم الجمعة فيه ساعة تستجاب فيها الدعوة كما تعلمون.. وأنتم ومعظمكم لله صائمون وللصائم دعوة لا ترد.

ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة.. فهو يجيبه المضطر إذ دعاه ويكشف السوء.



---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١- ١٧٣.

عين جالوت بين جهاد الأمراء وإخلاص العلماء[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين أعز الإسلام بجهود العلماء المخلصين، ونصر الدين بجهاد الأمراء والسلاطين الصادقين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، كتب العزة والغلبة لعباده المتقين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام المتقين، وقائد المجاهدين الصادقين، اللهم صلّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله اتقوا الله حق التقوى، وتمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واعلموا أن هذه الدار خلقت لتفنى، وأن الآخرة خير وأبقى.

أيها المسلمون واستكمل الحديث عن غزو التتر لبلاد المسلمين، وأعرض لنماذج من مواقف العلماء والأمراء في غابر السنين وفي التاريخ عبرة للمعتبرين.

وقبل هذا وذاك أعرض بإجمال لواقع الأمة الإسلامية في منتصف القرن السابع الهجري، وأؤكد أن أدواء الأمة من داخلها أخطر عليها وأشد من كيد أعدائها. فالتنازع والخصام بين المسلمين لأغراض الدنيا، والولاءات والتحالفات مع الخصوم الكفرة من أعظم أسباب الذل والهوان، ولا تنتصر الأمة المسلمة إذا قطعت أوصالها، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحون، ولم يكن للمسلمين خليفة واحد يجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، ويظهرهم صفًا واحدًا أمام أعدائهم. وقد كان للمسلمين- في هذه الفترة- نصيب من هذا.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٨/ ١/ ١٤١٦هـ.

حتى قال ابن الأثير: فالسيف بين المسلمين مسلول، والفتنة قائمة على ساق[١].

يقول الحافظ ابن كثير في بيان شيء من ذلك: استهلت سنة ثمان وخمسين وليس للناس خليفة. وملك العراقين وخراسان وغيرها بلاد المشرق لهولاكو خان ملك التتار، وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز مملوك المعزّ أيبك التركماني، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر، وبلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وهو حارب مع الناصر صاحب دمشق على المصريين، ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم، وبينما الناس على تلك الحال دخل جيش التتر - صحبة ملكهم هولاكو- وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب فحاصروها سبعة أيام ثم فتحوها بالأمان لأهلها، ثم غدروا بهم، وقتلوا منهم خلقا لا يعلمه إلا الله ﷻ، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب[٢].

إخوة الإيمان لم يصل التتر بلاد الشام إلا وقد عاثوا في الأرض فسادًا في العراق، ويكفي أن تعلم من مآسيهم في بغداد - حين أسقطوها وقتلوا الخليفة العباسي فيها (أنهم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة

(١) الكامل ١٢/ ٣٦١.

(٢) كذا نقل الحافظ ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٧).

من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منها إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطح حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة)[١].

ولم ينج من هذه المذبحة الرهيبة أحد إلا أهل الذمّة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي- الذي ساهم في دخول التتر وحسن لهم القبيح وجنى على المسلمين السفه، وعلى أصحاب ملته من الرافضة، بل وعلى نفسه حيث راح في النهاية ضحية غدره وفجوره، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، والله المستعان.

أيها المسلمون لم تكن المحالفات مع الكفار -مع عظيم أمرها- الداء الوحيد والسبب الأول والأخير لهزيمة المسلمين أمام جحافل التتار، بل انضاف إلى ذلك ضعف همة ملوك الإسلام عن الجهاد، وانشغالهم باللهو واللعب، وغفلتهم عما يراد بأمتهم، حتى قيل: إن التتر حين أحاطوا بدار الخلافة (بغداد) يرشقونها بالنبال من كل جانب، أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وقد جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفرع فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه، فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم)[٢].

وهذا ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ ينعي على الإسلام وأهله، ويصف أحوال ملوكه قبيل وفاته بسنتين ويقول معلقًا على أحداث سنة ٦٢٨هـ (ثمان وعشرين وستمائة

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٢.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٠، ١٩١.

هجرية) ما نصه: (فالله تعالى ينصر الإسلام نصرًا من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

وفي محاولة من المؤرخين لتلمس أسباب نهاية الدولة العباسية يقول ابن كثير: ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية إلى أن يقول: حتى لم يبق مع الخليفة العباسي إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[2].

معاشر المسلمين لم تكن آثار هذا الضعف والهوان لتقف عند حدود بغداد أو حلب، بل قصد التتر دمشق بعد إسقاطهم عددًا من المدن قبلها وصاحب دمشق وحلب (الناصر) هو أكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتدارًا[3]، ومع ذلك سقطت دمشق دون مقاومة تذكر للتتر، وفي ظل التحالف والتآلف بين التتر والنصارى فقد عاث النصارى فسادًا في بلاد المسلمين، وطافوا ومعهم صليب محمول على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: «ظهر الدين الصحيح دين المسيح» ويذمون الإسلام وأهله، بل وفوق ذلك وزيادة في النكاية بالمسلمين كانوا يحملون أواني الخمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، ومعهم قماقم ملأى بالخمر يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم وغضبًا لدين الله وغيرةً

(١) الكامل ١٢/ ٣٦١، ٤٩٧.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٥.

(٣) الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي ص٩٥.

على محارمه، ومع شدة التتر وقسوتهم وضعف المسلمين ومسكنتهم اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة وشكوه إلى متسلمها من قبل التتر (أبل سيان) وكان معظمًا لدين النصارى- وما كان متوقع من هذا وأمثاله خيرًا، وقد كان، فقد طرد هؤلاء وأهانهم- لكنهم أدوا ما عليهم[١].

وبإزاء هذه الظروف الصعبة، وفي مقابل هذا الهوان والذل المستشري من معظم ملوك الإسلام- في تلك الفترة- ينتصب الملك المظفر قطز يرحمه الله- للمهمة، ويعلن راية الجهاد خفاقة، ويستعين بالله، ويستشير العلماء ويدنيهم، وينصح للأمراء المتخاذلين ويحذرهم، ويحملهم مسؤولية حرمات المسلمين ويقول: (يا أمراء المسلمين لكم زمان وأنتم تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين)[٢].

وقطز هذا موصوف بالفروسية والشجاعة، وحسن السياسة ومتانة الديانة، محببًا للرعية كما يقول الذهبي (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٠) ويقول عنه ابن كثير: وكان رجلًا صالحًا كثير الصلاة في الجماعة ولا يتعاطى المسكر ولا شيئًا مما يتعاطاه الملوك[٣].

وقال في موضع آخر: وقد كان قطز شجاعًا بطلًا كثير الخير ناصحًا للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرًا[٤].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي/ ٩٩.

(٣) البداية ١٣/ ٢١١.

(٤) المصدر السابق ١٣/ ٢١٤.

نعم إخوة الإسلام بالصلاح والتقى، والنصح للإسلام بالجهر والخفاء والقيام بحقوق الرعية ظاهرًا وباطنًا، تحب الرعية الراعي، ويسود المجتمع الودّ والصفاء، وذلكم خيار الأمراء، كما قال المصطفى ﷺ: **«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»**[١].

اللهم أصلح رعايا المسلمين ورعاتهم وألف بين قلوبهم، واجمع على الحق كلمتهم، اللهم أبطل كيد الكافرين، واهتك ستار المنافقين، وانصر عبادك الصالحين، أقول هذا وأستغفر الله. . .



(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه، انظر صحيح الجامع الصغير٣/ ١١٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ينزل النصر على من يستحق النصر من عباده في ربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى سائر المرسلين، وعلى الآل الطيبين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد إخوة الإسلام ففي العشر الأخير من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة كانت وقعة عين جالوت الشهيرة التي أعز الله بها الإسلام ونصر المسلمين، وكبت اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، وظهر دين الله وهم كارهون، وكان وراء هذا النصر- بعد توفيق الله وتسديده- همم عالية تمثلها قطز ومن معه من الأجناد الصادقين، ونصح وإخلاص وحض على الجهاد والتضحية من قبل العلماء والمخلصين.

أما الأمراء فقدوتهم الملك المظفر قطز الذي بادر التتر قبل أن يبادروه، وحين علم ما صنعوا بالشام المحروسة عزم على غزوهم قبل أن يغزوه، وأشاع في القادة روح الجهاد ونصحهم عن التقاعس وحمّلهم مسؤولية ضياع البلاد وهلاك العباد، ولم يكن مجيدًا للغة الخطاب دون لغة الحسام، ولم يكن من أهل الريب والنفاق بل كانت شجاعته ظاهرة وأهدافه سامية- كذلك نحسبه ويحسبه المؤرخون والله حسيبنا وإياه، ولا نزكي على الله أحدًا. ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم النجائب فترجل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا، والقتال عمال في المعركة وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء

ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء، وقال: لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك؟ فقال رحمه الله أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عدّ خلقًا من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضع الإسلام[(١)].

ويقول الذهبي ويذكر عنه أنه يوم عين جالوت لما رأى انكشافًا في المسلمين رمى عن رأسه الخوذة وحمل، ونزل النصر[(٢)].

وكان رحمه الله يستنزل النصر من الله وحده، ويتأسى بالرسول ﷺ في وقت القتال، وينتظر دعاء المسلمين، وقد نقل عنه أنه حين رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: (لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال، وتهب رياح النصر، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم)[(٣)]. وكانت المعركة يوم الجمعة ذلكم توكل على الله حميد، وإدراك واع لقيمة الزمن فريد، وتأس مشروع بخير البشر عليه الصلاة والسلام.

وحين صدق المجاهدون وتوفرت أسباب النصر أنزله الله النصر وأقر به أعين المسلمين، وقتل من قتل، وأسر خلق من الروم، وكان قائد التتر ونائب هولاكو على بلاد الشام «كتبغا نوين» وجماعة من أهل بيته في عداد[(٤)].

وظل قطز متصلًا بربه شاكرًا أنعمه، فهو حين تحقق من قتل (كتبغا) خر لله

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٤.

(٢) السير ٢٣/ ٢٠١.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٥.

(٤) المصدر السابق ١٣/ ٢١٥.

ساجدًا ثم قال: (أنام طيبًا، كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم)، قال ابن كثير: وهكذا كان كما قال، ولم يفلحوا بعده أبدًا[١].

يا أمة الإسلام إذا كان هذا بعضًا من جهاد وصدق الأمراء، فإليكم نموذجًا من صدق وإخلاص العلماء في محنة التتر- فوق ما سلفه فحين فكر السلطان «قطز» بجمع الأموال من الناس ليصرف منها على الجهاد والمجاهدين طلب رأي العلماء فتحدثوا، وكان من بين هؤلاء العز بن عبد السلام يرحمه الله- وكانت العمدة على ما يقوله العز- كما نقل الحافظ ابن كثير: وكان حاصل كلامه أنه قال: (إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم)[٢].

قال الخالدي: (وقد تقبل السلطان المؤمن هذه النصيحة بقبول حسن، فأمر جميع الأمراء من المماليك بجمع ما لديهم ففعلوا، عند ذلك تسابق المسلمون إلى المشاركة بكل ما يملكون من أموال وأنفس، لأنهم رأوا قيادتهم تضرب لهم المثل الأعلى في البذل والفداء)[٣].

وإذا أفلح هذا السلطان مع هذا العالم في إنقاذ البلاد والعباد حين كان التشاور والتناصح ومصلحة المسلمين رائدهما، فقد كان للعز موقف آخر مع

---

(١) البداية ١٣/ ٢١٠، ٢١٦.

(٢) البداية والنهاية.

(٣) العالم الإسلامي والغزو المغولي/ الخالدي/ ١٠٦، ١٠٧.

سلطان آخر ألا وهو الصالح إسماعيل الذي أخرج العز من الشام بسبب إنكاره عليه تسليم (صغد، والثقيف) إلى الفرنج، وأخرج معه كذلك العالم أبا عمر بن الحاجب المالكي، فقصد أبو عمر صاحب الكرك فأكرمه، وقصد العز صاحب مصر فأكرمه، وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية[١].

حتى تولى قطز أمر مصر فصار ما صار مع من استشاره العز في عين جالوت.

ألا ما أحوج المسلمين إلى قراءة تاريخهم والاستفادة من أحداثه وعبره، ويوم يُقرأ التاريخ بتجرد فستكون تجارب السابقين رصيدًا يستفيد منه اللاحقون، وسوف تكون أحداث التأريخ ومروياته مادةً يجمع الله بها شمل المسلمين، ويوم أن تصح النوايا، وتصبح الحاكمية المطلقة لشرع الله في الأرض يسود المسلمون وتسلم ديارهم من نهب المعتدين، وتتهاوى بإذن الله مخططات الكافرين والمنافقين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



(١) كذلك ساق الخبر ابن كثير في البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٣.

(١) حصائد الألسن[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

أيها الإخوة المسلمون.. عن حصائد الألسن، وآفاتها الخطيرة، وغوائلها المهلكة حديث من الأهمية بمكان، وهي لكثرتها ربما لا يحس الناس بها أو يقدرون خطر بعضها دون البعض الآخر. أما العارفون فقد عدوا اللسان عشرين آفة، يتعامل الخلق بها كلها لكن ما بين مقل ومستكثر، وما بين محتاط مقتصد فيما يقول، وبين متعد مفرط يرى أنه ما دام بإمكان لسانه أن يتحرك فلا عليه أن يطلقه، حتى ولو كان ذلك الإطلاق على حساب دينه وكرمه ومروءته، وليت هؤلاء بل ليتنا جميعًا نفقه قول المصطفى ﷺ: «**من صمت نجا**»[٢] إذ لا نجاة لمن لا يحسن استخدام اللسان بالمعروف إلا بالصمت، ولا شك أن الصمت يحتاج إلى مجاهدة نفس وطول مران، لكن الكف عن الشرور والآثام طريق موصل إلى الله وجنته، فهذا أعرابي- كما في حديث البراء ابن عازب رضي الله عنهما جاء إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «**أطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وأنه عن النكر، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير**»[٣].

إخوة الإسلام.. فهذه الآفات العشرون للسان تختلف في حريتها، وتتفاوت في

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢١/ ٥/ ١٤١٤هـ.

(٢) رواه الطبراني بسند جيد (إحياء علوم الدين ٥- ٨/ ١٥٣٧).

(٣) الحديث رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد (المصدر السابق/ ١٥٤١).

عقوباتها، لكن بعضها يجر إلى بعض، وإذا تجاوز اللسان آفة سهل عليه مقارفة الآفة الأخرى، وهكذا يكون للسان نصيب من هذه الآفات كلها فيهلكه لسانه.

تعالوا بنا معاشر المسلمين نتذكر هذه الآفات مبتدئين بأخفها ومترقين إلى الأغلظ قليلًا، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب، فإن النظر فيها أطول، والعقاب فيها أشد.

وأوصي نفسي والسامعين- ونحن نستمع لهذه الآفات - أن نحاكم واقعنا إليها، وأن نحاسب أنفسنا على ضوئها، فتلك ثمرة المواعظ والخطب، وتلك صفات المؤمنين الذي يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير أولئك الذين هدى الله وأولئك هم أولو الألباب.

وأول هذه الآفات اللسان: الكلام فيما لا يعني المتكلم إذ هو ضياع للعمر والوقت فيما لا فائدة فيه، وهل هناك أغلى على الإنسان من وقته وعمره، وفوق بين من يزرع بكل كلمة يقولها شجرة له في الجنة وبين من يجني الأشواك على نفسه بسبب كثرة كلام لا فائدة فيه، وربما جره إلى مكروه أو حرام.

قال العلماء: وحد الكلام أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مال[١].

فإذا علمت هذا فاعلم أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وتأمل هذه النصيحة من حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقد روى عنه مجاهد رحمه الله قال: سمعت ابن عباس يقول: خمس لمن أحب إلي من الدهم الموقوفة -وهي العدد الكثير من الإبل أو الخيل-: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه

(١) المصدر السابق ٥- ٨/ ١٥٤٦.

فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعًا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليمًا ولا سفيهًا فإن الحليم يقلبك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام[١].

الآفة الثانية من آفات اللسان فضول الكلام، ويتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فمن أنهى مقصوده بكلمة، فالكلمة الثانية فضول.. فكيف بمن يتحدث الساعات الطوال بكلام فضول؟ والحق تبارك وتعالى يقول ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢].

ولا شك أن فضول الكلام يجر إلى مزالق ومخاطر وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: إنه ليمنعني من كثير فضول الكلام، وفضول المال[٣].

أيها المؤمنون إذا كان هذا في شأن فضول الكلام وما لا يعني فلا تعجبوا إن رأيتم ثلة من الصالحين يندر حديثهم ويقل خلطتهم للناس إلا بخير وما بهم من علة لكنه الفقه في الدين، والاستحضار الدائم للعرض على رب العالمين، والبكاء على الخطايا ورجاء التكفير، ولهؤلاء وأمثالهم تزف البشرى فالنبي ﷺ يقول: «**طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته**»[٤].

---

(١) المصدر السابق/ ١٥٤٥.

(٢) سورة النساء: ١١٤ (موعظة المؤمنين ٢/ ٢٠٨).

(٣) الإحياء ٥- ٨/ ١٥٤٩.

(٤) حديث حسن رواه الطبراني في الصغير، وأبو نعيم في الحلية (صحيح الجامع ٤/ ١٤).

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة. إلى غير ذلك من الخوض في الباطل، والخليق بالمسلم أن يرفع نفسه عن الدنايا، وما يكون سببًا لاقتراف المحرمات أما أهل النار فيعترفون أن خوضهم في الباطل من أسباب دخولهم النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[1].

الآفة الرابعة: المراء والجدل، وهو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقًا فصدق به، وإن كلام باطلًا أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسكت عنه[2].

فإياك أخي المسلم والمراء والجدل فهما مظنة للضغائن والأحقاد، وقساوة القلوب وتنافرها، وحضور الشياطين وانفلات زمام الألسن، وربما تكلم الإنسان في تلك الحال بكلام ندم عليه، لكنه كان يرغب الانتصار به على من يماري ليس إلا.

إخوة الإسلام ليس الإحجام عن المراء، أو الصمت حين تتطاول ألسنة الآخرين نوعًا من الضعف والهزيمة كلا.. وإن بدا ذلك لضعاف العقول. بل هو نوع من التعقل والحكمة وضبط للنفس حين تتأزم وقلة هم الرجال الذي يملكون أنفسهم عند الغضب، وليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب - كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٢- ٤٥.(موعظة المؤمنين ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) الإحياء ٩- ١٢/ ١٥٥٤.

ويكفي أن يتصور المسلم ما أعده الله لمن ترك المراء وإن كان محقًا من الأجر والمغنم، والرسول ﷺ يقول «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(١).

الآفة الخامسة: الخصومة بالباطل، وهي وراء الجدل والمراء لأنها مدعاة لأكل أموال الناس بالباطل، أو على الأقل فيها اعتداء على الأعراض وإثارة لمشاعرهم مما يستوجب الحقد والبغضاء بين المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾(٢).

وهل علمت أخي المسلم «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**» كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح(٣).

والألد هو الأعوج، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا﴾ أي عوجًا(٤). فاحذروا المراء ودعوا الخصومات بالباطل، فإن ذلك أسلم لدينكم وأصلح لدنياكم.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام، وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، فإنه من التكلف الممقوت إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم، وما زاد عنه يقصد إظهار الفصاحة لا ينبغي إلا ما دخل في تحسين ألفاظ التذكير والخطابة لغرض التأثير واختيار الألفاظ الحسنة لدواعي القبول فذلك يختلف عن المنهي عنه.

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود وغيره: رياض الصالحين/ ٢٦٤، صحيح الجامع ٢/ ١٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٤.

(٣) رواه البخاري انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٠.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

❀ ❀ ❀

(١) سورة الإسراء: ٥٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أمر عباده بالحسنى فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ونهى عن الفحشاء في الأقوال والأفعال ما ظهر منها وما بطن، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له يحب التوابين ويحب المتطهرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أزكى البشر خلقًا وأعفهم لسانًا.

اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه المرسلين، وعلى آله وصحابته والتابعين ومن تبعهم وسار على هداهم إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد.. إخوة الإسلام، فإن الآفة السابعة من آفات اللسان: الفحش والسب وبذاءة اللسان، وحد الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة[1].

ومن أدب الإسلام ومن كمال مروءة المسلم أن يكني عنها، ويذكرها بعبارات أو رموز تفهم المقصود دون ذكر للفظ المستكره الفاحش، والرسول ﷺ- وهو قدوة الخلق جاء في صفته- أنه لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق[2].

أما السب فلا ينبغي أن يصدر من المسلم لأي بشر كان، فإن كلام مسلمًا فقد جاء في الحديث أن «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» وإن كان غير ذلك فلا يزيده السب إلا عتوًا وإعراضًا والله تعالى يقول ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] والمسلم طاهر اللسان عفيف

(١) الإحياء/ ١٥٦٣.

(٢) مختصر شمائل الترمذي/ الألباني/ ١٨٢.

(٣) سورة النحل: ١٢٥.

القول بعيد عن البذاءة و إيذاء الخلق باللسان، فهذا رسول الله ﷺ يرسم المنهج في تعامل المسلم مع غيره، ويقول للرجل الذي جاءه يقول: أوصني يا رسول الله: فقال: «**عليك بتقوى الله، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه، يكن وباله عليه وأجره لك، ولا تسبن شيئًا**» قال الرجل: فما سببت شيئًا بعده[١].

أخي المسلم أختي المسلمة، والآفة الثامنة آفة اللعن وما أسهلها عند بعض الناس، وما أكثرها على ألسنة بعض العوام، سواء كان اللعن لإنسان أو حيوان أو حمار، والمؤمن- كما جاء في الحديث- ليس بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذي[٢] وهل يرضى أحد لنفسه أن يبعد يوم القيامة عن الشفاعة والشهادة، والرسول ﷺ يقول «**لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[٣] - وحتى تعلموا أثر اللعن للحيوان فضلًا عن الإنسان أسوق لكم هذه الحادثة التي وقعت في زمن النبي ﷺ، فعن أبي بردة الأسلمي رضي الله عنه قال: بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالنبي ﷺ، وتضايق بهم الجبل، فقالت حَل اللهم العنها، فقال النبي ﷺ: «**لا تصاحبنا ناقة فيها لعنة**»[٤] فتأملوا معاشر المسلمين في هذه النصوص وكفوا ألسنتكم عن السب والشتم واللعن، وقوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة، وأدبوا أولادكم وأهليكم بأدب الإسلام.

---

(١) الحديث رواه أحمد والطبراني بسند جيد، الإحياء/ ١٥٦٣.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد والترمذي وغيرهما صحيح الجامع ٥/ ٨٩٩، رياض الصالحين/ ٥٠١.

(٣) الحديث رواه مسلم (رياض الصالحين/ ٥٠١).

(٤) رواه مسلم، رياض الصالحين/ ٥٠٢.

الآفة التاسعة الغناء والشعر المذموم. وهذا وربي يحتاج إلى كلام طويل نظرًا لافتتان الناس به وكثرة رواجه، سواء بقوله أو الاستماع إليه، ولاسيما رديء الكلام وسواقط العبارات والتشبب بالنساء، ومغازلة الحبيب والبكاء على الحبيبة، وما شابه ذلك من عبارات الحب والغرام التي لا يكاد يخرج عنها غناء اليوم، وهل يستحمل واقع المسلمين اليوم مثل هذه العبارات والمئات منهم يموتون جوعًا، وأفواج أخرى تموت تحت مطارق المجرمين، وفي مكان ثالث تغتصب النساء وتشرد الأطفال، وتهدم البيوت والمساجد، وتخد الأخاديد وتحفر القبور الجماعية للمسلمين أفيسوغ لنا أن نلهو ونعبث ونبكي على الحبيبة والحبيب، وتلك حال إخواننا المسلمين.. حتى ولو كان النصر حليفنا والعزة والتمكين شعارنا فما ينبغي أن نقترف ما حرم الله، وهناك رسائل عدة ألفها العلماء في تحريم الغناء ليس هذا موضع بسطها- ويكفي هنا أن أشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] وكالة بعض الصحابة يقسم ثلاثًا: والله إن لهو الحديث لهو الغناء. ويكفي لذلك أن نذكر بالحديث الصحيح الذي رواه البخاري في حرمة الغناء والنبي ﷺ يقول: «**يستحل قوم من أمتي الحر والحرير والمعازف**».. الحديث.

والنص واضح في حرمتها لكن هناك من يستحلونها.. فتنبهوا لذلك معاشر المسلمين، وتوبوا إلى ربكم توبة نصوحًا وترفعوا عن الدنايا ترشدوا.

أيها المسلمون هذه طائفة من حصائد الألسن وآفاتها، وهناك آفات غيرها.. وسيتبع الحديث عنها بإذن الله- والسعيد من استفاد من يومه لغده/ والعاقل من استبرأ لدينه وعرضه، والمؤمن من آمن بما جاء من عند الله، وصدق وامتثل ما

---

(١) سورة لقمان: ٦.

قاله رسول الله، جعلني الله وإياكم من المؤمنين المصدقين.. وسلك بنا طريقه المستقيم، وعصمنا من مضلات الفتن.

هذا وصلوا..



(٢) حصائد الألسن[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره...

إخوة الإسلام لست بمستكثر إطالة الحديث عن حصائد الألسن، وذلك لكثرتها في واقع الناس من جانب، وغفلتهم عن آثارها من جانب آخر، ولأن اللسان- غالبًا- ترجمان للجوارح، فمن كان قلبه طاهرًا نقيًا لم يتفوه لسانه إلا بخير، ومن كان قلبه دون ذلك كشفه لسانه وفضحه على رؤوس الأشهاد، مثل فضيحة يوم المعاد، وهكذا الشأن في العينين والأذنين واليدين والرجلين، فهي جوارح متحركة، واللسان معبر عن حركاتها.

وحيث سبق الحديث عن أنواع من آفات وحصائد الألسن، فنستكمل اليوم آفات أخر.. ومنها: كثرة المزاح والمداومة عليه، لأنه نوع من الغفلة عن الآخرة وتزجية للوقت بما لا ينفع، فضلًا عن كونه مفضيًا لكثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، والرسول ﷺ يقول: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»[٢].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استُخِفَ به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه[٣].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٨/ ٥/ ١٤١٤هـ.

(٢) متفق عليه.

(٣) الإحياء ٩/ ١٥٧٢.

وليس بغائب عن ذهنك- يا أخا الإسلام- أن قليل المزاح مشروع، بل هو سنة من سنن المصطفى ﷺ لكن بقدر وبضوابط الشرع. فالصدق شرط للمزاح، والعفة هي الأخرى قيد في المزاح فمن الناس من يبيح لنفسه- حال المزاح- فعل المحرم إما بقول أو فعل، وكل ذلك لا يجوز شرعًا، ولا يسوِّغه كون صاحبه مازحًا.

والرسول ﷺ كان يمزح أحيانًا ويداعب الآخرين، لكنه لا يقول ولا يفعل إلا الحق، وربما هدف من مزاحه إلى إدخال السرور على من يمازح، وأحيانًا يهدف من مزاحه إلى الدعوة للإسلام والترغيب في الإيمان، وهاك نموذجًا يؤكد ما أقول: فقد روى الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات: أن خوات بن جبير الأنصاري رضي الله عنه كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: **يا أبا عبد الله مالك مع النسوة؟** فقال: يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود، قال فمضى رسول الله ﷺ لحاجته، ثم عاد، فقال: **يا أبا عبد الله: أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟** قال: فسكتُّ واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياءً منه، حتى قدمت المدينة، فرآني يومًا في المسجد أصلي، فجلس إليّ فطولت فقال: لا تطول فإني أنتظرك، فلما سلمت قال: **يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟** قال: فسكت واستحييت فقام، وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقني يومًا وهو على حمار- وقد جعل رجليه في شقّ واحد فقال: **يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟** فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال: **الله أكبر الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله**، قال: فحسن إسلامه وهداه الله»[1].

(١) الإحياء للغزالي ٩/ ١٥٧٦.

وهذا يدلك على كريم خلقه ﷺ وطيب معشره، وممازحته لأصحابه، وليست ذلك إلا نموذجًا من نماذج مزاحه عليه الصلاة والسلام وهي مشعرة بأن هذا الدين لا تعقيد فيه ولا تعبيس، ولا يراد لأتباعه أن يكونوا متبلدي الإحساس، ثقال النفوس، ولكنها مشعرة في الوقت نفسه بضوابط وحدود المزاح، ومن أعظم ما ينبغي التنبيه عليه في المزاح التفوه بكلمات بذيئة سيئة يريد صاحبها إضحاك القوم بها، فهذه ينبغي الحذر منها، والإنكار على قائلها وتذكيره بقول النبي ﷺ: «**إن العبد يتكلم بالكلمة ما يتبين فيها** - يعني يتفكر في أنها خير أم لا- **يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»(١).

وينبغي كذلك ألا يزيد المزاح عن الحد فينقلب إلى الضد، وألا يتجاوز القول الحق إلى القول المنكر، أو يتجاوز اللسان كثيرًا إلى بقية الجوارح والأركان.. فذلك كله مدعاة للتنافر والبغضاء وجالب للحزازات والقطيعة بين الأخلاء.

أيها المؤمنون:

ومن حصائد الألسن السخرية والاستهزاء، وتلك قاصمة الظهر مثيرة الأحقاد، ومدعاة للمخيلة والاحتقار، وما يدريك أيها المستهزئ أن من استهزأت به خير مقامًا منك عند الله وأرفع ذكرًا، وهلا وقفت أيها المستهزئ متأملًا في كتاب الله، ومستمعًا إلى توجيه الله، وهو يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾(٢).

---

(١) الحديث متفق عليه، الأذكار للنووي/ ٢٨٥.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

فإن كنت أقل ممن استهزأت به أفلا يكفيك التأمل في عيوب نفسك وإصلاحها قبل انتقاد الآخرين والاستهزاء بهم، وإن كنت خيرًا فما ذاك صنيع الشاكرين، ولست بآمن أن يسلخك الله ما أعطاك، ويمنح غيرك ما كان بك من نعمة، فاشكر الله على النعماء وإياك إياك والسخرية والاستهزاء، وتفطن دائمًا وأبدًا لحديث الرسول ﷺ «. . . **المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره،** التقوى ها هنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[1] قال الإمام النووي: ما أعظم نفع هذا الحديث وأكثر فوائده لمن تدبره[2].

ولا يفوتك- أخي المسلم- أن الاستهزاء ربما كان بكلمة، أو نظرة، أو محاكاة أو إشارة أو إيماء، والأصل في ذلك كله ما يجول في القلب، فطهر قلبك من احتقار المسلمين والتقليل من شأنهم، وإياك والعجب بنفسك فإن العجب مهلكة، وجاهد نفسك على فعل الخير ودفع الشر ما أمكنك ذلك.

إخوة الإسلام. . . ومن حصائد الألسن الوعد الكاذب، إذ اللسان سباق إلى الوعد والنفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفًا، وذلك من أمارات النفاق، كما قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[3].

وما أكثر ما يتسامح بعض الناس بالوعود، ويخلفون الميعاد دون عذر شرعي يخولهم لذلك. . وتلك آفة. . بل مرض خليق بالمسلم أن يعالج نفسه عن الوقوع فيه، وهو مدعاة لضياع الحقوق أحيانًا، ولضياع الأوقات على الآخرين

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الأذكار/ ٣٠١.

(٣) متفق عليه، انظر صحيح الجامع الصغير ٣/ ٦٦.

أحيانا أخرى، وموجب للسخط والبغضاء في أحيان ثالثة.. وهل علمت أيها المسلم أن الوفاء بالعقود من صفات المؤمنين، والله تعالى يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾(١) وهل علمت أن الوفاء بالوعد كرم ومروءة، وأن الخلف في المواعيد بخل بالجاه أو بالمال أو بالوقت وكلها مذمومة، وهو استخفاف بالآخرين لا مبرر له.

وإليك نموذجًا من الوفاء لو لم تستطع الكرماء الوفاء به إلا على فراش الموت لفعلوا، فهذا عبد الله بن عمر ﷺ حين حضرته الوفاة قال: إنه كان خطب إلي ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني إليه شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي»(٢).

إخوة الإيمان.. وثمة آفة من آفات اللسان ينبغي التنبه لها، ألا وهي كثرة المدح في الوجه، وهي مهلكة للمادح والممدوح خاصة إذا كان الممدوح أقل مما امتدح به، أما المادح فهي تفضي به إلى الكذب، وقد قال خالد بن معدان رحمه الله من مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه(٣).

وقد يفضي به المدح الكاذب إلى الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون معتقدًا لكل ما يقوله فيصير بذلك مرائيًا منافقًا، إلا أن يكون لذلك ضرورة أو مقصد شرعي طيب فتلك تقدر بقدرها. والمدح الكاذب له أثره السيء على الممدوح، فقد يؤدي به إلى الكبر والعجب وقد يقعد به عن العمل والتشمير في

---

(١) سورة المائدة: ١.

(٢) الإحياء ٩/ ١٥٨٠.

(٣) الإحياء ٩/ ١٦٢٧.

الجد. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لرجل مدح رجلًا عنده: «**ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح**»(١).

وفي لفظ: «**ويلك قطعت عنق صاحبك، من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»(٢).

ولما في المدح من آفات، قال أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «المدح هو الذبح، وذلك لأن الممدوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به»(٣).

ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»(٤).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٥).



(١) متفق عليه، الإحياء ٩/ ١٦٢٧.

(٢) متفق عليه، صحيح الجامع الصغير ٦/ ١١٤.

(٣) الإحياء ٩/ ١٦٢٩.

(٤) الحديث رواه أحمد ومسلم وغيرهما، صحيح الجامع الصغير ١/ ٢١٥.

(٥) سورة الأنعام: ١٥٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضاه، وأشهد ألا إله إلا الله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه.. اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأصل بكم معشر الإخوة بعد ذكر عدد من آفات وحصائد الألسن إلى آفة عظيمة هي في عداد قبائح الذنوب وفواحش العيوب.. ألا وهي الكذب الذي سرى في هذا الزمان سريان النار في الهشيم، وابتليت به العامة والخاصة إلا من رحم الله، وأصبحت له مؤسسات وأجهزة تنشره وتصبغ الناس بصبغته، وتصيبهم من أثره.. ألا وهي وسائل الإعلام، ووكالات الأنباء.. التي يمتلك الجزء الأكبر منها أمم وشعوب كافرة، لا تصدر للأمم المسلمة من الأخبار إلا ما تريد.. فتتلقفها الوكالات الأخرى غافلة عن مصدرها، ومتأثرة في الغالب بما جاء فيها.. فتختلط الحقائق بالأباطيل، ويروج الكذب، وتذوب القيم، ويمدح الفجار وتعلى مكانتهم، ويشهّر بالأخيار ويوصمون بالنقيصة والتطرف أو غيرها من رديء العبارات وسوء الألقاب.. وما ربك بغافل عما يعملون، حتى لقد سئم الناس هذه العبارات، وربما أدرك بعضهم السر من ورائها، وعلموا أنها وسيلة لإطفاء نور الله، وتعبير عن الحسرة التي قطعت قلوب الكفار والمنافقين، وهم يرون الإسلام ينتفض من جديد، ويرون المسلمين يعودون إلى ربهم في كل صقع من أصقاع المعمورة، وهو نور الله يملأ الوجود، وهل تستطيع قوة أن تطفئ نور الله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] ألا إنها الحماقة والسفه ليس إلا.

---

(١) سورة التوبة: ٣٢.

إخوة الإسلام للكذب آثاره وغوائله السيئة، وقد خطب أبو بكر الصديق ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ وقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول ثم بكى، وقال: «**إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار**»[١] والكذبة يعذبون في قبورهم قبل يوم القيامة، والرسول ﷺ يقول: «**رأيت كأن رجلًا جاءني فقال لي: قم. فقمت معه، فإذا أنا برجلين، أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذ به فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا؟ فقال هذا رجل كذاب، يعذب في قبره إلى يوم القيامة**»[٢].

إخوة الإسلام ما زال رسول الله ﷺ يحذر من الكذب حتى جعله طريقًا إلى النار وقال: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**».

ولهذا وغيره من آثار الكذب السيئة، لم يكن شيء أشد على صحابة رسول الله ﷺ من الكذب، كما تقول أم المؤمنين عائشة ﵂: «**ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله ﷻ منها**»[٣].

فاحذروا الكذب معاشر المسلمين واصدقوا التوبة مما بدر منكم يغفر الله لكم، واعلم أخي المسلم أن الصدق أمانة والكذب خيانة، واحذر أن تحدث

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه والنسائي وإسناده حسن، الإحياء ٩/ ١٥٨٢.

(٢) بيت طويل رواه البخاري في صحيحه، الإحياء ٩/ ١٥٨٤.

(٣) (رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات، الإحياء ٩/ ١٥٨٦).

أخاك المسلم بحديث هو لك به مصدق وأنت به كاذب، فقد جاء في الخبر «**كبرت خيانةً أن تحدث أخاك حديثًا هو لك به مصدق وأنت له كاذب**»(١).

ولا تحقرون من الكذب شيئًا، ولا تعودن لسانك حتى على اليسير منه، وهل علمت أنك إذا استدعيت غلامك أو جاريتك، وقلت: تعال أعطك. ولم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة، فهذا عبد الله بن عامر رضي الله عنه يحدث ويقول جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال حتى أعطيك، فقال ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرًا، فقال: «**أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة**»(٢).

وكلما تعاظم الكذب أو صدر مما لا ينبغي صدوره منه كان الوعيد أشد، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٣).

أيها المسلمون هناك نصوص كثيرة وآثار عظيمة تبين لك آثار الكذب، وتحذر منه، يجدها في مظانها من أراد البحث عنها، وإنما أردت الإشارة إلى بعضها.

ويبقى الاستثناء في الكذب الذي أبيح للمسلم أن يفعله، وقد حدده الشرع المطهر كما في حديث الرسول ﷺ: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيرًا أو ينمى خيرًا**»(٤).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد، وضعفه ابن عدي، ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس له سمعان بإسناد جيد.
انظر الإحياء ٩/ ١٥٨٢، جامع الأصول ١٠/ ٦٠٠.

(٢) رواه أبو داود والحاكم ورجال الحديث ثقات، الإحياء ٩/ ١٥٨٥.

(٣) الحديث رواه مسلم وفيه: والإمام الكذاب، الإحياء ٩/ ١٥٨٥.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

وزاد مسلم عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: يعي الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها»[(١)].

قال الإمام النووي رحمه الله- فهذا الحديث صريح في إباحة بعض الكذب للمصلحة، وقد ضبط العلماء ما يباح منه، وأحسن ما رأيته في ضبطه ما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله فقد قال: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه، وإن أمكن التوصيل إليه بالكذب ولم يمكن بالصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، فإذا اختفي مسلم من ظالم وسأل عنه وجب الكذب بإخفائه.. الخ كلامه وهو كلام نفيس»[(٢)].

أخي المسلم كما تحذر الكذب بنفسك فاحذر كذلك أن يروج عليك كذب الآخرين، وما أجمل ما قاله حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلًا يقول قال رسوله الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأسماعنا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف، وفي رواية: فأما إذ ركبتم كل صعبة وذلول فهيهات»[(٣)].

وأراد بالصعبة والذلول: شدائد الأمور وسهلها، والمراد: أنه ترك المبالاة بالأمور والاحتراز في القول والفعل.

---

(١) جامع الأصول ١٠/ ٦٠٤.

(٢) الأذكار للنووي/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في المقدمة ١/ ٣، جامع الأصول ١٠/ ٦١٢.

فإذا كان ذلك في تلك القرون.. فما ظنك أخي المسلم بالناس في هذه الأزمان والعصور.. ألا فاحتاطوا فيما تقولون، وتريثوا وتثبتوا فيما تسمعون، والحق تبارك وتعالى يقول لكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[١].

اللهم اعصمنا من الكذب، ووفقنا للصدق في القول والفعل.. هذا وصلوا.



(١) سورة الحجرات: ٦.

(٣) حصائد الألسن(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره. . .

أما بعد إخوة الإسلام فنختم حديثنا- في حصاد الألسن- بالحديث عن خصلتين قبيحتين، وعادتين سيئتين قلّ من ينجو منهما، يستصغرهما بعض الناس، وشأنهما عظيم عند الله، وطالما تصدرا حديث الناس، وأصبحتا فاكهة المجالس ولا حول ولا قوة إلا بالله. ذلك الداء العضال، والمرض الذي يفتك في الناس فتك الذئاب الجائعة في الأغنام الهائمة. بل أشد هو داء الغيبة والنميمة. . حذر منهما القرآن وزجر ولكن بعض الناس لم يزدجر، وهل بعد زواجر القرآن من مزدجر؟، ونهى النبي ﷺ عن التلبس بهما وشدد، وهو الناصح الكريم، والمرشد الأمين فافتح قلبك- يا أخا الإسلام- لآي القرآن، وأصغ سمعك لتوجيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾(٣) وقال في وصف أحد الكافرين ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾(٤) وما أكثر ما وجه الرسول ﷺ بشأنهما وشدد، ويكفيك أن تعلم أنه عليه الصلاة والسلام جمع بين الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض في

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٦/٦/ ١٤١٤هـ.

(٢) سورة الحجرات: ١٢.

(٣) سورة الهمزة: ١.

(٤) سورة القلم: ١١.

حديث واحد فقال في خطبة حجة الوداع «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟**»[(١)].

وإذا كان شأن الدماء والأموال في حسنا عظيم، فينبغي أن يعلم أن شأن الأعراض عظيم كذلك.

وهل علمت- يا من تستعيذ بالله صباح مساء من عذاب القبر أن الغيبة والنميمة من أسباب عذاب القبر، فقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسوله الله ﷺ مر بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**»، وفي رواية البخاري «**بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»- وفي رواية لا يستنزه من بوله - الحديث قال العلماء: معنى: وما يعذبان في كبير: أي في كبير في زعمهما، أو في كبير تركه عليهما[(٢)].

وإذا كانت النميمة وردت في هذا الحديث سببًا في عذاب القبر فقد جاء ذكر (الغيبة) بدلًا منها في حديث أو رواية أخرى رواها الطيالسي، وأحمد والطبراني، وابن أبي الدنيا بسند جيد[(٣)].

وهو مؤشر إلى أن الغيبة والنميمة سببان موجبان لعذاب القبر وقانا الله وإياكم والمسلمين عذاب القبر وما بعده.

أيها المسلمون.. والذين يقعون في أعراض المسلمين ويتتبعون عوراتهم حريون بعقوبة الله العاجلة، وعليهم ألا يأمنوا الفضيحة في عقر دارهم، قال

---

(١) رواه البخاري ومسلم، الأذكار للنووي/ ٢٨٩.

(٢) النووي، الأذكار/ ٢٨٩.

(٣) الإحياء ٩/ ١٥٩٨.

البراء بن عازب رضي الله عنه: خطبنا رسولنا الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته**»[١].

يا أخا الإسلام.. وإذا كنت تستنكف من المشاهد المؤذية، وتشمئز للروائح الخبيثة -وهذا أمر طبيعي فيك- فعليك أن تترفع عن إيذاء إخوانك المسلمين وأكل لحومهم، فشأنك حين تعمل هذا في حق إخوانك المسلمين؟ كشأنك حين تأكل الميتة أو تكره الروائح المنتنة، فضع نفسك في الموضع الذي ترغبه لها، وقد سمعت الحق تبارك وتعالى يقول ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[٢].

وخذ نموذجًا عمليًا قرره النبي ﷺ مع أحد أصحابه، فحين رجم (ماعزًا) في الزنا قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يقعص الكلب.. فمر رسول الله ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «**انهشا منها**»، فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: «**ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه**»[٣].

أيها المؤمنون الأمر عظيم والخطب جسيم، والبراءة من أعراض المسلمين عزيزة والخطورة تكمن في الجهل أو التجاهل بحقيقة الغيبة، وبعض الناس يظن أنه حين يتحدث في عرض أخيه المسلم بأمر واقعي لكنه مكروه لديه أن ذلك ليس من الغيبة، وإنما الغيبة- في ظن هؤلاء- في الزيادة في الكلام في المتحدث فيه بما ليس فيه، وهذا رسول الله ﷺ يكشف الحقيقة ويبين المسألة ويقول:

---

(١) الإحياء ٩/ ١٤٩٧.

(٢) سورة الحجرات: ١٢.

(٣) الحديث رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد جيد، الإحياء ٩/ ١٥٨٩، والقعص: أن يضرب الإنسان فيموت مكانه (النهاية ٤/ ٨٨).

«أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**(١).

ومن هنا يتبين لك حرمة الحديث في عرض أخيك المسلم بما يكره حتى ولو كان واقعًا ولمزيد من الإيضاح: قال العلماء: الغيبة ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خلقه، أو خلقه أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجه، أو خادمه، أو مملوكه، أو نحو ذلك وسواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزت، أو أشرت إليه بعينيك أو يدك أو رأسك، أو نحو ذلك(٢).

ألا ما أعظم هذا الدين وهو يحفظ الحرمات، ويستر العورات وما أجمل المؤمن وهو يتحلى بحلية الإيمان، ويتخلق بأخلاق الإسلام، وما أنظف المجتمع الذي يحافظ فيه كل فرد على حقوق الآخرين.. ويتداعى البنيان أو ينهار إذا تناوشته السهام من كل مكان، وما أحوجنا إلى البناء ورص الصفوف بعيدًا عن السخرية والاستهزاء، والغيبة والنميمة، تلك الجبهات الداخلية التي أشغلتنا عن الجبهات الخارجية فتسلل العدو إلى أرضنا.

أمة الإسلام.. وحتى نقلع عن هذه الظاهرة السيئة، لابد لنا من التعرف على الأسباب الداعية للغيبة، ومحاولة تجاوزها وسد أبوابها.

فمن أسباب الغيبة: شفاء الغيظ، فهو إذا هاج غضبه تشفى بذكر مساوئ من أغضبه، وربما تحول الغضب إلى حقد دفين، فصار الحقد والغضب من

---

(١) الحديث رواه مسلم، والترمذي وأبو داود والنسائي، الأذكار/ ٢٨٩.

(٢) الأذكار/ ٢٨٨.

البواعث العظيمة على الغيبة.. فجاهد نفسك على ألا تحقد ولا تغضب، واسأل الله في ذلك فهو خير معين.

السبب الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الأصحاب، فهو يرى أنه لو أنكر عليهم- في تفكههم في الأعراض- استثقلوه ونفروا من صحبته، فيضطر لمجاراتهم، وذلك علامة الضعف في الدين، وإلا فالواجب نصرة المسلم والذب عن عرضه، وفي ذلك عظيم الأجر عند الله، وقد قال ﷺ: «**ما من امرئ يخذل امرءً مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره في موطن يحب فيه نصرته**»(١).

فضعوا هذا الحديث نصب أعينكم حين تختلط الأحاديث في المجالس، وتكون أعراض المسلمين فاكهة لها، واسألوا الله العون على ذلك.

الباعث الثالث على الغيبة: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده بالحديث، فيسبقه إلى ذلك ويتقدمه بالغيبة، وفي هذا المقام ينبغي أن يتذكر المسلم ما أعده الله للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس فيحفظ لسانه حتى وإن كان الحق له. ولا شك أن تلك منزلة تحتاج إلى صبر وطول مجاهدة للنفس وفقني الله وإياكم لبلوغها.

الباعث الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل.

الباعث الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره،

---

(١) الحديث رواه أبو داود وغيره بإسناد حسن، صحيح الجامع الصغير ٥/ ١٦٠.

كأن يقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، وكلامه ضعيف، وهو إنما يريد إثبات الفضل لنفسه.

الباعث السادس للغيبة: الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلًا إلى ذلك إلا بالقدح فيه لإسقاطه عند الآخرين، وذلك عين الحسد، وهو غير الحقد والغضب الذي يستدعي جناية من المغضوب عليه، أما الحسد فقد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق، نسأل الله السلامة من الحسد.

الباعث السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة، ومنشؤه التكبر والعجب.

الباعث الثامن: السخرية والاستهزاء استحقارًا له، فإن ذلك قد يجري في الحضور، ويجري في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به(١).

إخوة الإيمان ثمة مدخل خفي للغيبة جدير بالناس عمومًا أن يعلموه، وأهل الدين والصلاح خصوصًا أن يفقهوه.. ذلك هو ما سمي بغيبة القلب أو سوء الظن الذي ينعقد به القلب ويصدقه ثم ينطق به اللسان، لا مجرد الخواطر وحديث النفس، فهذا إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه فمعفو عنه باتفاق العلماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام- كما ثبت في الصحيحين: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**»(٢).

أما ما نحن بصدده من غيبة القلب التي ينعقد عليها فقد حرره العلماء وضبطوه، بكلام نفيس، فقالوا: إذا وقع في قلبك ظن السوء فهو من وسوسة

---

(١) انظرها كاملة في الإحياء ٩/ ١٦٠٤- ١٦٠٦.

(٢) متفق عليه.

الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه، فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فلا يجوز تصديق إبليس، فإن كان هناك قرينة تدل على فساد واحتمل خلافه لم تجز إساءة الظن، ومن علامة إساءة الظن أن يتغير قلبك فيه عما كان عليه، فتنفر منه، وتستثقله وتفتر عن مراعاته وإكرامه والاغتمام بسيئته، فإن الشيطان قد يقرب إلى القلب بأدنى خيال مساوئ الناس ويلقي إليه إن هذا من فطنتك وذكائك وسرعة تنبهك، وأن المؤمن ينظر بنور الله، وإنما هو على التحقيق ناطق بغرور الشيطان وظلمته، وإن أخبرك عدل بذلك فلا تصدقه ولا تكذبه، لئلا تسيء الظن بأحدهما، ومهما خطر لك سوء في مسلم فزد في مراعاته وإكرامه، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك مثله خيفة من اشتغالك بالدعاء له، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة لا شك فيها فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه، فينظر إليك بعين التعظم وتنظر إليه بالاستصغار، ولكن اقصد تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخلك نقص، وينبغي أن يكون تركه لذلك النقص بغير وعظك أحب إليك من تركه بوعظك..)[1].

هذه كلمات تفيض منها النور والبهاء.. تلك مقامات الأوفياء النجباء جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

❀ ❀ ❀

(١) الأذكار/ ١٩٦، الإحياء ٩/ ١٦١٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالين أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اللهم صل وسلم عليه.

أما بعد: فاعلموا معاشر المسلمين أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة يحرم على السامع استماعها وإقرارها، فيجب على من سمع إنسانًا يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضررًا ظاهرًا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه أو على قطع الغيبة بكلام آخر لزمه ذلك.. وما قيل في هذا المعنى:

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه[(١)]

إخوة الإسلام مصيبتنا في المجالس المجاملة الزائدة عن الحدود الشرعية، فقد يتكلم أحد الحاضرين بكلام لا قيمة فيه، بل ربما كان فيه ضرر على الآخرين فلا يجد- أحيانًا- من ينكر عليه، أو يصرف الحديث إلي ما هو أولى وأحرى بعيدًا عن أعراض المسلمين وتجريحهم والتشهير بهم، ويرحم الله عمر وهو القائل: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وتنبهوا- معاشر الصالحين- لمقولة الحسن يرحمه الله: «والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسدي»[(٢)].

---

(١) الأذكار للنووي/ ٢٩١.
(٢) الإحياء ٩/ ١٥٩٩.

أيها المسلمون كما ورد الاستثناء في الكذب، فقد ورد الاستثناء في الغيبة كذلك، وقال أهل العلم تباح الغيبة إذا كان المسوغ لا غرضًا شرعيًا صحيحًا لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو أحد ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أدن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية فيذكر أن فلانًا ظلمه وفعل به كذا وكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب فيقول لمن يرجو قدرته: فلان يعمل كذا فازجره أو نحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أبي أو أخي أو زوجي بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه ورفع ظلمه عني؟ ونحو ذلك، فالتعيين جائز والتعميم أحوط.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، وذلك من وجوه منها جرح المجروحين من رواة الحديث وبيان حالهم، ومنها الاستشارة في مصاهرة أو مشاركة أو نحو ذلك من المعاملات، فيباح للمستفتي لهذا الغرض أن يذكر ما يعلمه في الشخص على وجه النصح للمستشير وبيان ما يخفى عليه من أمره.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة فيجوز- والحالة تلك- ذكره بما يجاهر به.

السادس: التعريف فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأعمى ونحوها جاز تعريفه بذلك بنية التعريف لا على وجه التنقص فإن ذلك حرام، وإن أمكن تعريفه بغيرها فهو أولى[(١)].

---

(١) الأذكار للنووي/ ٢٩٢، ثلاث رسائل في الغيبة/ ٢٩، ٤٨.

أيها المسلم والمسلمة اتقوا الله فيما تعملون وما تدعون، وراقبوه في حركاتكم وسكناتكم واعلموا أن طريقكم إلى التوبة من الغيبة هو طريقكم في التوبة من بقية المعاصي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة، ولكن تزيد الغيبة شرطًا رابعًا، وهو التحلل ممن اغتبته فذلك من حقوق الآدميين التي لابد من إستحلالهم عنها، والرسول ﷺ يقول: «**من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال، فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه**»[(١)].

أما صاحب الحق فيستحب له الصفح عن أخيه إذا جاءه معتذرًا فذلك من كرم المؤمن وطيب خلقه، ودخوله في زمرة المحسنين، الذين أثنى الله عليهم بقوله ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

والرسول ﷺ أثنى على الرجل الذي كان يصفح عن إخوانه المسلمين فقال: «**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبى ضيعم أو أبي ضمضم، كان إذا أصبح، وفي رواية إذا خرج من بيته- قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك- أو على الناس-**»[(٣)].

أيها المسلمون.. وإذا كانت الغيبة هي الغالبة في أحاديث الناس، فإن النميمة لا تقل خطرًا، بل هي أشد إذ هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد[(٤)].

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد والبخاري، صحيح الجامع ٥/ ٣٤٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٣) حديث رواه أبو داود في سننه وغيره وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٤، انظر النووي في الأذكار/ ٢٩٨.

(٤) النووي في الأذكار/ ٢٨٨.

وهي لا تصدر إلا من مرضى القلوب، وضعاف النفوس.. وكم ثارت الحزازات بين قريبين أو صديقين بسبب نمام أشعل فتيل العداوة بينهما، ولا غرو أن يقول الرسول ﷺ في حق النمام «**لا يدخل الجنة نمام**»[1] وفي رواية «**لا يدخل الجنة قتات**»[2].

ويقال: إن رجلًا ذكر لعمر بن عبد العزيز يرحمه الله رجلًا بشيء فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدًا[3].

فترفعوا معاشر المسلمين عن الدنايا وعن كل ما يخدم المكروه أو يسيء إلى المسلمين، واطلبوا معالي الأمور، وانشدوا الإصلاح، وإحسان الظن ففي ذلكم الفلاح والنجاح.. وهو طريق إلى سلامة الصدور وطهارة القلوب.. أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقني وإياكم والمسلمين سلامة الصدر وطهارة القلب، وأن يجنبنا الغلّ والحقد والحسد وسوء الأخلاق... هذا وصلوا وسلموا على نبي الهدى والرحمة.



(١) أخرجاه في الصحيحين، الأذكار/ ٢٨٩.

(٢) صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٢.

(٣) الأذكار/ ٢٩٩.

معالم في تاريخ اليهود[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

إخوة الإسلام قد سبق الحديث عن طرف من معالم المعركة مع اليهود وحديث القرآن الكريم عنهم، ووعدت باستكمال الموضوع لأهميته وحاجة المسلمين لمعرفته.

ومن أبرز المعالم التي جاءت في القرآن عن اليهود عداوتهم للإنسانية عامة والمؤمنين خاصة، قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[2].

وعداوة اليهود هذه مبكرة تشهد بخستها القرون الغابرة، وتؤكدها القرون اللاحقة، فأنبياؤهم فريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون، ولا غرابة أن يتطاولوا على محمد ﷺ ويحاولوا قتله وهو بعد طفل رضيع، فقد روى ابن سعد[3]: أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى حليمة السعدية لترضعه قالت لها: احفظي ابني وأخبرتها بما رأت من المعجزات، فمر بها اليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا ووضعته كذا، فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، ثم قالوا: أيتيم هو؟ قالت لا، هذا أبوه وأنا أمه.. وكأنها أحست منهم شيئًا.. فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ٦/ ١٤١٥هـ.

(٢) سورة المائدة: ٨٢.

(٣) الطبقات ١/ ١١٣.

ثم تستمر محاولة اليهود في قتله حين ذهب مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو بعد في ريعان الشباب، ومقولة بحيرى لعمه إني أخشى عليه من اليهود فارجع به إلى بلده. هذا كله قبل النبوة.

ثم تشتد العداوة بعد النبوة، ويحاول اليهود أكثر من مرة قتل النبي ﷺ فلم يفلحوا، وسموا الطعام الذي قدموه له، وآذوه وألبّوا الأعداء عليه وتعاونوا مع المنافقين والمشركين لحربه، وأعلنوا العداوة له بكل وقاحة وصراحة، إذ هم يعترفون بنبوته ويعلنون كرهه وعداوته حتى الممات، وهذا حيي بن أخطب زعيم يهود بني النضير يسأله أخوه أبو ياسر: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت)[١].

وحين أمكن الله من عدو الله حيي وجيء به مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل، قال له رسول الله ﷺ: **ألم يمكن الله منك يا عدو الله؟** قال: بلى، أبى الله إلا تمكينك منِّي، **أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يَخْذِل الله يُخْذل.**

واستمرت عداوة اليهود للمسلمين وفي أيام الخلفاء الراشدين خرج عبد الله بن سبأ اليهودي ليشعل الفتنة ويبذر الخلاف بين المسلمين وكانت الفتنة وكانت الحروب، ونتجاوز الزمن قليلًا ونقف عند الدولة العثمانية مليًّا إذ كانت محاولات اليهود للعثمانيين للسماح لهم بالهجرة إلى أرض فلسطين والاستيطان فيها، فأصدر السلطان عبد المجيد خان أمرًا بمنع اليهود القادمين لزيارة بيت المقدس من الإقامة في القدس أكثر من ثلاثة أشهر[٢].

ثم يعيدون الكرة مع السلطان عبد الحميد ويعدوه ويمنوه بالهبات والأموال

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ١٨٩.

(٢) الأفعى اليهودية عن معالم قرآنية/ ٢١١.

مقابل إنشاء مستعمرة قرب القدس، فيجابههم بالرفض التام والتحقير والتوبيخ كما في الوثيقة الشهيرة.

ثم يدرك اليهود أن لا وسيلة لهم لتحقيق أغراضهم إلا القضاء على هذه الدولة بالتآمر مع الدول الكبرى وقد كان، فليهود الدونمة دور كبير في القضاء على الدولة واختيار الزعماء المناسبين لهم.

ويستمر العداء، ويؤكد الخلف ما بدأه السلف فليست عداوتهم تاريخًا مضى وانتهى إنما هي عقيدة يلقنها الآباء للأبناء.

فهذا «مناحيم بيجن» يقول: (أنتم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم، ولا عطف ولا رثاء حتى تنتهوا من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية، التي سنبني على أنقاضها حضارتنا)[١].

وهذا «شامير» يقول في حفل استقبال اليهود السوفيت المهاجرين إلى إسرائيل (إن إسرائيل الكبرى من البحر إلى النهر هي عقيدتي وحلمي شخصيًا، وبدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة ولا الصعود إلى أرض المعاد، ولن يتحقق أمر الإسرائيليين ولا سلامتهم).

ويقول ابن غوريون (نحن لا نخش الاشتراكيات ولا الثوريات ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام هذا المارد الذي نام طويلًا وبدأ يتململ)[٢].

هكذا يحدد اليهود أعداءهم، وكذلك تستمر العداوة، ويتحقق إعجاز القرآن ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[٣].

---

(١) صراعنا مع اليهود لمحمد إبراهيم ماضي ص ٥٩، عن معالم قرآنية في الصراع مع اليهود/ ٢١٤.
(٢) المصدر السابق ص٢١٤.
(٣) سورة المائدة: ٨٢.

أيها المسلمون المعلم الثاني والبارز في تاريخ اليهود هو نقضهم العهود، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٢].

فهذه شهادة القرآن، فما هي شهادة الواقع على هؤلاء الأقوام؟ لقد عاهدهم الرسول ﷺ وكتب بينه وبينهم كتابًا حين وصل المدينة، فهل التزم اليهود العهد واحترموا الميثاق؟ كلا فقد غدر يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين على المشركين، والمعاهدة لم يمض عليها إلا سنة[٣].

وغدرت يهود بني النضير بعد غزوة أحد وتجرأوا على المسلمين بعد ما أصابهم في غزوة أحد.

وغدرت بنو قريظة عهدهم في أشدّ الظروف وأحلكها على المسلمين يوم الأحزاب، فإذا كانت هذه أخلاقهم مع من يعلمون صدقه، ويعتقدون نبوته، فهل يرجى منهم حفظ العهود مع الآخرين، هل يتوقع صدق اليهود في معاهداتهم مع من يرونهم أضعف وأقل شأنًا؟

إن اليهود قوم بهت، كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان يهوديًا فأسلم، وهم ينظرون إلى العهود والمواثيق التي يوقعونها مع غيرهم أنها للضرورة ولغرض مرحلي ولمقتضيات مصلحة آنية، فإذا استنفد الغرض المرحلي نقض اليهود الميثاق من غير استشعار بأي اعتبار خلقي أو التزام أدبي[٤].

---

(١) سورة الأنفال: ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ١٠٠.

(٣) انظر د. العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٦.

(٤) معالم قرآنية/ ١٧٧.

فإذا كانت تلك شهادة القرآن، وشهادة الواقع التاريخي على اليهود، فإن من الجهل والبلاهة والحمق الثقة بأيّ معاهدة يبرمها اليهود، وبأي اتفاق يتم مع اليهود.

إخوة العقيدة والإيمان يأبى الله إلا أن ينتقم من هذه الطغمة الفاسدة في الحياة الدنيا وقبل أن يقوم الأشهاد، وذلك بتسليط شعوب الأرض وأممها على اليهود، كلما اشتد فسادهم في الأرض، تحقيقًا لقوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1].

وذلك معلم ثالث من معالم تاريخهم وذلك راجع- والله أعلم- إلى فسادهم، وإلى علوهم واستكبارهم، وتحريف كتبهم، وحقدهم وعدائهم، فليس لهم صديق دائم، بل المصلحة والمنفعة الذاتية هي التي تخلق لهم الأصدقاء أو تجلب لهم العداوة والبغضاء، ولذلك فما من شعب جاوره اليهود إلا ويبغضهم ويحاول التخلص منهم، وإليكم هذه النماذج من شهادات التاريخ.

ففي سنة ١٢٩٠ للميلاد قضى الإنجليز على اليهود جميعًا بالنفي وتبعهم في ذلك الفرنسيون وفي عامي ١٣٤٨، ١٣٤٩م انتشر الموت الأسود في أوربا، واتهم اليهود بأنهم سمموا الآبار ومجاري المياه، فاشتدت حملة القتل والتنكيل والتشريد بهم، بالرغم من محاولة البابا «كليمنس السادس» الدفاع عنهم ولكن دون جدوى.

وفي ١٤٩٣م أصدر فرديناند وإيزابيلا بأسبانيا مرسومها الرهيب بالفتك باليهود والمسلمين فهام اليهود على وجوههم، ولم يجدوا ملاذًا آمنًا إلا بلاد المسلمين.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٧.

وفي سنة ١٨٨١م كانت أعمدة الدخان تتصاعد حول بحر البلطيق إلى البحر الأسود حيث كانت عمليات حرق اليهود وبيوتهم وكتبهم مستمرة وحددت لهم روسيا مناطق لا يخرجون منها وألزمتهم الخدمة العسكرية خمسة عشر عامًا).

إخوة الإسلام إذا كان النصارى والعلمانيون، والأوربيون والأمريكان أقرب الشعوب إلى اليهود فاسمعوا وجهة نظرهم فيهم، يقول «باكس» وهو أحد النصارى (.. وكان في ذاكرة عامة أوربا أن اليهود يمتصون جهود البلاد الاقتصادية، ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية).

وفي أمريكا ألقى الرئيس الأمريكي الأسبق «بنيامين فرانكلين» أول خطاب في الاجتماع التأسيسي للولايات المتحدة بعد استقلالها عام ١٧٧٩م قال فيه: (إن هؤلاء اليهود هم أبالسة الجحيم، وخفافيش الليل، ومصاصو دماء الشعوب. أيها السادة: اطردوا هذه الطغمة الفاجرة من بلادنا قبل فوات الأوان، ضمانًا لمصلحة الأمة وأجيالها القادمة، وإلا فإنكم سترون بعد قرن واحد أنهم أخطر مما تفكرون، وثقوا أنهم لن يرحموا أحفادنا، بل سيجلعونهم عبيدًا في خدمتهم.. إلى أن يقول: أيها السادة: ثقوا أنكم إذا لم تتخذوا هذا القرار فورًا، فإن الأجيال الأمريكية القادمة ستلاحقكم بلعناتها وهي تئن تحت أقدام اليهود..)[١].

إخوة الإيمان، إذا كان هذا حكم القرآن فيهم، وتلك وجهات نظر أقرب الناس إليهم، فكم هو مؤلم ومؤسف أن تختل هذه النظرة عند بعض المنتسبين للإسلام، وينسوا أو يتناسوا هذا التأريخ البعيد والقريب لليهود فيطمعوا في صلح دائم معهم ويثقوا بعهودهم والله المستعان.

---

(١) انظر د. مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود/ ٢٠٥، ٢٢١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أيها المسلمون، من المعالم القرآنية التي حكم الله بها على اليهود: التفرق والشتات والخلاف ماض فيهم إلى يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾[1] ويقول تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2] ويقول تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

فهذه سنة ماضية من سنن الله في اليهود، يعلمها من يقرأ تاريخهم قديمًا وحديثًا، ودعونا نطوي صفحة الماضي حتى لا يظن أننا نتعلق دائمًا بالماضي، ففي عصرنا الحاضر وفي دولة إسرائيل اليوم من التفرقة العنصرية بين اليهود الغربيين الذين دون «الأشكنازيم» وبين اليهود الشرقيين الذين يسمون «السفارديم» من العداوة والبغضاء والكره ما الله به عليم، وليست تلك عداوة عنصرية لاختلاف المواقع، لكنها طبع، وتحقيق لموعود الله فيهم، وإليك هذا النص المؤكد لاستمرار عداوتهم، تقول يهودية روسية ذات ثقافة أكاديمية: «صحيح أننا نكرههم- تقصد اليهود الغربيين- وصحيح أنهم يكرهوننا، إننا إسرائيليون وهم إسرائيليون، يبدو أن سورًا كبيرًا يفصل بيننا، إننا نعيش في مستويات مختلفة ومفاهيم مختلفة، إننا نتحدث بشكل آخر ونفكر بشكل آخر، وينظر الواحد منا إلى الثاني بشكل آخر، إن هذا لأكثر من طائفتين

(١) سورة الأعراف: ١٦٨.

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

(٣) سورة الحشر: ١٤.

مختلفتين، هذا بمثابة شعبين مختلفين، صدقني هذه ليست عنصرية، إن ذلك ليس مسألة لون جلد، ولا مسألة البلد الأصلي، إن الذي يحدث ناجم عن الكراهة الثقافية، إنني أكرههم فإنني أتخوف من الانتقال ليلًا في تلك الشوارع التي يتجولون فيها، إنني أكرههم بسبب نظرتهم، بسبب كلماتهم البذيئة التي يطلقونها خلفنا، وبسبب جميع الأعمال الخسيسة التي يحاولون القيام بها ضدنا.

إلى آخر مقالها الذي يعبر عن الكره بين طوائف اليهود وصدق الله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1].

إخوة الإيمان فلا تظنوا والحالة تلك أن يهود اليوم صف واحد وبنيان مرصوص، كلا فبنيانهم أوهى من بيت العنكبوت وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، وما يخيل لبعض المسلمين اليوم من هيبة اليهود وقوة اليهود واجتماع كلمتهم إنما يبرز بسبب واقع المسلمين من الضعف والفرقة والشتات، وسيبصر المسلمون حقيقة الحال ويتأكدون من وصف القرآن إذا صلحت أحوالهم وعادوا إلى كتاب ربهم والتزموا شريعته، هناك يزول السراب الخادع، وتذهب الغشاوة عن العيون، ويأذن الله بنصر المسلمين، ويفر اليهود كما تفر الفئران من أرض المعركة، يحتمون بالقصور والحصون، غير قادرين على مواجهة المسلمين وحينها يعلم السلمون مصداق قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

إخوة الإسلام إن المعالم في تاريخ اليهود كثيرة، وإن آيات القرآن عنهم

(١) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص ٢٤٣، حاشية ١٠.

بليغة، وليس هذا حصرًا لها بقدر ما هو إشارة إلى بعض منها، وللمزيد من العلم أنصح بالاطلاع على عدد من الكتب عن اليهود ومنها:

أ- جذور البلاء (عبد الله التل).

٢- صراعنا مع اليهود (محمد ماضي).

٣- صراعنا مع اليهود (محمد عثمان شير).

٤- مكائد يهودية عبر التاريخ (عبد الرحمن حبنكة الميداني).

٥- اليهود في القرآن (محمد عزة دروزه).

٦- اليهود وراء كل جريمة (وليم كارل).

٧- اليهود والماسونية (الشيخ عبد الرحمن الدوسري.. رحمه الله).

٨- وأخيرًا صدر كتاب جيد بعنوان: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (الدكتور/ مصطفى مسلم..).

ولا شك أن العلم والوعي بهذه الحقائق مهم في كل زمان ومكان، وهو في هذا الزمان أهم، وقد قيل إن معرفة المؤمنين بحالهم وحال أعدائهم نصف المعركة[1].

ويبقى الشقّ الآخر وهو العمل والاستعداد فمجرد العلم وحده لا يكفي، وليست هذه المعرفة خاصة بطبقة دون أخرى، ولا بحاكم دون محكوم، ولا بذكر دون أنثى، فكل عليه كفله من المسؤولية، فليبدأ بإصلاح نفسه وتسديد عيوبه وتنمية معارفه، وليحذر من الخداع والتزوير وليجعل الكتاب والسنة دليله في هذه الحياة.

اللهم أصلح أحوال المسلمين وردهم إليك ردًّا جميلًا يا كريم.

---

(١) سيد قطب: الظلال ٦/ ٣٥٢٩.

المعركة مع اليهود لماذا وإلى أين؟[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه..

إخوة الإسلام وهناك ظاهرة تلفت النظر في كتاب الله لمن تدبر وتأمل، فعلى الرغم من ذكره للأمم والشعوب البائدة، وحديثه عن الشرائع والرسالات السابقة، فقد كان له تركيز أكثر واهتمام أكبر ببني إسرائيل وأنبيائهم عامة، وبأمة اليهود ونبي الله موسى عليه السلام خاصة.

فما من أمة من الأمم تناول القرآن تفصيل نشأتها وتاريخ تكوينها وبيان أحوالها ودقائق مواقفها، ودخائل نفوس أفرادها وخصائص شخصيتها مثل أمة اليهود.

فأول ما يبدأ الحديث عن البشر بعد هبوط آدم من الجنة في سورة البقرة يبدأ عن بني إسرائيل ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٢] ويشمر الحديث عنهم في نيف وثمانين آية، وتتكرر قصصهم في أكثر من ثلث سور القرآن، وفي أول سورة (الفاتحة) والتي يكررها المسلمون يوميًّا في كل فريضة من فرائضهم، ونوافلهم ما شاء الله، «**ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» في هذه السور يرد البيان الإلهي عن انحراف اليهود والنصارى، ويلتجأ المؤمنون إلى ربهم ألا يسلك بهم سبيلهم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ٦/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

وأول سورة بعد الفاتحة تسمى سورة البقرة، وهي بقرة بني إسرائيل، وتسمى السورة الثالثة بآل عمران، وآل عمران أسرة من أسر بني إسرائيل- وإن كانت تختلف عن بني إسرائيل في طاعتها وصدقها وعبادتها، ولذلك اصطفاها الله من بين من اصطفى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

والسورة الرابعة تسمى سورة المائدة، وهي المائدة التي طلبها بنو إسرائيل، بل وخصصت سورة باسمهم هي سورة الإسراء التي تسمى سورة «بني إسرائيل» أيضا.

وليس هناك من نبي ورد التفصيل عنه أكثر من موسى عليه السلام مع اليهود، فما السر وراء هذا التركيز والاهتمام؟ ألكثرتهم؟ فقد كان اليهود ولا يزالون أقلية في العالم لا يؤبه لعددهم.

أم لأن لهم كيانًا معتبرًا ودولة كبيرةً حين نزل القرآن؟ فالحق أنهم ليسوا كذلك كما كان الفرس والروم وسائر الدول الوثنية الأخرى.

إذن فما وراء هذا الاهتمام؟ قد يكون لكثرة تعنتهم وشدة صبر أنبيائهم عليهم، فيُنهى المسلمون عن محاكاتهم ويسلي النبي ويصبر على ما يلقى من أذى وعناد قومه.. قد يكون ذلك من أسرار هذا التكرار، وقد يكون السر في ذلك أن كتابهم المنزل (التوراة) فيه من العقائد والأحكام ما ينشىء أمةً ويكون سلطة ودولة، وكانت مواقفهم من هذه التشريعات والأحكام مجالًا لبيان الحق والصواب فيها.

وقد يكون وراء ذلك جوارهم لمهبط الوحي، وشدة احتكاكهم بالعرب والمسلمين.

---

(١) سورة آل عمران: ٣٣.

كل ذلك وغيره وارد أن يكون وراء الاهتمام بهم بهذا القدر، وهناك من خلص إلى سبب آخر فوق ما ذكر واعتبره الأهم، ألا وهو: أن الصراع بين اليهود والمسلمين سيبقى إلى يوم القيامة، وكلما خمدت جذوة الصراع في منطقة أو في عصر من العصور ستتجدد في مكان آخر وفي أزمنة متلاحقة وفي صور شتى فلا غرابة إذن أن يكثر الحديث عنهم، وأن يكشف القرآن أحوالهم(١).

والمتأمل في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يجد ما يعضد ذلك، فالله تعالى أخبر في كتابه أن إشعالهم للحروب دائمة، وكذلك إفسادهم، ولكن الله تعالى تولى إخماد حربهم، وكره إفسادهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

كما تكفل الله تعالى ببعث جند من جنده لتقليم أظافر اليهود كلما تطاولت إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وأخبر الله بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وسيسلط عليهم من يجوس ديارهم، ويستبيح بيضتهم ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾(٤) وسواء كان المسلط عليهم في الأولى جالوت أو بختنصر أو غيرهما، وفي الأخرى محمد ﷺ وأصحابه أو غيرهم. فقد حكم الله عليهم

(١) د مصطفى مسلم. معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص ٥.
(٢) سورة المائدة: ٦٤.
(٣) سورة الأعراف: ١٦٧.
(٤) سورة الإسراء: ٤، ٥.

بالهزيمة في الدنيا متى عادوا للإفساد، مع ما يدخره لهم في الآخرة من العذاب والنكال ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[١].

هذا في القرآن وفي صحيح السنة أخبر المصطفى ﷺ عن الملاحم التي تكون في آخر الزمان، ومن بينها الحرب مع اليهود (وأن الساعة لا تقوم حتى يقاتل المسلمون اليهود فينادي الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله إن خلفي يهوديًا فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[٢].

وأخبر النبي ﷺ- في حديث آخر- أن اليهود يستمر خبثهم ويمتد كفرهم حتى يكونوا من جند المسيح الدجال في آخر الزمان، يقول عليه الصلاة والسلام «**يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة**»[٣].

والفرق كبير والمسافة بعيدة بين من يستعيذ من فتنة الدجال كل يوم عدة مرات، وبين من يكون من جنده وأتباعه حتى الممات؟ وإذا انتكست المفاهيم والقيم، وانطمست الحقائق فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يغير ذلك من الحق شيئًا.

إخوة الإسلام إذن هذه أمة هذا شأنها وتلك بعض أخبارها في القرآن والسنة فلا عجب أن يهتم القرآن بذكرها.

بل ولعل المطلع في القرآن يعجب حين يلحظ تقدم ذكر اليهود في القرآن، فلم يتأخر حديث القرآن عن اليهود إلى الفترة المدنية حيث جاوروا المسلمين وبدأ الاحتكاك والعداء ينشب بينهم، وإنما تقدم الحديث عنهم في الفترة

---

(١) سورة الإسراء: ٨.

(٢) الحديث متفق عليه، البخاري كتاب المناقب ٤/ ١٧٥ ومسلم وكتاب الفتن ٨/ ١٨٨، والمسند ٢/ ٦٧.

(٣) الحديث رواه ومسلم في صحيحه، انظر صحيح الجامع ٦/ ٣١٧.

المكية، فلماذا كان الحديث عنهم في مكة ولم يكن لهم بها شأن يذكر، وقد شغل المسلمون بأذى كفار قريش وعداوتهم، ومع ذلك جاء الحديث عن معتقداتهم ومواقفهم مع أنبيائهم كما في سورتي الأعراف وطه المكيتين؟

لو كان الأمر متروكًا للاجتهاد البشري لقيل أن الأولى عدم التعرض لليهود في المرحلة المكية، لعدم كثرة اليهود في مكة، وعدم الاحتكاك مع المسلمين، ولا داعي لفتح هذه الجبهة والجبهة قائمة لمجابهة المشركين، خاصة وأن المسلمين كانوا مستضعفين في مكة يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم؟

أما وإن الوحي إلهي، والتخطيط للمعركة وتحديد الجبهات رباني، فلا شك أنها لحكمة عظيمة وغايات كبيرة، ولعل من أبرز هذه الحكم أن تعلم الأجيال الإسلامية اللاحقة من آيات الكتاب الحكيم أن معركة المسلمين مع اليهود معركة مستمرة بغض النظر عن المواقع التي يحتلها كل من الطرفين قوةً وضعفًا.

إخوة الإيمان وتأملوا في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، والآيات قبلها وبعدها ولعله من اللطائف القرآنية الدقيقة أن يأتي الأمر بإعداد القوة لإدخال الرعب والرهبة إلى قلوب الأعداء في سياق الحديث عن المعاهدات ونقض اليهود لها في كل مرة، فإن المعاهدة ليست سوى حبر على ورق لا أثر لها في الواقع إن لم تكن مدعمةً بالقوة التي ترتعد لها فرائص العدو، كلما فكر في نقضها أو إبطال مفعولها، وبعد الأمر بإعداد القوة الرهيبة يأتي الحديث عن السلم لأن السلم إن لم يكن من موطن القوة والعزة فهو تنازل للعدو وخضوع لشروطه فيكون استسلامًا لا سلامًا.

اقرأ ذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ

فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[١].

وليستشفوا من خلال الآيات القرآنية أن المعركة معركة المنهج الرباني والصراط المستقيم ضد المناهج البشرية الجاهلية المحرفة لشرع الله ووحيه والساعية للإفساد في أرضه!

هذا كله فضلًا عن بناء الشخصية الإسلامية بناءً متميزًا بتوضيح الحق ورسم ملامحه، وفضح الباطل وكشف رموزه، ورغبة في سد الباب على المتقولين أن محمدًا أخذ من اليهود ما احتاج إليه ثم حسدهم وناصبهم العداء بعد الاحتكاك بهم، لو تأخر كشف باطلهم إلى الفترة المدنية.

كما أن المؤمن قد أعطي علاجًا وقائيًا لما قد يتعرض له عند الاطلاع على عقائد اليهود، وعند التعامل مع يهود[٢].

إخوة الإسلام هذه وتلك- أعني مزيد اهتمام القرآن باليهود في سوره وآياته، وتقدم الحديث عنهم في السور المكية قبل أن يبدأ الاحتكاك معهم في المدينة. تلك معالم قرآنية في الصراع مع اليهود وهي تستدعي منا وقفة متأنية متأملة، تدعونا إلى العلم بطبيعة هؤلاء اليهود، وتعرفنا بحجم المعركة بيننا وبينهم، ويجب أن تهدينا إلى أخذ الحذر والحيطة والاستعداد لهم بكل ما أوتينا من قوة، ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية وما بعدها إلى يوم القيامة.. وليس أصدق من كلام الرحمن ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ وليس أهدى من القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ فهل يعي المسلمون حقائق القرآن، وهل يأخذون بتوجيهاته وأحكامه.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠، ٦١.

كذلك قرر صاحب المعالم القرآنية في الصراع مع اليهود ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) د. مصطفى مسلم: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص ٢٧-٢٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ما يشاء ويحكم ما يريد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على محجة بيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المنذرين.

أما بعد أيها المسلمون فإذا كانت هذه بعض معالم القرآن عن اليهود، فثمة معالم أخرى تكشف حقيقة وتاريخ اليهود، وتبين من جانب من إعجاز القرآن الكريم، وتحقق نبوة النبي ﷺ في هؤلاء الأقوام.

ومن هذه المعالم: نقض العهود والمواثيق من جبلتهم والحرص على الحياة والتخاذل عند اللقاء طبع فيهم، عداوتهم للإنسانية عامة وللمؤمنين خاصة، وتسليط الشعوب والأمم عليهم كلما اشتد فسادهم، والتفرق والشتات والخلاف ماض في اليهود.. إلى غير ذلك من معالم أرجأ الحديث عنها إلى خطبة لاحقة بإذن الله.

ويبقى السؤال المهم: متى يتحقق وعد الله الصادق في اليهود؟ وأستعجل الإجابة عليه قبل إكمال حقيقة اليهود، واستيفاء المعالم الأخرى حتى تنشرح الصدور، ويذهب ركام اليأس والإحباط المسيطر على بعض القلوب، وأرجو أن يكون ذلك داعيًا ومهيئًا لاستكمال الحديث عنهم لاحقًا.

وأبدأ إجابة السؤال بوقفة إيمانية جميلة لصاحب الظلال وهو يقف عند معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.. الآية، حيث قال سيد قطب رحمه الله: ولقد يبدو أحيانًا أن اللعنة قد

توقفت، وأن يهود قد عزّت واستطالت! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة القادمة[١].

ويقول صاحب كتاب (مكائد يهودية عبر التاريخ):

في دوامة الأحداث الجسام التي خطط لها اليهود في العالم، وعملوا على تنفيذها بما عرف عنهم من مكر وخبث ودهاء، وعمل دائب في الظلام بعيدًا عن الأنوار الكاشفة، ومع الظفر الذي حققوه في العالم لقسط كبير من أهدافهم، ومع الأشواط التي قطعوها في مراحل سيرهم لفرض سلطانهم على العالم، وضمن هذه الزوبعة التاريخية التي مشت في صالح اليهودية العالمية وضد المسلمين طوال حقبة من الزمن، نجد الذين لا خبرة لهم بمفاجآت الأحداث التاريخية التي يجريها الله وفق سننه الدائمة، ولا الإيمان عندهم بما يقضيه الله ويقدره كلما احلولك على الإنسانية ليل الفساد المستشري، قد يخيل إليهم أن نجم اليهود سيظل في صعود مطرد حتى يحققوا أحلامهم البعيدة دون أن ينقلب عليهم ظهر المجن، ودون أن تحل بهم نقمة الله، ويبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، جزاء ما اقترفوه من إثم الإفساد والتضليل في حق جميع الأمم والشعوب.

إن هذه التخيلات لا بد أن تتبدد في قلوب المؤمنين، ليحل محلها الثقة بعدل الله، والأمل بنصره المبين لأوليائه على أعدائه، مهما طالت فترة الابتلاء، ومهما امتد أجل العقوبة الربانية للمسلمين الذين تنكبوا طريق الهداية، واستجابوا لدعاة الضلال، وتأثروا بزخرف الحياة الدنيا وزينتها، ومظاهرها الفاتنة، فسلط الله عليهم بذنوبهم أمةً طردها الله من رحمته وغضب عليها،

---

(١) الظلال ٣/ ١٣٨٦.

بسبب ما كان منها من إثم عظيم، وإفساد في الأرض جسيم، تأديبًا لهم وعظة قاسية، حتى يصلحوا نفوسهم، ويصححوا إسلامهم وينظفوا صفوفهم من الدخلاء فيهم.

ومتى حقق المسلمون الشروط الربانية التي جعلها الله أساسًا لنيلهم تاج النصر على عدوهم فتح الله لهم مغاليق الأبواب، وهيأ لهم أفضل الوسائل وأكرم الأسباب، وحقق لهم وعد رسوله في قوله صلوات الله عليه «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، وحتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود**»(١).

فلقد أخبرنا الرسول ﷺ بهذه النبوءة المستقبلة قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا، حينما لم يكن لليهود قوة تذكر في الأرض، وظل اليهود في الضعف والتشتت منبثين في كل أمة عبر قرون، ومرت هذه القرون، وظل التاريخ صامتًا لا يحدثنا بتحقيق نبوءة رسول الله صلوات الله عليه، حتى دخل القرن الرابع عشر الهجري، الذي بدأت فيه إنذارات المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود تلوح في أفق المستقبل، منذ بدأت تطفو على سطح السياسة العالمية ظواهر المؤامرات والدسائس اليهودية التي تجري في أعماق محيطاتها، وحينما أخذت الأحداث العالمية تهيىء لليهود هجرة إلى قلب البلاد الإسلامية، لينشئوا فيها الدولة النواة لدولة يهودية كبيرة ذات علو في الأرض، تطمع حشدًا كبيرًا من اليهود المنبثين في العالم أن يهاجروا إليها، ويتخذوا في أرضها إقامة لهم، مدعمة بالقوى المسلحة التي تمدهم بها أمم ذات قوة كبرى في الأرض.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقد كان من الأمور المتحتمة لتحقيق النبوءة النبوية أن يتفاقم أمر اليهود على المسلمين، وأن يتحقق لهم بعض الظفر الصوري في عدة معارك، وذلك لأمرين:

أحدهما: عقوبة المسلمين على انحرافهم عن صراط الله في عقيدتهم وعملهم وتأديبهم حتى يراجعوا دينهم ويصلحوا أعمالهم ويطهروا صفوفهم من أعدائهم...

ثانيهما: تيسير السبل أمام أكبر قدر من اليهود المقضي عليهم بحلول نقمة الله، وذلك بإغراءات الظفر المؤقت ليهاجروا إلى موطن المعركة القادمة، حتى يلاقوا مصيرهم المنتظر، الذي هو قادم لا محالة بإذن الله تحقيقًا من الله لنبوءة رسوله، ولا بد مع ذلك أن تجري الأحداث وفق سنن الله الدائمة في كونه.

ولكن لن يكتب الظفر الموعود به على لسان الرسول صلوات الله عليه ما دامت الأمة الموعودة به تسير في متعرجات مظلمة من الطرق، بعيدة عن صراط الإسلام في مفاهيمها الاعتقادية، وأنظمتها الاجتماعية، وسلوكها المجافي لتعاليم الإسلام، والعدو يعرف هذا فلا يزال همه أن يبعد الشعوب الإسلامية عن عقائد الإسلام وتطبيقاته، ليطيل أمد بقائه.

ووعد الرسول بالنصر لم يكن لقوم ضد قوم، ولا لعنصر ضد عنصر، ولا لإلحاد ضد دين محرف مزيف، ولكنه وعد للمسلمين ولن يتحقق هذا الوعد لمن لبسوا صفة أخرى غير صفة الإسلام، ولن يكون هذا الظفر ظفر معركة فحسب، ولكنه ظفر شامل، ينكشف اليهود فيه داخل معظم مخابئهم، حتى تنزل فيهم عقوبة الله على أيدي المسلمين الصادقين، ولن يفلت منهم إلا قليل قليل، تقدر نسبته بنسبة شجر الغرقد إلى سائر الأشجار والمخابئ والحصون.

فمن تكون هذه الفئة التي تتبنى الإسلام بصدق، وتخوض المعركة بإخلاص حتى تنال مجد النصر على العدو الرابض في ديارنا؟

طوبى لمن كان رائد هذه الفئة، طوبى لمن كان قائدًا فيها، طوبى لمن كان جنديًا من جنودها[١].

طوبى لمن شرفه الله بالجهاد الحق تحت راية الإسلام الناصعة بعيدًا عن رايات الجاهلية، بعيدًا عن المزايدات السياسية، والخيانات المؤلمة، ودون جعجعة إعلامية مضللة.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٢].



(١) الميداني: مكائد يهودية عبر التاريخ ص ٤١١-٤١٣.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(١) ثروة الأمة والفاحشة الآثمة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره...

إخوة الإسلام حديثي إليكم اليوم من القلب وأرجو أن يكون موقعه القلب منكم أيضًا.. حديثي إليكم عن قرة العيون، وفلذات الأكباد.. إنهم الشباب ثروة الأمة الكبرى في حاضرها، وأملها المرتقب في المستقبل الاهتمام بهذه النوعية علامة وعي الأمة ومؤشر لحضارتها وتقدمها، والالتفات إلى أساليب تربيتهم والنظر في مشكلاتهم يجنب الفرد والمجتمع غوائل الدهر وفاجعات الزمن ويبني جيلًا قادرًا على الإسهام والعطاء.

أما نسيانهم أو تناسي مشاكلهم، وعدم تقدير موقعهم فهو علامة الانحطاط والضياع والفوضى، ومنذ بزغت شمس الإسلام وهو يولي عنايته بالشباب، وكان في طليعة أوائل المؤمنين أمثال علي بن أبي طالب ﵁ الذي احتضنه النبي ﷺ منذ الصغر ورباه على عينه، وزيد بن حارثة ﵁ الذي رغب الرق على الحرية في سبيل العيش بين يدي محمد ﷺ وفي كنفه.

وما زال النبي ﷺ يولي عنايته بالشباب ويعدهم للنائبات ويبعثهم في المهمات، وكانوا نعم المبلغين، وأثبتوا أنهم تربة خصبة للدعوة آتت أكلها وثمارها بعد حين، فهذا مصعب بن عمير ﵁ يبعثه النبي ﷺ معلمًا وموجهًا للأنصار في المدينة قبل هجرته إليها وكان نعم الداعي ونعم المبلغ.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١١/ ١/ ١٤١٥هـ.

وهذا عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الخزرجي استعمله رسول الله ﷺ على أهل نجران، وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخذ الصدقات[١].

أما أسامة بن زيد رضي الله عنهما فيؤمره على جيش فيه كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

إلى غير ذلكم من أحداث السيرة التي تؤكد اهتمام النبي ﷺ بالشباب.

وما كان لهذه النوعية من الشباب أن تتسنم القيادة، وتكون على مستوى الثقة إلا بالتربية والإعداد والمتابعة والاهتمام، وكذلك ينبغي أن توجه الجهود لتربية الشباب وإعدادهم ورفع هممهم وإشراكهم في المسؤوليات وفرق بين جيل يشكل الشباب فيه ركنًا مهمًا لحمل أعباء الدعوة وتبليغ الرسالة، ويكون الواحد منهم عنصرًا مشعًا لحمل المعرفة وتعليم الجهلة، أو جنديًا صادقًا يذب عن حياض الأمة ويفلق هام الطغاة والمعاندين، ويفتح الأفاق ويقود الجيوش وبين جيل يشكل الشباب فيه عقبة أمام تطلعات الأمة وتحقيق أهدافها.. ويكون هؤلاء الشباب مشكلة بأخلاقهم وسلوكياتهم تأخذ حيزًا من فكر المجتمع وطاقاته لإيجاد الحلول المناسبة لهم وتفادي أضرارهم.

إن الأمة التي إذا التفتت إلى الشباب وجدت فيهم ضالتها المنشودة، وسهامها الرامية، وعدتها الحاضرة هي الأمة الجديرة بالبقاء، والمؤهلة لقيادة العالم.

وتخطيء الأمة طريق الإصلاح إذا تباهت أنها أخرجت شبابًا عقولها في أقدامها، أو شبابًا لا يتجاوز همها حدود المطعم والمشرب والوظيفة والمرتب؟

وما أسرع تسلل العدو للأمة إذا خدر شبابها، وأهدرت طاقاتها، ونحرت

---

(١) أسد الغابة ٣/ ٧١١ (صحائف الصحابة/ ٩٢/ أحمد الصويان).

على قارعة الطريق جدية الشباب وتطلعاتهم المثمرة، وكفنت أخلاق الشباب ولم تجد من يصلي عليها ويبعث العزاء لأهلهم والمسؤولين عنهم!!

إخوة الإيمان ولا يزال الخير في مجتمعنا، فقد نبتت في أرضنا نابتة خير من الشباب، عرفت طريقها، وآمنت بعقيدتها، وأدركت أهمية الوقت في حياتها، ونسأل الله لهم المزيد والثبات، كما نسأله تعالى أن يجزي كل مسؤول وكل عالم أو مرب أسهم في إصلاح هؤلاء الشباب وعرفهم طريق الخير والفلاح.

ولكننا مع ذلك ينبغي أن نلتفت للبقية الباقية من شبابنا، ويجب أن نتحسس دائمًا أحوال أبنائنا وبناتنا، فثمة أمراض خفية أو ظاهرة تحيط بنا، وثمة أخلاق وسلوكيات غير مرضية يتلبس بها بعض شبابنا، وهي لا تليق بهم ولا بنا. واستفحال الدواء قبل استعمال الداء واجب يحتمه علينا ديننا، وتمليه علينا مسؤوليتنا وقوامتنا.. وإذ كان المطلع بعمق على واقع الشباب يمكن أن يرصد أكثر من خطأ، ويمكن أن يشاهد أكثر من عيب، فسأركز الحديث في هذه الخطبة على واحد من هذه السلوكيات المتحركة طالما غفل عنه الخطباء استحياء لذكره، وطالما غفل عنه الآباء جهلًا منهم بواقعه وآثاره.

إنه الانحراف الخلقي وممارسة بعض السلوكيات الشاذة نتيجة اتصال الشباب ببعضهم وتغرير بعضهم ببعض. وهذا الانحراف لا يمكن أن يعمم كل كافة الشباب ولكنها فئة قليلة تتلبس به، ولولا مخافة تأثيرها على غيرها والرغبة في حمايتها هي منه لما كان هذا الحديث.

ويبدأ المسلسل الآثم بصداقة غير نزيهة بين شابين يكبر أحدهما الآخر سنًا وتجربة، وما يزال الكبير يغري الصغير بالخروج معه والركوب في سيارته إن كان ممن وفر له سيارة وهو ليس لها بأهل، وهكذا تترسخ الصداقة وتقوى الصلة، والأهل في غيبة عن هذا كله، والابن لا يسأل عنه إن راح أو غدى، وأين ذهب

ومتى جاء؟ هذا حال البيت، أما المدرسة فقد لا يلفت نظرها هذه الصداقة الجائرة، وقد تغيب عن بعض المربين في المدرسة أن تلك من أولويات مسؤولياتهم، وهكذا يستمرئ المجتمع هذه العلاقات ولا يسأل عن هذه الصلات، فيصبح الأبناء ضحيتها- ولا يفيق الجميع إلا على صوت النذير من بعض الجهات الرسمية الناصحة التي وقفت على المشكلة وحاولت سترها حفاظًا على سمعة الشاب وأسرته.. ولكن قرناء السوء الذين يتخلون عن صاحبهم وقت الأزمات سرعان ما أشاعوا الخبر وأفشوا السر المكنون.. فأين موقعك أيها الأب في تلك الحال، وهلا أعددت لهذا السؤال الجائر من جواب؟ وما هي وسائلك الأولى لوقاية أبنائك من هذه الأمراض الخطيرة؟.

إخوة الإسلام: ويقص علينا القرآن الكريم كيف تشبث قوم لوط عليه السلام بجريمة اللواط، وكيف كانت عقوبتهم، وكيف كانت نهايتهم؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

قال المفسرون إن أهل سدوم- وهم القوم الذي أرسل إليهم لوط- أول أهل الأرض في ممارسة هذه الجريمة البشعة، ولم يكن بنو آدم يعهدونه يألفونه، قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط، وقال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ﷻ قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا[2].

(١) سورة الأعراف: ٨٠- ٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤١.

ولعظم هذه الفاحشة كانت عقوبة أهلها أن رفع الله قرى قوم لوط إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الناس والكلاب، ثم أرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

وهكذا كانت القرى اللوطية وأهلها خبرًا بعد عين، وعبرة لكل ذي عقل وعينين، ولا يظلم ربك أحدٌ، ولم ينج منهم أحدًا ومن لم يمت حين سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله فذلك قوله ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ﴾ أي معلمة مختومة مكتوب عليها أسماء أصحابها[2] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه[3].

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة من كل فتنة وبلية...



(١) سورة هود: ٨٢، ٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين فطر الخلق على الحنيفية السمحة لا فساد في المعتقد ولا شذوذ في الأخلاق ولا انحراف في السلوك، فاجتالتهم الشياطين، فحسنت لهم القبيح وزينت لهم المكروه، فوقع في حبائلهم من وقع، ونجا من وساوسهم من أراد الله له الخير والفلاح، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر عباده بالعدل والإحسان والتقى، ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي لعلهم يتذكرون، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ما فتئ يقص على الأمة من أخبار الماضين ما فيه عظة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

إخوة الإيمان.. إن جريمة اللواط فساد في الفطرة، ونقص في الشهامة والرجولة، وهي خدش لقيمة الحياء، واعتداء صارخ على الفضيلة، كما أن اللواط بداية للضياع والانحراف والعزلة.. إذ يحس صاحب الفاحشة أنه دون مستوى الآخرين في فكره وسلوكه فيجد صعوبة في العيش معهم، ويضطر للانزواء والعيش مع نظرائه وأشباهه، بعكس من تربى منذ صغره على الشهامة والرجولة ورفض كل أنواع الإغراء والفتنة، فهو جاد في دراسته، مطيع لوالديه محترم بين أهله وعشيرته، كاره أشد الكره لمن يسمع عنه أخلاقًا سيئة أو يقترف مثل هذه السلوكيات المشينة.

إخوة الإسلام ولما لهذه الجريمة من أضرار وآثار فقد عظم الشرع المطهر حكمها وغلظ في عقوبتها أتدرون ما الحكم الشرعي في هذه الفاحشة المستنكرة؟

لقد ذهب الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع الحجارة كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم، سواء كان محصنًا أو غير محصن، وحجتهم في ذلك قوله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1]. وقد رجح الشوكاني مذهب القائلين بالقتل، وهو الذي عليه الصحابة[2].

وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصنًا رجم، وإن لم يكن محصنًا جلد مائة جلدة[3].

ماذا تدل عليه هذه العقوبات في فاحشة اللواط؟ إنها دليل على عظمه عند الله، وعلى شناعة فاعله، فهو مستحق للرجم أو للقتل أو للجلد في أقل الأحوال، وتغليظ العقوبة دليل على عظم الجريمة وبشاعتها، وقاني الله وإياكم وأبناء المسلمين منها ومن كل فتنة ومكروه سواها.

إخوة الإسلام وحتى تعلموا شيئًا من حكم التشريع الإسلامي في محاربة هذه العادة المفسدة للخلق والفطرة والدين والدنيا أسوق لكم بعض ما ذكره العلماء من أضرار طبية واجتماعية للواط فمنها:

١- التأثير في الأعصاب تأثيرًا خاصًا، أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلًا، وينقلب الشعور إلى شذوذ به ينعكس شعور اللائط انعكاسًا غريبًا، ومن هذا تستطيع أن

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وغيره (زاد المعارج ٥/ ٤٠) (صحيح الجامع ٥/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) فقه السنة ٢/ ٤٣٤، ٤٣٢، (زاد المعارج ٥/ ٤٠- ٤١).

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٢.

تتبين العلة في إسراف بعض الشباب الساقطين في التزين وتقليد النساء في مساحيقهن وصف شعورهن والتمايل في مشيتهن. . وهذه المشاعر كلها تحدث في النهاية أمراضًا عصبية ونفسية لدى مقترفي هذه الجريمة، ومن هذه الأمراض السادية، والماسوشية، والفيتشزم وغيرها.

٢- التأثير على المخ، واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالًا كبيرًا في توازن عقل المرء وارتباكًا عامًا في تفكيره، وبلاهة واضحةً في عقله، وضعفًا شديدًا في إرادته، وذلك راجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية والغدد فوق الكلى وغيرها مما يتأثر باللواط تأثرًا مباشرًا ويقول المختصون إن هناك علاقة وثيقة بين (النيورستانيا) واللواط، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد.

٣- مرض السويداء فاللواط إما أن يكون سببًا في ظهور هذا المرض أو يغدو عاملًا قويًا على ظهوره، وذلك بسبب الشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم.

٤- ويمكن القول إن اللواط لسبب في انتقال العدوى بحمى التيفود، والدوسنطاريا وغيرها مما ينتقل بطريق التلوث بالمواد البرازية ونحوها المزودة بمختلف الجراثيم، فضلًا عن إمكانية إصابته بأمراض الزنا كالزهري والسيلان.

٥- ويضعف اللواط مراكز الإنزال الرئيسة في الجسم ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية، وينتهي الأمر إلى الضعف ثم إلى العقم.

٦- ومن شأن اللواط أن يصرف الرجل عن زوجته بعد حين وقد يبلغ به الأمر إلى العجز عن مباشرتها، وقد تكون زوجة اللوطي ضحية لجريمته الشنعاء، فلا تظفر منه بمودة، ولا يستطيع لها معاشرة، فتنشأ المشاكل أو يكون الفراق هو الخيار.

٧- وفوق ما ذكر فاللواط يصيب مقترفيه بضيق الصدر، ويرزؤهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب[1].

تلك معاشر المسلمين عقوبات معجلة في الدنيا، والعقوبة في الآخرة أشد وأنكى.. وهنا يرد السؤال ما هي أسباب الوقوع في هذه الفاحشة، وما هي أسباب الوقاية منها؟ وما دور الأسرة والمدرسة والمجتمع فيها؟ كل هذه وتلك موضعها في الخطبة القادمة بإذن الله.



(١) فقه السنة ٢/ ٤٢٩، ٤٣٢.

(٢) أسباب الفاحشة ومحاورها الرئيسة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره. . . .

إخوة الإسلام سبق لنا بعض الحديث عن جريمة اللواط وحري بنا أن نستكمل الحديث عنها، ونعنى بهذه الظاهرة التي تخوف النبي ﷺ على أمته من فعلها أشد التخوف فقال: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط**»[2].

وكيف لا نعنى بهذه الظاهرة وندرس أسبابها ونبحث في أنسب الوسائل لعلاجها، ونجنب الناشئة مخاطرها والمصطفى ﷺ يحشر اللوطي في قائمة الملعونين (المطرودين من رحمة الله) فيقول عليه الصلاة والسلام: «**ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غير تخوم الأرض، ملعون من كمه أعمى عن الطريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط**»[3].

فما هي أهم الأسباب المؤدية إلى الوقوع في هذه الفاحشة، وكيف يقع الشباب ضحية لها؟

وقبل الحديث عن هذه الأسباب أنبه إلى أمرين هامين:

١- إن هذه الأسباب لا يلزم توفرها كلها في الشاب حتى تقوده إلى هذه الجريمة المنكرة، بل وجود أحدها أو بعضها كفيل بجر الشاب من حيث يشعر

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣٠/ ١/ ١٤١٥هـ.

(٢) حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه: صحيح سنن الترمذي ٢/ ٧٦.

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وصححه الألباني ٥/ ٢١٢.

أو لا يشعر إلى هذا المزلق الخطر، وهذا يستدعي الانتباه والاحتياط وسد كل منفذ أو وسيلة تقود للخطر، وعدم التهاون فمعظم النار من مستصغر الشرر.

٢- إن هذا الحديث ليس موجهًا لأحد بعينه، ولا ينبغي لأحد أن يعفي نفسه من مسؤوليته فالوقاية أنسب الوسائل للعلاج، ومقابلة المشكلة بحزم وعزم وجدية وصراحة أولى من تغافلها وإغضاء الطرف عنها، وتجاهل المشكلات لا يعنى عدم وجودها، ولا يسهم بكل حال في حلها.

إخوة الإيمان يمكن حصر الأسباب المؤدية للوقوع في اللواط (حمانا الله وإياكم وذرارينا المسلمين) في أربع محاور رئيسة هي كما يلي:

أولًا: البيت، ثانيًا: المدرسة، ثالثًا: المجتمع، رابعًا: وسائل التأثير الأخرى. وكل واحدة من هذه وتلك تحتاج إلى بيان وتفصيل:

أولًا: أما البيت فهو اللبنة الأساسية والمنطلق الأول لتربية الشاب، وتسهم حالة الغنى المفرط أو الفقر المدقع في انحراف الشاب أحيانًا، أما الغنى- غير المنضبط فيوفر فيه للشاب كل وسائل الراحة واللهو واللعب دون تفريق بين الضار والنافع، فقد يوفر له من وسائل اللهو ما يثير غريزته، ويوفر له من المال ما لا يحسن التحكم فيه، ويوفر له سيارة ليس أهلًا لاستخدامها في أغراضها الصحيحة، فإذا اجتمع إلى الشاب مع ذلك صحة موفورة، وفراغ قاتل، مع حيوية الشباب وقلة تفكيره في العواقب قادته هذه الأمور إلى عمل كل محظور ليس اللواط إلا واحدًا منها.

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وبعكس ذلك تكون بيوت الفقراء حيث لا يجد فيها الشاب حاجته الأساسية، ولا تتوفر له أموره الضرورية، والمجتمع والجيران في غفلة عن حاجات جيرانهم فيضطر الشاب للخروج بحثًا عما يحتاجه فيجد اللصوص المحترفين

لاصطياده وإطماعه بتوفير كل ما يحتاج إليه فتنشأ العلاقات المشبوهة، ويقع الشاب في جريمة اللواط وغيرها من الفواحش والآثام.

ثانيًا: كما تسهم حالة اليتم (لاسيما يتم الأب) في ضياع الشباب وانحرافهم أحيانًا، إذ تعجز الأم عن متابعة بعض الأبناء، ولا تلتفت بقية البيوت لهذه النوعية من بيوت الأيتام: إما لعدم اهتمامهم أو لانشغالهم، فيهيم هؤلاء الشباب على وجوههم، وتكون المقاهي والطرقات وأماكن التجمعات العامة موطنًا لهم، وتتيح لهم هذه وتلك الاختلاط بغيرهم ممن يحسنون لهم القبيح، ويهونون عليهم العسير، فلا يستقيظ الشاب المسكين إلا وهو في شراك المجرمين، وضمن زمرة الفاسدين، وتكون جريمة اللواط واحدة من سلوكياته المنحرفة، وما خفي أعظم وأكبر.

ثالثًا: وأشد ضراوة وأثرًا على الشباب يتم العلم والأدب كما قيل:

ليس اليتيم الذي قد مات والده ... بل اليتم يتيم العلم والأدب

وإذ كنا نشيد ببعض الأمهات اللائي يربين أبناءهن على الخير ويحرصن على سلوكياتهم من كل عفن، حتى وإن كان الآباء تحت الثرى، ونقدم التحية معطرة لأولئك الآباء الذين يعنون بأبنائهم ويهتمون بتربيتهم. فإننا نرثى لحال أولئك الآباء الأموات وإن كانوا في عداد الأحياء، هذه النوعية من الآباء التي لا تهتم بالأبناء، ولا تعيرهم من الاهتمام ما يستحقون فهم إما مشغولون بتجارتهم أو غارقون في لهوهم، أو على الأقل لا يهتمون كثيرًا بأبنائهم ولا يسألون عن مدخل أبنائهم أو مخرجهم ولا يعرفون من يرافقون ولا فيمن يتصلون، هؤلاء يسرح أبناؤهم ويمرحون كيف شاؤوا، وإذا كان الصنف السابق يمكن أن يعطف عليهم المجتمع ليتمهم، فهؤلاء يتكل الناس على تربية واهتمام آبائهم فلا يعيرونهم كبير اهتمام، فينضمون إلى قائمة الضائعين، ولا يفيق الأب إلا حين

يستدعى للغرامة أو للكفالة أو لأخذ التعهد، أو لإشعاره أن ابنه من نزلاء السجن لا قدر الله.

رابعًا: تساهل البيوت بشكل عام في تربية الأبناء وتوجيههم وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم من آثار صحبة الأشرار وعدم تشجيعهم على مصاحبة الأخيار، كل ذلك يجعل الأبناء مرتعًا خصبًا لكل دعوة مهما كان سوءها، ولكل داع مهما كان مساره وخطره.

خامسًا: وتسهم الخلافات الحادة بين الزوجين في ضياع الأبناء أحيانًا، إذ ينشغلون في خلافاتهم عن تربية أبنائهم فينشأ الأبناء بعيدًا عن رقابة الوالدين، ويفضلون العيش بعيدًا عن أجواء البيت، وتكون هذه بداية الانحراف- «لا سمح الله».

سادسًا: وهناك أسلوبان مختلفان في التربية، وعلى طرفي نقيض، وربما أسهما في ضياع الشباب، الأول أسلوب التعنيف والتقريع والتوبيخ دائمًا وربما الضرب لأدنى سبب، وهذا يخلق شابًا كارهًا للبيت يبحث عن البديل ولو كان سيئًا ويبحث عن الأصدقاء ولو كانوا غير أسوياء، وتبدأ حينها المشكلة.

والثاني أسلوب الثقة المفرط الذي يجعل البيت واثقًا بكل تصرفات الابن، محسنًا الظن دائمًا بكل حركاته، حتى وإن كان الشاب في مرحلة المراهقة وإن كان لديه بعض الملاحظات الجديرة بالاهتمام والمتابعة، بل وإن كان الشاب في هذه المرحلة محتاجًا إلى التوجيه والعناية، والكلمة الناصحة.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه

فهذه الثقة المطلقة، وتفسير بعض سلوكيات الأبناء المثيرة على حسن الظن ربما قادت الشاب هي الأخرى إلى الانحراف، والبيت غافل عن هذا في البداية عاجز عن حلها في النهاية.

أيها الإخوة إنما أطلت الحديث عن البيت لأهمية دوره، ولأنه قلعة التحصين الأولى إذا قدر الأبوان موقعهما، ولأن تأثيره في العملية التربوية مهم سلبًا كان أو إيجابًا، وبقدر ما نشكر الله على اهتمام ويقظة البيوت لدورهم في استصلاح أبنائهم، فإنما أردنا بذلك التنبيه على بيوت لا زال أصحابها في غفلتهم سادرين وعن أبنائهم غافلين، نسأل أن يصلح شأننا وأن يهدي ضالنا، وأن يثبت هداتنا.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أيقظ بصائر المؤمنين لما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وأعمى آخرين، فزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين.

أيها المسلمون..

أما المدرسة فهي البيت الثاني للأبناء، يخرجون منها إلى مجتمع جديد، وتنشأ منها علاقات وصداقات، وهي كالبيت مكان للإصلاح والتربية إذا أحس القائمون عليها بواجبهم، وتنشأ المشكلة على حين غفلة من المدرسين والمسؤولين في المدارس إذا فتحت العلاقات دون رقيب بين الصغار والكبار، ولم ترقب سلوكيات الطلاب باستمرار، وأتيحت الفرصة لخروج بعض الطلاب من المدرسة دون حاجة ملحة، أو تسرب إلى المدرسة شباب من خارجها قصدهم الاتصال بشباب المدرسة وعقد صلات معهم، أو وجد في المدرسة نماذج من المدرسين ليسوا على مستوى المسؤولية في أخلاقهم وسلوكياتهم أو فرض على الطلاب في التربية البدنية ملابس تكشف عوراتهم، أو تصف بشكل مثير للفتنة ملامح أجسادهم.

وبشكل عام فقلة التوعية في المدارس عن هذه السلوكيات، والغفلة عن متابعة حركات الطلاب في حال تجمعهم أو حال خلوتهم كل ذلك يسهم في خلق سلوكيات غير مهذبة عند الشباب، وقد يكون اللواط واحدًا منها.

وكذا الغفلة عن مساءلة ومتابعة من يتأخرون صباحًا للمدرسة فيكونون خارج البيت وليسوا في المدرسة، أو من يتأخرون أو يتأخر عنهم آباؤهم بعد خروجهم من المدرسة فلا يصلون إلى بيوتهم إلا في نحر الظهيرة، فهذه كذلك تتيح لهم

فرصة الاختلاط وتتيح للمتسكعين في الشوارع فرصة اصطيادهم وعلى المدرسة والآباء أن ينتبهوا لهذا جيدًا.

أما المجتمع فنعنى به أماكن التجمع الأخرى خارج إطار البيت والمدرسة، فالشارع مثلًا بيت لعدد من الشباب يقضون به كل أوقاتهم بعيدًا عن رقابة الأهل ومتابعتهم، وإني لأعجب من أناس يتركون أبناءهم معظم الوقت يسرحون ويمرحون كيف شاؤوا في الشوارع والمقاهي والمطاعم ولا يسأل الأب أين ذهبوا ولا من خالطوا، وهل تربي الشوارع الأبناء، بل وهل يأمن الأب على ابنه من فتن الأحياء؟ إن هناك صنفًا من الشباب المراهقين الشغال التجول الدائم بسياراتهم داخل الأحياء، فهل ترضى أيها الأب أن يكون ابنك فريسة لهؤلاء؟- ونوادي الحواري وتجمع الشباب بها لا تسهم في إصلاح الشباب بحال، بل هي موطن للريبة وسوء الخلق والنزاع والمشاجرة في أقل الأحوال فاحذروها معاشر الآباء وامنعوا أبناءكم عن المشاركة فيها.

والنوادي الكبرى التي تخلو من المربين المخلصين وتجمع أشتات الشباب الضائعين هم أعظم خطرًا وأولى بالمنع والمراقبة من قبل المسؤولين.

ومناسبات الزواج في قصور الأفراح مكان بهجة وفرحة للأسرة الواحدة، ولكن ينبغي الحذر من مجيء شباب خارج إطار الأسرة لأغراض سيئة، وينبغي كذلك التنبه لعدم خلوة الشباب الكبار مع الصغار حتى ولو كانوا من أسرة واحدة، وتلك مواطن ينسى فيها الآباء أبناءهم.

وأماكن البيع والشراء للأحداث حري بمراقبة الأولياء والجهات المسؤولة، ويشير العارفون أن سوق الحمام- مثلًا- مكان للاختلاط والاحتكاك بين صغار الشباب وكبارهم جدير باليقظة والاهتمام والمتابعة.

إخوة الإيمان أيها الآباء، أيها المسؤولون- أما وسائل التأثير الأخرى فنعنى بها تلك الوسائل التي تلعب دورًا في صناعة أفكار الشباب وتخاطب عقولهم وغرائزهم، فوسائل الإعلام المختلفة قادرة على الإسهام بشكل فاعل وجيد في صياغة عقول الشباب وتهذيب غرائزهم إذا وسد الأمر فيها إلى أهله من النصحة والغيورين والمفكرين العقلاء وهي أداة هدم ووسيلة فساد إذا قام عليها من لا يحسنون اختيار موادها، واصطفاء برامجها فتثير الصورة الفاضحة غريزة الشباب- ذكرانًا وإناثًا- وتدعو المسلسلات الهابطة إلى احتراف الجريمة ومحاكاة الممثلين الساقطين، وتنشئ الدعايات والإعلانات الإعلامية الرخيصة حبًّا في الشباب للذي هو أدنى وينسون الذي هو خير، فجنبوا معاشر الأولياء أبناءكم كل وسيلة تهدم الخلق والدين وتثير الغرائز وتعلم الشباب ما يضرهم.

والجمعيات المشبوهة- سواء كانت للرجال أو للنساء- والتي تعنى بتربية الشباب على الموسيقى والغناء وتجمع صغار الشباب إلى المراهقين في أعمارهم أو عقولهم أو تلك التي تدرب الفتيات على الرقص وأنواع القص للشعور، والجديد من المكيجة ونحوها- كل هذه وتلك لا تسهم في استصلاح الفتيان والفتيات في وقت غدت الأمة فيه أحوج ما تكون إلى التربية الجادة والاستفادة من كل طاقة.

إخوة الإسلام هذه أبرز المحاور التي حضرتني ولا يعني ذلك الحصر بقدر ما يعني الإشارة.. وربما تساءل البعض- وما هي طرق العلاج؟

طرق العلاج:

ولهؤلاء أقول: إن من أهم وسائل العلاج معرفة أسباب المشكلة والوعي بها والعمل على سد كل المنافذ المؤدية إليها.

وتبقى بعد ذلك وسائل أخرى للعلاج لا تخص هذه الظاهرة الخلقية فحسب، بل هي أساس لعلاج أي ظاهرة شاذة توجد عند الشباب أتعرض لها في الخطبة القادمة بإذن الله.

وأختتم الحديث بتنبيه مهم وهو أن حديثي في هذه الخطبة عن البيت أو المدرسة أو أمثالها لا يعفي التقييم لها، وليس حديثًا عن رسالتها التربوية وإلا لقلت غير هذا من الآثار الإيجابية لهذه المحاضن من محاضن التربية، لكنه حديث عن نقاط ضعف قليلة في بحر حسنات كثيرة أردت بها أن تكتمل جوانب التربية وأن تسد الثغرات المهمة حتى تكتمل لهذه المحاضن أداتها في التربية ولئلا تؤتي الأبناء من ثغراتها السلبية ولست بمبالغ إذا قلت إن بعض البيوت قلعة من قلاع العلم والتربية والأدب، وعددًا من المدارس قمة شامخة في التربية والمتابعة والمتابعة والتعليم والتوجيه. ذلك من التحدث بنعمة الله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ لكن الملاحظة الناصحة، والاستمرار في المتابعة لا تزيد البنيان إلا شموخًا.. وعساها أن تكون موقظة لمواقع يكاد السوس أن ينخر فيها.. ولبنيان يكاد أن تتصدع جدرانه.. والله الهادي والموفق.



(٣) طرق العلاج وقنوات الإصلاح في إصلاح الشباب(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه. . .

إخوة الإيمان حين يتحدث المتحدث عن ظاهرة سلوكية سيئة- كاللواط مثلًا- فلا يعني ذلك إغفال غيرها من الظواهر السلوكية المنحرفة الأخرى لدى الشباب، كالتهاون بالصلاة أو تعاطي المخدرات، أو عقوق الوالدين، أو ضياع الأوقات والتسكع في الطرقات، وإيذاء الناس وتكدير صفو عيشهم أو غير ذلك من مظاهر تحتاج كل واحدة منها إلى وقفة وتأمل وعلاج.

ومن هنا فعلينا ونحن نرغب في علاج ظاهرة أن نربطها بغيرها، وأن نتأمل في جملة الأسباب والعوامل المؤدية للانحراف لتلافيها، وأن نبحث في جملة العناصر والمؤسسات القادرة على العلاج والإصلاح لنشملها ونذكر بواجبها ومسؤوليتها ولا يمنع بعد ذلك أن نعالج كل ظاهرة بحسبها، لكن التنبه أساسًا لعوامل البناء والتربية يعفي المجتمع كثيرًا من هذه الأمراض، ويقلل ابتداءً من أعداد المنحرفين والشواذ، ومن هنا فسأعود في هذه الخطبة إلى التذكير بعدد من الجهات والأشخاص الذين يجب أن يكون لهم دورهم في استصلاح المجتمع بعامة، ومجتمع الشباب خاصة، ولست متعجلًا في الحكم إن قلت: إن قيام هذه الجهات بمسؤوليتها كفيل بقطع دابر الفساد والرذيلة، بل وسبب- بإذن الله- في رفع همم الشباب، ونقلة كبرى في أساليب تفكيرهم يدعوهم إلى عدم

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٧/ ٢/ ١٤١٥هـ.

النظر والتفكير في هذه السواقط والرذائل من الأخلاق فضلًا عن مقارفتها أو الوقوع في حبائلها.

هذه الجهات والمؤسسات أكتفي بذكر أربع منها:

١- البيت.. وليس البيت- إخوة الإيمان- مطعمًا ومقهى يتناول فيه الشاب ما لذ وطاب من المطعم والمشرب وكفى بذلك بناء للجسد على حساب الروح، وذلك تورم في الأطراف على حساب بناء العقول وتنوير الفكر، وقولوا لي بربكم: كم هي البيوت التي تعنى ببناء عقل الشباب، وتعنى بتربية فكره، وتجتهد في سبيل تهذيب سلوكه، وتعطيه مع جرعة الطعام جرعات أخرى في الإيمان والأخلاق والآداب؟

وليست البيوت معرضًا للأزياء يجد فيها الشاب والشابة ما جد في عالم اللباس والزينة بكافة أنواعها، فتكون هذه وتلك شغله الشاغل وهمه الأوحد، ينتهي فكره عن حدودها، وتنقطع آماله حين لا يجد عناءً في سبيل الحصول عليها، وقولوا لي بربكم: أيهما أعلى نسبة في البيوت الاهتمام إلى حد الإسراف في هذه الزينة الظاهرة، أم الاهتمام بلباس التقوى الذي قال الله عنه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

وليست البيوت مهاجع يوفر فيها للشاب والشابة ما رق وارتفع من الفرش الوثيرة ووسائل الراحة الكاملة، فينام فيها الأبناء والبنات معظم الليل وسحابة النهار يتقلبون على ظهورهم وجنوبهم، والصلاة تجمع إلى الصلاة، والأشكال لطول النوم متغيرة، والقدرة عند هؤلاء لتحمل المسؤوليات ضعيفة.. صحيح أن على البيوت مسؤولية توفير المطعم والمشرب والملبس، وجميل أن تكون

---

(١) سورة الأعراف: ٢٦.

البيوت المقر لراحة الأبناء ونومهم. . ولكن ذلك بقدر لا يصل حد السرف وثمة مسؤولية تغيب عن عدد من البيوت، وعلى أرباب البيوت أن يدركوا أن البيت ينبغي أن يكون مدرسة يتعلم فيها الأبناء الأخلاق الفاضلة، ويزرع في نفوسهم الإيمان والحياء، وأن يذكروا فيه بقضايا البعث والجزاء، ويصور لهم بالقدر الذي يعوه نعيم الجنة وعذاب النار، وأن يؤكد البيت على أهمية الوقت واستثماره بما ينفع من أمور الدين والدنيا.

وليس عيبًا أيها الأب أن تحطم كبرياءك وتنزل من برجك العاجي لتخاطب الأبناء والبنات، وتشعرهم أنك صديق محب لهم فضلًا عن الأبوة والعاطفة تجاههم وسيسهل ذلك عليك تعليمهم الخير وتحذيرهم من الشر، وجميل أن تروح عن قلوبهم أحيانًا بالنكتة اللطيفة، أو اللعبة المسلية، أو الرحلة الهادفة، وأن تستصحبهم معك إلى مجتمعات الخير، ودوريات الأقارب والجيران والأحباب والأصحاب الخيرين، وأجمل من ذلك أن تنشئ لهم في البيت مكتبة طيبة تحوي من الكتب المفيدة والأشرطة النافعة ما يوسع مداركهم ويعينك على تربيتهم، وأن تجعل فيها أو في أي ناحية من البيت جلسة معهم تحفظهم شيئًا من كتاب الله أو تقص عليهم ما فيه عبرة لهم، أو تقرأ عليهم من سير الصالحين وأحاديث النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. أيتها الأم فإذا كان الأب أكثر هيبة عند الأولاد منك فلا تنسي أنك أكثر قربًا للأولاد منه، فساهمي في نصحهم وتوجيههم وتعرفي على أحوالهم وما لا يبدونه لأبيهم، وكوني خير معين للأب على تربيتهم، فالنفع لكما، والمستفيد الأول كلاكما، وما أجمل أسرة يفهم كل واحد من الزوجين دوره فيؤديه.

أعتقد أن بيوتنا حين تبلغ هذه المنزلة وحين تفكر بهذه العقلية قادرة- بإذن الله- على إخراج أجيال صالحة وعناصر فاعلة ومؤثرة سينفع الله بها الآخرين،

بدل أن تكون مشكلة يتأذى منها الأهل والجيران وينال قسط من قدرها الآخرين.

٢- المؤسسات التربوية وأهمها المدارس والجامعات، ودور المدرسة يتمثل في التوجيه والتربية والدعوة لمكارم الأخلاق والتحذير من سيئها، وتنظيم اللقاءات الطلابية والرحلات الهادفة المفيدة كل ذلك- ولا شك- يسهم إسهامًا جيدًا في استصلاح الشباب وتوجيههم واستثمار وقت فراغهم، وقبل ذلك سلوك المعلم وشخصيته وحديثه فهي منارة يهتدي بها الدارسون ويحاول الطلاب والطالبات محاكاة معلميهم ومعلماتهم، وعلى قدر همم وأخلاق الكبار يدرج الصغار، وحري بالإدارات المعنية أن يشجعوا الجادين المخلصين، وأن يلفتوا نظر من يقصرون في واجبهم أو لا يكون على مستوى المسؤولية في التربية والمتابعة.

أما الجامعات فهي مستودع للعقول ومركز للمعلومات يؤهلها ذلك لعقد الدورات، وتنظيم المحاضرات والندوات، ومن ضمن واجباتها التعرف على المشكلات واقتراح الحلول المناسبة لها، والنظر بين الفينة والأخرى في المناهج الدراسية واستصلاحها وتطويرها بما يخدم أهداف الأمة ويعمق أصالتها، ويحفظ عليها كرامتها ويؤهلها لقيادة العالم من حولها.

وليست وظيفة المدرسة والجامعة أن تحفظ الطلبة والطالبات مجموعة من النصوص وتلقنهم كمًّا من المعلومات لا يستفيدون منها في حياتهم العملية، ولا ينبغي أن يكون الهدف من الدراسة مجرد نقل الطالب من مرحلة إلى أخرى، ومنحه في النهاية شهادة تؤهله للعمل وتصله بأسباب الرزق ليس إلا، بل أساس التعليم العمل، والتربية والتهذيب ونصاعة الفكر وارتفاع الذوق والشعور بالمسؤولية والتضحية في سبيل خدمة الآخرين وقيادة المجتمع إلى الخير كل

ذلك أهداف سامية للتعليم ليس العمل والوظيفة إلا واحدًا منها . وكم هو خطاب واع ذلك التعميم الذي عممت به وزارة المعارف برقم ٣٢/ ٧/ ١/ ٤٦/ ٣٧٦ في ١٨/ ١٢/ ١٤١٤هـ مشكورة على جميع المناطق التعليمية (مؤخرًا) بشأن دور المدرسة في تحقيق أهداف الإرشاد الوقائي وحماية أبنائنا الطلاب، وتضمن التعميم ثمان نقاط جديرة بتعاون المدراء والمدرسين والمرشدين والأولياء مع تحقيقها ولولا خشية الإطالة لقرأته عليكم.

هذه المؤسسات ينبغي ألا تتوقف رسالتها في الشتاء والصيف، فليست الإجازة الصيفية بأقل شأنًا في حياة الطلاب من أيام الدراسة، لكن ينبغي أن يروح عن الطلاب وألا يتصل كد الأذهان عليهم فيملوا، بل تكون الإجازة فرصة للإكثار من المراكز الصيفية التي تعنى بتنشيط الشباب وملء وقت فراغهم بوسائل الترفيه المفيدة واقتراح البرامج المناسبة.

ونجدها فرصة مناسبة لنزجي الشكر الجميل للجامعات وإدارات التعليم وهي تعنى بهذه المراكز الصيفية وتشجعها وتدعو الشباب للمشاركة فيها. وعلى الأولياء أن يقدروا أهميتها ويساهموا في تشجيع أبنائهم على التسجيل فيها إذ هي من أفضل الوسائل لحفظ أوقات الشباب وحمايتهم من الانحراف بإذن الله إذا توفر لها المربون المخلصون وتولى مسؤوليتها العارفون المجربون.

اللهم ارحمنا برحمتك يا رحيم، وأصلحنا شيبًا وشبابًا ذكرانًا وإناثًا يا رب العالمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالين، أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى سائر المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها السلمون..

٣- للجماعات والجمعيات الخيرية دورها في استصلاح الشباب، فجماعات تحفيظ القرآن الكريم تعنى بتعليم كتاب الله وتحفيظه وتجويده، ولا شك أن العكوف على حفظ كتاب الله والتفرغ له، وقضاء شطر من حياة الشاب في سبيله.. لا شك أن ذلك عنوان خير، وطريق للفلاح والسعادة، والقرآن يهدي للتي هي أقوم، وبقدر ما تنتشر الحلق في حي أو بلدة بقدر ما يتوفر الخير ويتقلص الشر.

وبقدر ما نشكر القائمين على هذه الجماعات ونسأل الله لهم المثوبة، فإننا نأمل أن تزيد من مناشطها فتخدم كتاب الله بالدروس النافعة التي توضح مجمل القرآن، وتكشف عن إعجازه، وتقرب معانيه وترسخ مفاهيمه في أذهان الشباب والشابات.

كما نأمل أن تضاعف الحلق مناشطها في الإجازات الصيفية، سواء على مستوى البنين أو على مستوى البنات، وأن تضع لذلك من الدورات والحوافز ما يستنهض همم الأبناء والبنات، ويدعوهم إلى استثمار أوقاتهم وبناء عقولهم وإصلاح قلوبهم.

أما جمعيات البر الخيرية فلها رسالة جليلة في خدمة الفقراء وسد حاجات المعوزين، والالتفات للفقراء والمساكين، وهو جهد يذكر فيشكر لهذه الجمعيات والقائمين عليها.

وما أجمل رسالة الجمعية حين تهدي للفقراء والمساكين الرسالة الطيبة، والكتيب النافع والشريط الجيد مع إهدائها للغذاء والملبس، وما أروع رسالة الجمعية وهي تعنى باليتامى والأرامل فتقدم لهم البرامج المفيدة، وتفكر في أساليب ربطهم بالحياة بعيدًا عن استجداء الآخرين أو تسولهم مع عامة المتسولين، وليست يخفى أن من رسالة الجمعية الاجتماعية تنظيم دورات مفيدة للشباب، تنفعهم في حياتهم العملية، والمساهمة في دعم المراكز الصيفية إلى غير ذلكم من أساليب ومناشط يقدرها المسؤولون عن هذه الجمعيات وهم يتحسسون حاجات المجتمع، ويشكرهم المجتمع حين يتولونها.

أما الجهة الرابعة القادرة على الإسهام في إصلاح الشباب بإذن الله فهم العلماء والدعاة والتجار، وأصحاب الرأي والفكر أيًا كانت مواقعهم، فالعلماء والدعاة عليهم مسؤولية توجيه الشباب بدروسهم ولقاءاتهم ومؤلفاتهم ومحاضراتهم وندواتهم، وبوركت أمة يقود مسيرة الشباب فيها العلماء والدعاة والمربون.

أما التجار فلهم ميدان رحب في المساهمة في إصلاح الشباب بأموالهم، وذلك بدعمهم للمشاريع والبرامج والمراكز النافعة، وتحية ولأولئك التجار الذين فهموا دورهم واستثمروا أموالهم في دفع عجلة الخير، وفرق كبير بين هؤلاء وبه من طغت عليهم الأنانية، ولم يلتفتوا إلى مجتمعهم، ولم يساهموا في حماية أبناء المجتمع من حولهم، وكأن لسان حالة بعضهم يقول: إنما جمعت هذه الأموال بجهدي وعرق جبيني، فكيف أقدمها رخيصة سهلة للآخرين،

ويذكرنا هذا النوع الممسك من التجار بقصة الرجل الذي منع حق الله فيه وقال: إنما أوتيته على علم عندي؟

ولا يعفى من المسؤولية أصحاب الوجاهة والرأي، وأهل الفكر وأرباب المناصب، فكل يمكن أن يقدم شيئًا لمجتمعه، ولا يسعه السلبية في الحفاظ على أغلى ثروات الأمة- وهم الشباب- فالكلمة الطيبة صدقة، والرأي المستنير لبنة في البناء، والتفكير المستديم في قضايا الشباب علامة الوعي وهو الطريق الأمثل للعلاج ومجرد النقد لذات النقد ولي زمنه، وينبغي أن يترفع العقلاء عن مقارفته، إذ يوجد فئة من الناس لا هم لها إلا انتقاد هذا الشاب أو التقليل من قيمة هذا المشروع دون أن يقدموا بدائل مفيدة ومثمرة وبوركت يا شيخنا الجليل، ويا سماحة والدنا العزيز وأنت تكتب رسالة إلى جميع هذه الفئات مذكرًا الجميع بواجبهم ومسئولياتهم ولعل الجميع قد اطلع على الخطاب الذي وجهه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز يحفظه الله إلى عموم العلماء والدعاة والتجار وأصحاب الوجاهة والرأي للمساهمة في إصلاح الشباب وتربيتهم بشكل عام وفي الإجازات الصيفية ودعم مراكزها بشكل خاص. وهو خطاب لا تبقي لأحد عذرًا في التخلي عن المساهمة بما يستطيع.

أيها السلمون أرأيتم لو قام كل فرد منا بدوره الذي يستطيع وأدت هذه المؤسسات والجهات رسالتها على الوجه المطلوب هل يوجد بيننا شاذ أو منحرف، بل وهل يوجد في مجتمع كهذا فرصة لشاب غير جاد يبحث عن قضاء وقته بأي شكل كان، وأنَّى لمنحرف أن ينحرف وهو يجد العناية والاهتمام تلازمه أينما حل، ويجد التربية والتوجيه يحيط به أينما رحل، ويجد الجدية شعارًا للمجتمع كله أينما نظر؟

إن تضافر المجتمع وتكامل المؤسسات في رسالتها عنوان وعي ودليل تحضر، وهو أنجح أسلوب للتربية المتكاملة فضلًا عن الوقاية من السلوكيات المنحرفة، فلنتق الله معاشر المسلمين ولنتعاون على البر والتقوى، وليدرك كل شخص منا أنه معني بالحديث بما يستطيع، ولا يكن دور أحدنا إلقاء اللائمة على الآخرين، أو التباكي على واقع الشباب المنحرفين، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السامع وهو شهيد.



دواعي التوبة في رمضان(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، يتوفى الأنفس حين موتها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بقدرته يتعاقب الجديدان، وتتكرر المواسم، وتطوى الأيام والليالي، وتفنى أمم وشعوب، وتنشأ أمم وشعوب أخرى، وما يعقل ذلك إلا العالمون، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أزكى البشرية وأبرها وأسبقها إلى الخيرات، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعلى الآل والأصحاب الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين فشهر الصيام موسم للبر والتقوى، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

إخوة الإيمان حل الضيف الكريم المنتظر، ومتع الله من شاء من عباده حتى بلغ شهر الصيام، وطويت صحائف أقوام، فغيبتهم اللحود، واخترمتهم المنايا قبل حلول هذا الشهر الكريم، ولن تزال المنايا تخترم النفوس، وقد قضى الله على أقوام باستكمال هذا الشهر وقضى على آخرين بالموت قبل بلوغ الشهر أجله، ولكل أجل كتاب، ومن أدركه هذا العام وإذا كانت تلك جزءً من أقدار

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق . . .

(٢) سورة البقرة: ١٨٣.

الله وتدبيره في العبيد فالمغبون حقًا من يدخل عليه الشهر ويخرج ولم يستفد شيئًا، ألا وكلنا ذاك المخطئ الذي يرجو مغفرة ربه وتكفير سيئاته، ورمضان فرصة لتكفير السيئات، ويجد المرء فيه من العون ما لا يجده في الأشهر الأخرى، ففرص الطاعة تتوفر، وأبواب الجنة تفتح، ودواعي الشر تضيق، وأبواب النار تغلق، به تنشرح صدور المؤمنين، وبه تصفد مردة الشياطين، فلا يخلصون إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره من الشهور، وهذه وتلك تعين المرء على تكفير سيئاته وتدفعه إلى عمل الصالحات التي بها يكفر الله السيئات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1] ومحروم من أدركه رمضان فلم يغفر له، فأي خسارة أعظم من أن يدخل المرء فيمن عناهم المصطفى ﷺ بحديثه على منبره في مساءلة بينه وبين جبريل عليه السلام، وقد جاء فيها: «**من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل**: **آمين. فقلت**: **آمين**».

وإذا كان الله يدعو عباده إلى التوبة النصوح الصادقة في كل زمان، ويقول جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ ويقول تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فإن التوبة في رمضان أحرى وأولى، فهو شهر تسكب فيه العبرات، وتقال فيه العثرات، ويحصل به العتق من النار، ومن منا لا يتلبس بخطأ هو أدرى به من غيره، ومن منا لا يصر على معصيته كبرت أو صغرت.. أو ليس حريًا بنا في رمضان أن نتخفف من الأوزار، ونقلع عن المعاصي والموبقات فيستشعر لذة رمضان ونحس بأثره في نفوسنا وسلوكياتنا، ولا يكن رمضان وغيره سواء.

---

(١) سورة هود: ١١٤.

إن رمضان فرصة لمحاسبة النفس، وينبغي أن يكون رمضان مذكرًا لنا بما اقترفنا طيلة العام فما وجدنا من خير حمدنا الله وازددنا، وما وجدنا عملنا فيه من سوء تبنا إلى الله واستغفرنا وتصدقنا، وأكثرنا من عمل الصالحات حتى تعفوا على السيئات، ووعدنا أنفسنا ألا تتكرر أخطاؤنا، وألا نرخي العنان لشهواتنا، فإذا حافظنا على ذلك وحافظنا قبله على الصلوات الخمس، والجمعة والجماعة، كنا ممن فقه قول المصطفى ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[١].

ومن دواعي التوبة في رمضان الصبر، فالصوم كما جاء في الحديث «**نصف الصبر**»[٢].

والصوم يربي النفس على الصبر وتحمل المشاق، وإذا كان الصائم يصبر نفسه عن ما أحل الله له من الطعام والشراب والمنكح، فلا شك أن صبره عن ما حرم الله عليه من باب أولى. وهكذا يخرج المسلم من شهر الصيام وقد تدرب على الصبر، وانتهى في حسبانه أي شيء كان يظنه مستحيلًا، أو ليس المدمن على التدخين مثلًا كان لا يطيق الصبر عنه بضع سويعات فإذا به في شهر الصيام يصبر عنه الساعات الطوال.. أو ليس في ذلك فرصة للإقلاع منه والخلاص من أسره بدءًا من شهر الصيام.. وهكذا فكل من فتن بشيء محرم وصبر نفسه عنه في شهر الصيام فجدير به أن يقلع عنه ويتوب إلى مولاه، وهذا من المستفيدين حقًا من حكم الصيام ومثله يفقه حقيقة التقوى في الصيام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه وفي إسناده موسى بن عبيدة، متفق على ضعفه، رمضان مدرسة الأجيال، ناصر العمر/ ٣٠.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وهو حديث حسن، عبد الله الفوزان، أحاديث الصيام/ ٩٧.

وينبغي أن يترفع الإنسان المكرم بصبره عن صبر البهائم التي تأكل حين تجد المرعى، وتصوم إجبارًا حين يعز المرعى، فما بالله حاجة أن يدع الإنسان طعامه وشرابه دون جدوى، لكنه السر العظيم يراد للإنسان أن يدركه فيشكر ربه على أن هيأ له ما يأكل منه ويشرب، وقد حرم منه آخرون، ويتوب إلى بارئه ويستغفره ويعبده حق عبادته.

لا ترد، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم**»[١].

وليحرص المسلم على الدعاء عند الإفطار، فللصائم عند فطره دعوة لا ترد، كما صح بذلك الحديث[٢].

كما يحرص على الاستغفار بالأسحار قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ ولا يخص أن حضور القلب والإلحاح في الدعاء والبدء بحمد الله والثناء عليه، والختم بالصلاة والسلام على نبيه ﷺ كل ذلك من آداب الدعاء.. وهل غاب عن ذهنك أيها المقصر أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا مع التوبة وصدق التوجه، وأن لله تعالى نفحات في رمضان حري بك أن تستفيد منها، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده بسند صحيح عن النبي ﷺ قال: «**إن لله عتقاء في كل يوم وليلة، لكل عبد منهم دعوة مستجابة**».

وفي الحديث الآخر عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لله عند كل فطر عتقاء**».

---

(١) المرجع السابق/ ٩٧.

(٢) رواه أحمد وصحح إسناده المنذري والألباني الصيام/ ٨٩.

فتذكر ذلك جيدًا يا أخا الإسلام وادعُ الله بالتوبة النصوح، واسأله من خيري الدنيا والآخرة، وأرجه أن تكون من عتقائه من النار. وإنه لفرق بين من يتصور هذه المعاني وهو عند لحظات الإفطار، وبين من هو غافل شارد، لا يقطع حديثه المعتاد إلا سماع الأذان، وربما كان الكلام في محرم، فكانت الخسارة أعظم، فاستفيدوا من الصيام يا معاشر الصوام، وانتبهوا للحظات قبول الدعاء فهي حرية بالاهتمام.

إخوة الإيمان.. وثمة أمر يدعو إلى التوبة في كل حال، وهو في رمضان أحرى وأولى، ألا وهو كثرة الذكر وكثرة الصدقة، فكثرة الذكر تشرح الصدور وتطمئن بها القلوب، وتصبح النفوس متهيأة للتوبة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ والذكر طارد للشيطان جالب لملائكة الرحمن، هذا فضلًا عما في الذكر من تكفير الخطايا والذنوب وقد صح في الحديث عن النبي ﷺ **«من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»**[١].

أما الصدقة فهي برهان على الرغبة في الخير، ولاسيما صدقة السر، التي قال النبي ﷺ في شأنها **«صدقة السر تطفئ غضب الرب»**[٢].

والصدقة- بشكل عام- تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.. كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ[٣].

وإذا كانت الصدقة- الأخرى- مستحبة في كل زمان، فلها في شهر الصيام مزية على سائر العام، وقد كان المصطفى ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما

---

(١) الأذكار للنووي ص١٢، ١٣.

(٢) صحيح الجامع ٣/ ٢٤٠.

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. الفوزان/ ٦٨.

يكون في رمضان، وقال الإمام الشافعي رحمه الله «أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً بالرسول ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم»(١).

وهكذا يكون الذكر وتكون الصدقة من أسباب التوبة وتكفير السيئات، ولا تبقى الخطيئة في حس المسلم عقدة تقعد به عن المغفرة كحال أصحاب العقائد الفاسدة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



(١) معرفة السنن والآثار للبيهقي عن أحاديث الصيام للفوزان/ ٦٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين غافر الذنب وقابل التواب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله الأطهار وارض اللهم عن الصحابة الأخيار، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان ما تجدد الليل والنهار وتلاحقت المواسم والأعوام.

أيها الصائمون فمن دواعي التوبة في شهر رمضان كثرة تلاوة القرآن، من أسباب التوبة في رمضان لا شك أن تلاوة القرآن مستحبة في كل زمان، ولا شك أن للقرآن أثره على قارئه في كل حال، كيف لا وهو الكتاب العظيم المعجز الذي حكى الله أثره على صم الجبال لو أنزل عليها ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وتبقى القلوب التي لا تلين أو تتأثر بالقرآن ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

وللقرآن في رمضان مزية خاصة، ففيه أنزل، وبه كان جبريل عليه السلام يلقى النبي ﷺ كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن[(٢)] وبه تزدان المساجد في رمضان تلاوة وصلاة، وخشوعًا، وبه يتهيأ لكثير من الناس القراءة أكثر من غيره، وإن كان حريًّا بالمسلم أن يداوم على قراءة القرآن في رمضان أو غير رمضان، لكن

---

(١) سورة البقرة: ٧٤.

(٢) متفق عليه البخاري ١/ ٣٠، ومسلم ٢٣٠٨.

فضل الزمان يدعو إلى كثرة التلاوة والتدبر للقرآن، وفي رمضان يجتمع الصيام مع تلاوة القرآن فيكون أسمى للروح وأخف للجوارح لعدم امتلاء البطن في الطعام.

وقارئ القرآن بتدبر وتمعن لابد أن ينتهي إلى التوبة، ولابد أن يعود إلى ربه ويستغفره من ذنوبه لعدة دواع منها: أنه يقرأ ما أعده الله للمتقين من النعيم والحبور الدائم مما تطرب له النفوس وتتعلق به القلوب، ويزداد شوقه إذا قرأ أن في ذلك النعيم ما لا يستوعبه الخيال أو تحيط به العيون والأسماع ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

ولا يكاد ينتهي من الأنس والشوق حتى تمر به المشاهد المغيبة للكافرين والفجار مما لا تطيق بعض النفوس سماع وعده ووعيده فضلًا على أن تصبر على شدة العذاب أو تطيق أن تكون من أهل النار والعياذ بالله وبين هذه المشاهد وتلك تأتي الدعوة الإلهية للتوبة فضلًا من الله وإحسانًا وإلا فربك الغني القهار، وجهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وحين يقال لها: هل امتلأت؟ تجيب: هل من مزيد؟

وقارئ القرآن يستشعر التوبة لأنه يقرأ أخبار وقصص التائبين وفي مقدمتهم آدم عليه السلام، فلم تقعد به الخطيئة عن التوبة والاستغفار، ولم يتجبر أو يتكبر كحال إبليس الذي كان مصيره إلى النار وبئس القرار، وسيشعر من هذا أن كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، فيتأمل في نفسه ويعقد العزم على التوبة، ويكون هذا الشهر الكريم بداية عتقه من النار، ويكون القرآن دليله إلى النجاة، وقاربه إلى بر الأمان.

---

(١) سورة السجدة: ١٧.

بل إن قارئ القرآن يجول بطرفه ويسرح بفكره في أحوال الأمم الغابرة بين الطاعة والعصيان، وبين الرجوع إلى الله والجبروت والطغيان.. ويهديه القرآن إلى نهاية هؤلاء وأولئك، ويبصره كيف كانت العاقبة ولمن كانت النهاية في كل حال، فيدعوه ذلك إلى أن يكون من حزب الله المفلحين، وينأى بنفسه أن يكون ممن أخذهم الله بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون.

إخوة الإيمان: وقارئ القرآن لا يخدعه عن التوبة طول الأمل أو نضرة الشباب، أو توفر النعم فيسوف في التوبة حتى تقترب النهاية وتكون المفاجأة ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[1].

ويهدي القرآن أصحابه كيف يتوبون وكيف يستغفرون ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[2].

أيها المسلمون توبوا إلى ربكم واستغفروه، واستفيدوا من تلاوة القرآن وشهر الصيام، ولا تتعاظموا على الله ذنبًا، فقد أذن لأهل الكفر بالمغفرة إن هم تابوا وانتهوا ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[3].

ودعا أهل التثليث وقتلة الأنبياء عليهم السلام إلى التوبة فقال ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

---

(١) سورة النساء: ١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٥، ١٣٦.

(٣) سورة الأنفال: ٣٨.

(٤) سورة المائدة: ٧٤.

وفي الحديث جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أحدنا يذنب، قال «**يكتب عليه**»، قال: ثم يستغفر منه، قال: «**يغفر له وتاب عليه**» قال: فيعود فيذنب، قال: **يكتب عليه**، قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: **يغفر له ويتاب عليه، ولا يمل الله حتى تملوا**»[١].

وقيل للحسن يرحمه الله: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه، ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا فلا تملوا من الاستغفار[٢].

ومع التوبة والاستغفار تجنبوا الموبقات، وأكثروا من الطاعات، عسى ربكم أن يرحمكم ويغفر لكم- إن في ذلك لذكرى لمن عقل شهر الصيام، وأدرك ما فيه والقرآن من أسرار ودعوة إلى الخير والإيمان، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.



---

(١) أخرجه الحاكم، توجيهات وذكرى ٢/ ٢٤٩.

(٢) السابق١/ ٢٥٠.

التوبة النصوح(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره. . .

أما بعد: إخوة الإسلام فبشراكم شهر الصيام، وهنيئًا لكم إدراك شهر القرآن. . نزف البشرى للمستبشرين، ونذكر أصحاب الهمم العالية بموسم من مواسم الخيرات للناس أجمعين، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، هلال خير وبركة، ربنا وربك الله.

أيها المسلمون أنتم تشتركون مع الشمس والقمر، والجبال والشجر، والأنعام والليل والنهار ومن في السموات والأرض كلهم. تشتركون مع هؤلاء وأولئك بالعبودية لله رب العالمين. أمر القمر بالإهلال فأهل، ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وأمرتم أنتم بالصيام والقيام في هذا الشهر الكريم فحققوا العبودية والطاعة لرب العالمين.

أمة الإسلام هذا هو الشهر الذي طالما انتظره المؤمنون، وهذا هو الضيف الذي طالما حل خفيفًا ثم ارتحل وأعين المؤمنين تذرف الدمع حزنًا لوداعه. . ولوعة لفراقه، فهل يسمع النداء من لا يزال قلبه لاهيًا منغلقًا، وهل يصدق التوبة من ظل طول العام في المعاصي والغفلة، وستر الله يظله، وعين الله تبصره، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢/ ٩/ ١٤١٤هـ.

أيها المؤمنون استقبلوا هذا الشهر بالفرح والبشرى والعزيمة الصادقة على الرشد، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم.. وليكن هذا العام خيرًا من أعوام خلت، فلعل بعضكم يدركه هذا العام ويكون في العام القابل في عداد الموتى.

كم هي نعمة أن يدرك المرء شهر الصيام وهو موفور الصحة، قوي البنية، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه وليلته، فضلًا أن يكون عنده ما يقتاته لبضع شهور- بل لبضع سنين، إنها نعمة ومغنم، ولكن لا يعقلها إلا العالمون، ولا يقدرها حق قدرها إلا الموقنون، ولا يحس بقيمتها إلا المجربون، تصور يا أخا الإسلام إخوانًا لك طالما شغلوا بمعاشهم وما يسد رمقهم، أو أشغلتهم الحروب المدمرة عن عبادة ربهم، أو أخل بطمأنينة العبادة لديهم انعدام الأمن في أرضهم وديارهم، ماذا لو كنت بجوارهم وحل بكم شهر الصيام- لا شك أنك ستتألم وتتمنى لو كنت من المصائب والأدواء سالمًا، وأنك قمت لله قانتًا- وصمت يومك لله خاشعًا شاكرًا، فاعقل ما أنت فيه من نعمة.. وتذكر ما أنت فيه من عافية، واسأل ربك دائمًا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، وكن لربك من الشاكرين، ولفرص الخير من المبادرين، وإياك إياك أن تحصد الشوك والشرور، وذلك ما اقترفت يداك وما ربك بظلام للعبيد، في وقت يحصد فيه غيرك ما لذ وطاب من الثمار، وتلك وربي هي الخسارة التي لا تعوض بثمن- ولا رجعة فيها ولا ينفع الندم.

إخوة الإسلام .. فطالما بدأت القلوب بوابل المعاصي، فطهروها بالقرآن وطالما تعفنت البطون بكثرة المطاعم والمشارب فأصلحوها بالصيام. وطالما غفلنا وفرطنا فلنعد إلى الله في شهر رمضان فأبواب السماء تفتح، ومردة الشياطين تصفد- يزين الله في هذا الشهر جنته.. وتنادي الحور أن هلموا

والثمن كثرة السجود ومداومة الذكر، ومراقبة المولى جل جلاله.. والاستغفار حين طلوع الشمس وحين غروبها في الأسحار.

وما أعز التوبة وأغلاها في كل زمان.. ولكن المرء يعان عليها في شهر الصيام، وشهر رمضان شهر التوبة والإنابة إلى الملك العلام، وإذا هممت بالتوبة يا أخا الإسلام فلتكن توبة نصوحًا تلك التي قال عنها الجليل في محكم التنزيل وهو ينادي المؤمنين أجمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[١].

أتدري أيها التائب ما التوبة النصوح؟ وما شروطها؟ وما علامتها؟

لقد ذكر العلماء عدة أقوال في التوبة النصوح أوصلها القرطبي يرحمه الله إلى ثلاثة وعشرين قولًا، أذكر لك بعضًا منها، فروي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل ﷺ: هي التي لا عودة بعدها، كما لا يعود اللبن إلى الضرع[٢].

وقال الحسن: النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره.

وقال الجنيد: التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدًا لأن من صحت توبته صار محبًا لله، ومن أحب الله نسي ما دون الله.

وقال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الخلان.

---

(١) سورة التحريم: ٨.

(٢) ورفعه بعضهم إلى النبي ﷺ والموقوف أصح، كما نقل ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٩٦).

وعن أنس ﷺ (ذي الأذنين) هو أن يكون لصاحبها دمع مسفوح، وقلب عن المعاصي جموح.

أما شروط التوبة النصوح، فقد قال سعيد بن جبير ﷺ: لا تقبل التوبة ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات.

وهل من شروط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات؟ تساءل ابن كثير- يرحمه الله- هذا التساؤل.. فقال: (وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات كما تقدم في الحديث وفي الأثر) (لا يعود منه أبدًا)، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارًا في تكفير ما تقدم، لعموم قوله ﷺ: «**التوبة تجب ما قبلها**»؟- ثم قال- وللأول- معنى عدم العودة إلى الذنب أبدًا- أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضًا «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**» (الحديث متفق عليه) فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى والله أعلم[(١)]، وعلى كل حال فمما ينبغي أن يعلم أن الندم توبة كما ورد ذلك عن المصطفى ﷺ.

وإذا لم يكن بمقدور الإنسان الخلاص من المعاصي، وكل ابن آدم خطاء.. فعليه أن يلازم التوبة وألا ييأس من المغفرة، حتى ولو كثر ذنبه.. ولو تكررت أخطاؤه.. ولو أعاد التوبة مرة ومرة، فقد أخرج البخاري ومسلم حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى[(٢)].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٧.

(٢) انظر ص٣ من خطبة المغفرة (١) ورقمها (٣٦) أو انظر الحديث نفسه جامع الأصول ٨/ ٣٩ مع الحاشية.

أخي المسلم ينبغي أن تحذر المعاصي ما ظهر منها وما بطن قدر طاقتك، فهي لا تزال بصاحبها حتى تورده المهالك.. ومع ذلك فينبغي ألا تيأس من روح الله ورحمته، وألا يصيبك الإحباط والقنوط مهما بلغت ذنوبك، شريطة أن تقبل على الله وأن تقف ببابه معترفًا مستغفرًا، وإليك قصة هذا الرجل الذي تكرر ذنبه وفي كل مرة يقف بباب الله سائلًا مستغفرًا فلم يخيب الله أمله.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى قال: «**أذنب عبدي ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربي اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: **اعمل ما شئت**».

وفي رواية بمعناه وفي الثالثة قال «**قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**» قال الحافظ في الفتح، قال القرطبي (وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله، والاعتراف أنه لا غافر للذنب سواه، ثم نقل الحافظ كذلك عن النووي قوله في الحديث: إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفًا فأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته)[1] تلك نعمة ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه.

---

(١) جامع الأصول ٨/ ٣٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين غافر الذنب وقابل التوبة شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو.

أحمده تعالى، وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأر ض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام بقي أن تعلموا علامات التوبة النصوح، فقد قال سفيان الثوري يرحمه الله: علامة التوبة النصوح أربع: القلة، والعلة، والذلة، والغربة.

وقال ذو النون: علامتها ثلاث: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، وقال شقيق: أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة، ولا ينفك من الندامة، لينجو من آفاتها بالسلامة.

وقال السقطي: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله[1].

يا أخا الإسلام وأينا معاشر البشر لا يخطئ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**) وأينا الذي ينفك عن ذنب أو عن عدد من الذنوب هو أدرى بها من غيره.. وإذا كان الأمر كذلك فإنني أدعو نفسي وأدعوكم معاشر المسلمين لتجديد التوبة مع الله في هذا الشهر الكريم، فهو فرصة للتوبة الصادقة النصوح، وهو معين على فعل الطاعات المكفرة لما

(١) انظر تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٨.

سلف من الذنوب، وأرشد نفسي وإياك إلى وسيلة من وسائل التوبة والاستغفار- علمًا بأن التوبة لا تنحصر في أسلوب واحد معين- فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله ﷻ إلا غفر له**»(١)، وقال الحافظ ابن كثير معلقًا عليه: ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة(٢).

ولا شهر أخا الإسلام أن للوضوء والصلاة أثرًا في تكفير الخطايا والسيئات، وإليك الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه مطولًا في قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه وقد جاء في الوضوء أن عمرًا قال: يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه قال: ما منكم وجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرجت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرجت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرجت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرجت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه..»(٣).

فهل يعجز أحدنا أن يصنع ذلك كلما ارتكب خطيئة.. بل ولو لم يكن له خطيئة عسى الله أن يرحمه ويغفو له.

وثمة دعاء والاستغفار يحسن التذكير به بشكل عام وحال الخطيئة وعند التوبة

---

(١) حديث حسن أخرجه الأمام أحمد وأهل السنن.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٤، والمتجر الرابح/ ٤٩٧.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٧٠، ٥٧١.

بشكل خاص، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف**»[(١)].

إخوة الإيمان ليس يخفي أن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين، فتزودوا من الصالحات في شهر تضاعف فيه الحسنات فهو سبيل لتكفير سيئاتكم وأكثروا من الصلوات وتلاوة القرآن، والذكر، والصدقات وصلة الأرحام وغيرها من القربات واحفظوا جوارحكم عن الحرام فليس الصيام إمساكًا عن المطعم والمشرب والمنكح كلا وليس لله حاجة أن يدع الإنسان طعامه وشرابه دون جدوى، بل المقصود تزكية الجوارح وحفظها وتزكية النفوس وجلب النفع لها.



(١) قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم (الأذكار للنووي/ ٣٤٩) وحاشية جامع الأصول ٤/ ٣٨٩.

من عوامل الثبات على دين الله[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه..

إخوة الإيمان .. وكما يحرص المسلم على معرفة أسباب الهداية فهو حريص كذلك بل هو أحرص على معرفة عوامل الثبات على دين الله.. ذلك لأن الثبات على دين الله حتى الممات هو ثمرة الهداية، وهو الضمان بإذن الله للحصول على الجنة والمغفرة، وما أتعس المرء وأقل حظه حين يذوق طعم الإيمان ثم هو يرتد بعد إلى حماة الكفر بالله والعياذ بالله، ولذا كانت عاقبة المرتد وخيمة ونهايته أليمة، والنبي ﷺ يقول: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[2] الحديث رواه أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وما أحوج المرء في زمان الغربة إلى التعرف على عوامل الثبات بعد معرفته لأسباب الهداية إلى الصراط المستقيم وذلك لفساد الزمان، وندرة الإخوان، وضعف المعين، وقلة الناصر، بل ولكثرة حوادث الردة والنكوص على الأعقاب.. وليس بالضرورة أن تكون الردة ردة معلنة صريحة عن الإسلام.. فإن قبول بعض أحكام الإسلام ورفض أحكام أخرى، أو الإيمان بشيء مما نزل على محمد ﷺ والعمل به، ورفض شيء آخر من دين الله هو ردة عن الدين، وهو نكوص عن الحق الذي نزل به المرسلون عليهم السلام والإسلام كل لا يتجزأ، والشريعة حق كلها وهي منظومة لا يمكن الفصل بينها.. وقد حكم الله بكفر

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٧/ ٣/ ١٤١٤هـ.

(٢) الحديث رواه أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما (صحيح الجامع ٥/ ٢٦٤).

الذين يقبلون بعضها ويرفضون بعضًا آخر، فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

إن العلمنة بكافة ألوانها وصورها- هي ردة عن دين الله.. وكيف لا يكون كذلك وهي أسلوب ماكر لتنحية الدين عن الحياة وأن العلمانيين مهما اختلفت أسماؤهم أو تباينت لغاتهم أو تباعدت ديارهم هم أولئك النفر الذين يحاولون فصل الأمة عن دينها وتاريخها، ويلبسون عليها دينها هم دعاة على أبواب جهنم.

وفي ظل هذا التشكيك الخفي في دين الله تبرز الحاجة إلى معرفة عوامل الثبات.. بل وفي ظل مغريات الحياة الدنيا واختلاط الحق بالباطل، وضعف اليقين وغلبة الدين، وندرة الصالحين تكون الحاجة أشد للوقوف على عوامل الثبات.

فإذا أضيف إلى هذه العوامل أن الهداية والثبات مردها بإذن الله إلى القلب، وهي متعلقة به، وهو من أكثر الجوارح تقلبًا، حتى قال فيه الصادق المصدوق ﷺ: «**لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القدر إذا اجتمعت غليانًا**»[٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «**إنما سُمِّيَ القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهرًا لبطن**»[٣].

إذا كان ذلك كذلك عدم مدى الحاجة إلى معرفة عوامل الثبات بعد معرفة أسباب الهداية.. وإليك أخي المسلم بعضًا من الأمور التي تعين بإذن الله على

---

(١) سورة البقرة: ٨٥.
(٢) الحديث روه أحمد والحاكم والطبراني بأسانيد ورجال أحدها ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ٢١١).
(٣) الحديث رواه أحمد.

الثبات على الحق. . أسأل الله أن يثبتني وإياكم وإخواننا المسلمين على الحق إنه جواد كريم.

١- **العامل الأول:** الاعتصام بالكتاب والسنة، والتمسك بما فيهما علمًا وعملًا، فالقرآن الكريم حبل الله المتين، والسنة النبوية مكملة للقرآن وشارحة له، تفصل ما أجمل، وتفسر ما أشكل، وهما جميعًا نور وضاء يهتدي بنورهما أولو الألباب، وما فتئ المصطفى ﷺ يدعو أمته للتمسك بهما والرجوع إليهما حتى وافاه اليقين، ومما قاله عليه الصلاة والسلام «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله**»[1].

وهكذا فكلما كان التزام الأمة بالكتاب والسنة قويًا، كان ثباتها على الحق. . وكلما هُجِرَ القرآن واندرست السنة. . كان ذلك داعيًا للانحراف وباعثًا للضلال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويندرج تحت هذا الأصل الاقتداء بسلف الأمة الصالحين الذي صحبوا محمدًا ﷺ وأخذوا منه وتربوا على يديه، وفي طليعة هؤلاء الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وعن سائر الصحابة أجمعين وفي هؤلاء جاءت وصية محمد بن عبد الله ﷺ «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور! فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[2].

أخي المسلم ومن هنا يتضح لك حاجتك في الثبات على دين الله على لزوم الكتاب والسنة وما فيهما من توجيه ولزوم سنة الخلفاء الراشدين، وهديهم. . ويتبين لك كذلك أن التمسك بالبدع المحدثة كأعياد المولد مثلًا، والتعبد

---

(١) أخرجه الإمام مالك والحاكم بسند حسن، جامع الأصول ١/ ٢٧٧.

(٢) الحديث رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح (جامع الأصول ١/ ٢٧٩).

بالخرافات الشركية كالطواف حول القبور والتوسل بالأموات ونحوها كل ذلك مما يدعو إلى الانحراف عن صراط الله المستقيم، ويبعد المرء عن الثبات على دين الله ومنهجه القويم.

٢- العامل الثاني: من عوامل الثبات استدامة الطاعة والاقتصاد فيها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)] وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[(٢)].

فهذا وعد من الله أن يحفظ ويثبت الملتزمين بالطاعة والمحافظين على فعل ما جاءت به الشريعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة إن الاستمرار على فعل الطاعات وترك المحرمات والعمل بما يوعظ به المرء أمر عزيز على النفس ويحتاج إلى مجاهدة وترويض، لكنه في النهاية عامل مهم في الثبات ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[(٤)].

قال قيادة وغير واحد من السلف: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح. وفي الآخرة في القبر[(٥)].

---

(١) سورة الأحقاف: ١٣.

(٢) سورة فصلت: ٣٠، ٣١.

(٣) سورة النساء: ٦٦.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢١.

أما الكسالى والمفرطون.. والذين يقدمون عمى الطاعة حينًا ويتهاونون فيها حينًا آخر فهؤلاء على خطر.. وهل يضمنون أنفسهم أن تخترمهم المنية في حال تفريطهم فيختم لهم بسوء الخاتمة ولا حول ولا قوة إلا بالله. فاحرص أخي المسلم على استدامة الطاعة، لأنك لا تدري متى الرحيل، واعلم أن من هدي النبي ﷺ المداومة على عمل الصالحات وإن كانت قليلة، وقال في ذلك «**أحب الأعمال إلي الله أدومها وإن قل**»[١] وبهذا نصح الأمة وأرشد الرعية، وفي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان للنبي ﷺ حصير، وكان يُحجِّره بالليل فيصلي فيه، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ يصلون بصلاته حتى كثروا، فأقبل فقالت فقال «**يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل**»[٢].

زاد في رواية و«كان آل محمد إذا عملوا عملًا أثبتوه»[٣].

٣- **العامل الثالث**: من عوامل الثبات على دين الله.. الدعاء والإلحاح على الله بالثبات، وكما أن الدعاء سبب للهداية أصلًا- فهو عامل للثبات ثانيًا وإذا كانت القلوب هي أوعية الهداية.. أو هي السبب في الغواية- فهي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، عن نعيم بن همام الغطفاني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يزيغه أزاغه، وإن شاء أن يقيمه أقامه، وكل يوم الميزان بيد الله، يرفع أقوامًا، ويضع آخرين إلى يوم القيامة**»[٤].

---

(١) متفق عليه صحيح الجامع ١/ ١٠٧.

(٢) متفق عليه صحيح الجامع ١/ ١٠٧.

(٣) انظر رواياته في جامع الأصول ١/ ٣٠٣- ٣٠٥.

(٤) الحديث رواه الطبراني ورجاله ثقات، مجمع الزوائد ٧/ ٢١١.

وثبت في الحديث الصحيح أن أكثر دعائه ﷺ «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقيل له في ذلك؟ قال: «**إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»(١). وثبت أيضًا أن أكثر أيمانه كانت: «**لا ومصرف القلوب**»(٢) فألحوا على الله بذلك معاشر المسلمين ولاسيما في أوقات الإجابة، نسأل الله ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب(٣).

أقول ما تسمعون وأستغفر الله...



(١) صحيح الجامع ٤/ ٣٦ حديث رقم ٤٦٧٧.

(٢) صحيح الجامع ٤/ ٢٣٦ حديث رقم ٤٦٧٦.

(٣) مجمع الزوائد ٧/ ٢١١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين...

العامل الرابع من عوامل الثبات.. الالتفاف حول العلماء الصالحين والدعاة الصادقين.. الذين يثبتون الناس حين الفتنة، ويؤمنونهم حين الخوف والرهبة أولئك مصابيح الدجى يحيي الله بهم قلوب العباد.. وينتشل بهم آخرين من الفساد.. ويتماسك على الطريق القويم بسببهم أمم وأقوام كادوا أن يقعوا في الهاوية، وهل نسى المسلمون دور أبي بكر رضي الله عنه في الردة أو تناسى المؤمنون موقف الإمام أحمد يوم المحنة، وهذا الإمام علي بم المديني رحمه الله يقول: أعز الله الدين بالصديق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة(١).

وتأمل ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله عنه دور شيخيه ابن تيميه يرحمه الله في تثبيتهم على الحق، إذ يقول: وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله عنا(٢).

بل وتأمل ما في قصة الإمام أحمد يوم المحنة بخلق القرآن، وكيف توافد الصالحون على الإمام أحمد يهدأونه ويثبتونه، وهو الأمام الأشم، ومع ذلك يعترف بأثر كلامهم عليه، فقد روى الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء عن أبي جعفر الأنباري قال: لما حمل أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه.

---

(١) وسير أعلام النبلاء ١١/ ٩٦.

(٢) وسائل الثبات، ص ٢٥.

فقال: يا أبا جعفر تعنيت.

فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق، وإن لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله.

ثم قال: يا أبا جعفر، أعد..

فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله.. أهـ[١].

وقال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: «صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟.

فقيل له: هذا. فقال للجمال: على رسلك.. ثم قال:

(يا هذا، ما عليك أن تقتل هاهنا، وتدخل الجنة).

ثم قال: أستودعك الله، ومضى.

فسألت عنه، فقيل لي، هذا رجل من العرب، من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يقال له: جابر بن عامر، يذكر بخير»[٢].

وفي البداية والنهاية: أن الأعرابي قال للإمام أحمد: (يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله، فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل).

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٢٤١.

قال الإمام أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عق ذلك الذي يدعونني إليه[١].

وفي رواية أن الإمام أحمد قال: (ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق). قال: (يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيدًا، وإن عشت، عشت حميدًا.. فقوي قلبي)[٢].

ويقول الإمام أحمد عن مرافقة الشاب (محمد بن نوح) الذي صمد معه في الفتنة.

ما رأيت أحدًا- على حداثة سنه، وقدر علمه- أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير.

قال لي ذات يوم: (يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يقتدى بك، قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك فاتق الله، واثبت لأمر الله.

فمات وصليت عليه ودفنته. (سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤٢).

وحتى أهل السجن الذين كان يصلي بهم الإمام أحمد وهو مقيد، قد ساهموا في تثبيته.

فقد قال الإمام أحمد مرة في الحبس: (لست أبالي بالحبس- ما هو ومنزلي إلا واحد- ولا قتلًا بالسيف وإنما أخاف فتنة السوط).

فسمعه بعض أهل الحبس فقالت: (لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي).

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٣٣٢.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٣٣٢.

فكأنه سري عنه[١].

وهكذا يكون دور الأخيار في تثبيت المسلمين، فالزموا صحبتهم واطلبوا نصحهم.

إخوة الإسلام ويبقى بعد ذلك عوامل أخرى للثبات على دين الله.. منها الذكر.. وتأمل كيف قرن الله بين الذكر والثبات في آية واحدة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٢].

ومنها عدم الاغترار بالباطل وكثرة المبطلين:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[٣]، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[٤].

ومنها استجماع الأخلاق المعروفة على الثبات وفي مقدمتها الصبر والتقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٥].

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «**وما أعطى أحدً عطاءً هو خير وأوسع من الصبر**»[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤١.

(٢) سورة الأنفال: ٤٥.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٦، ١٩٧.

(٤) سورة الرعد: ١٧.

(٥) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(٦) رواه الجماعة (انظر: جامع الأصول ١٠/ ١٣٩).

من أسباب الهداية(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وارض اللهم عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرًا.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين، واخشوا يومًا ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

إخوة الإسلام وعدتكم في الجمعة الماضية أن يكون الحديث في هذه الجمعة عن أسباب الهداية وعوامل الثبات على دين الله.

ولا شك أن الهداية إلى الصراط المستقيم هدف ينشده كل مسلم مع تفاوت الناس في جدية الطلب، وصدق العزيمة وبلوغ الهدف وإلى كل راغب في الهداية، ومتجر لأسبابها ومتطلع للجنان العالية. عاشق لحورها ومؤمل في نعيمها، ومستجير من النار، وفار من حرها وزمهريرها ومر زقومها وسائر عذابها، أسوق الأسباب والعوامل التالية للهداية إلى الله بإذن الله:

أولًا: سعة الصدر وانشراحه للإسلام وتعاليمه قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق، ١٠/ ٣/ ١٤١٤هـ.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

ومفتاح شرح للإسلام التوحيد الذي لا يخالطه أدنى شك أو شرك مع الله، وإذا كان الهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، فإن الشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وإنحراجه فحققوا التوحيد وعمقوا الإيمان- معاشر المسلمين- وإياكم والشرك أو الشك والخرافات أو البدع التي لم ينزل الله بها من سلطان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به[١].

سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس؟ قال «**أكثرهم ذكرًا للموت، وأكثرهم لما بعده استعدادًا**»، وسئل عن هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «**نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح**»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت**»[٢].

يا أخا الإسلام، وإذا كان التوحيد مفتاح الهداية، فإن عمل الصالحات والتقرب إلى الله بسائر الطاعات هي الأسنان لهذا المفتاح، ومن هنا فاحرص على أن يكون لك حظ من كل طاعة، ولك نصيب من كل قربة، فيدفع الله عنك بهذه الطاعة مصيبة أو نازلة، ويرفعك بالأخرى منزلة، ويكتب لك أجرًا وعافية، وتصير من هذه وتلك إلى انشراح في الصدر وسعة في القلب تحس من خلالهما بطعم الحياة الدنيا، قبل أن تصير إلى لذة الحياة الأخرى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٧.

(٢) الحديث ذكر عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وقال الحافظ ابن كثير: ورد من طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا، والله أعلم. (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٨).

وإياك أن تغمس نفسك في الشهوات، وتغرق قلبك بالمحرمات فتظلم الدنيا في عينيك، وتضيق بك الحياة مع سعتها على غيرك، وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ينفعه وينقذه.

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا من الأعراب من أهل البادية: ما لحرجة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه؟ كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير[١].

فحذار أخي المسلم أن تسيطر عليك الغفلة، أو أن تغريك اللذة العاجلة فتنسيك ما أمرك الله به، أو تدعوك لفعل ما نهاك عنه، وتذكر وأنت في الدنيا محادثة أهل النار واعترافهم قالوا ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ وعليك بالجمعة والجماعة.. وإطعام الطعام، وصلة الأرحام وفعل الخيرات وترك المنكرات جهدك، فإنها أسباب جالبة لشرح الصدر والهداية بإذن الله، وعكسها جالبة للضيق والشقاوة والضلال عن صراط الله.

وتأمل على سبيل المثال أثر عدم إقامة الصلاة والتهاون في اجتماع المسلمين للصلاة وكونه طريقًا لاستحواذ الشيطان، يقول الرسول ﷺ: «**ما من ثلاثة في قرية، لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية**»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٨.

(٢) حديث حسن أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما.. (صحيح الجامع ٥/ ١٦٢).

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «**ما عمل ابن آدم شيئًا أفضل من الصلاة، وإصلاح ذات البين، وخلق حسن**»(١).

ثانيًا: من أسباب الهداية والتوفيق للصراط المستقيم استدامة ذكر الله، فذكر الله على كل حال سبب جالب لارتباط القلب بالله، وعامل مهم لطمأنينة القلب وانشراح الصدر، يقول خالق هذا القلب والعالم بمكوناته وأسراره ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وهل علمت أخا الإسلام أنك على قدر ذكرك لله يذكرك الله ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ بل يزيد الله تفضلًا منه ورحمة فيذكرك أكثر «**من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**».

وهل علمت أنك حينما تتغاضى وتتكاسل عن ذكر الله يسلط الله عليك الشياطين فيكونوا هم صحبتك وقرناءك ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ والفرق كبير بين صحبة الملائكة وصحبة الشياطين، وإذا أردت أن تعلم ذلك جيدًا فتأمل هذا الحديث وتأمل أثر الذكر فيه، يقول الرسول ﷺ: «**ما من راكب يخلو في مسيره بالله وذكره إلا كان ردفه ملك، ولا يخلو بشعر ونحوه إلا كان ردفه شيطان**»(٢).

أيها المسلم والمسلمة .. يا من تبحث عن الهداية في مظانها، وترغب الجنة مهما كان ثمنها، إليك هذه الوصية من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يحدثنا عنه خاتم الأنبياء محمد ﷺ فيقول: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، قال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء،**

(١) الحديث رواه صحيح الجامع ٥/ ١٤٩.

(٢) حديث حسن رواه الطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، صحيح الجامع ٥/ ١٦٣.

وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر»[١].

وليس بخاف عليك أن مفتاح الجنة لا إله إلا الله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة.

أما الصلاة على الرسول ﷺ- وهي من الذكر- فيكفي أن تعلم قدرها من خلال قول النبي ﷺ **«من ذكرت عنده فخطئ الصلاة علي خطئ طريق الجنة»**[٢].

السبب الثالث والباعث على الهداية.. تلاوة كتاب الله، بتدبر وتمعن وخشوع وهو وإن كان من أنواع الذكر إلا أن إفراده بالذكر لعظيم أهميته ومزيد العناية به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ هكذا تأتي الآية على وجه الإطلاق والعموم فيشمل الهدي أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، وتستمر هداية القرآن إلى نهاية الوجود.

والقرآن يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، تنطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتنطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه إلا ما أبهل الغرض وأعظم الثمر (صحيح الجامع ٥/ ٣٤).

(٢) حديث صحيح رواه الطبراني عن الحسين رضي الله عنه، صحيح الجامع ٥/ ٢٩١.

تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعًا واستمتاعًا بالحياة[(١)].

أيها المسلمون. . وفي القرآن الشفاء والرحمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

وكذلك يعلم الذين أوتوا العلم هذا الأمر العظيم للقرآن ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[(٣)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[(٤)].

وأثر القرآن وتأثيره على النفوس واضح مشهود، مهما بلغت القلوب من قسوتها ومهما كانت حال المرء من الشقاوة والضلال- وهل بعد الكفر من ذنب، ومع ذلك فقد روى البخاري في صحيحه قصة أثر القرآن في قلب كافر من أكابر قريش أنه جبير بن مطعم بن عدي الذي قدم المدينة في وفد أساري بدر، فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور يقول: فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبه أن يطير[(٥)].

ومثل ذلك أو قريب منه يقال في قصة عودة الفضل إلى الله وهو اللص الذي كان يخوف المارين ويروع الآمنين وينهب المسافرين، فلما أراد الله له الهداية،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٥.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

(٣) سورة سبأ: ٦.

(٤) سورة فصلت: ٢٦.

(٥) الفتح ٨/ ٦٠٣ وكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبه (الإصابة ٢/ ٦).

كان ذات يوم يتسلق بيتًا فسمع قارئًا يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

جعلني الله وإياكم من أهل القرآن ونفعني وإياكم بما فيه من الهدى والفرقان - أقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، يضل من يشاء، ويهدي الله من ينيب، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، دعا الأمة إلى طريق الهداية حتى وافاه اليقين، اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وأرض اللهم عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام ومن أسباب الهداية التفكر في مخلوقات الله، والنظر في ملكوت السموات والأرض، ولا شك أن العاقل المتأمل في هذا الكون سيعود بعد رحلة التأمل مؤمنًا خاشعًا لله مهتديًا بهداه.. فليست الطبيعة بقادرة على هذا الخلق والإحياء.. ويستحيل أن تكون الصدفة وراء هذا الكون والوجود.. إلا أن الخلاق العليم تعترف به العقول ويهتدي إليه أولو الألباب ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] ويتحدى الخالق العظيم أن يجد الناس في خلقه عيبًا، بل تعود الأبصار بعد رحلتها في عالم الوجود خاسئة مطرقة مستسلمة لرب العالمين ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2].

ويلفت الخالق نظر الإنسان للتأمل في نفسه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ويزداد العاقل إيمانًا بخالقه وهو يرى عجائب قدرته في نفسه، فلا يملك من أمر نفسه شيئًا، وتتحرك أعضاؤه التي بين جنبيه بلا إدارة منه وتقوم بأدوارها المرادة لها

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) سورة الملك: ٣، ٤.

دون رقابة منه أو توجيه أوليس ذلك منتهى الإعجاز.. وليس ذلك ببرهان وطريق إلى الهداية والإيمان.. لمن تأمل وأراد الله له الخير والتوفيق إلى الصراط المستقيم؟

ومن أسباب الهداية رفقة الصالحين الأخيار.. واختيار الأقران.. فكم من ضال هداه الله على أيدي الصالحين الأخيار.. وكم من فاجر شاء الله له الهداية على أيدي أقرأه ما زالوا به حتى سلكوا به طريق النجاة، وإذا كان المرء في هذه الحياة لابد له من خليل، فلينظر أحدكم من يخالل، فإن المرء على دين خليله.

ومجرد محبة الصالحين وحب أفعالهم تورد المرء موارد الخير إذا صدقت نيته وتوجه قلبه: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**الرجل مع من أحب**».

وليس بخاف عليك أخي المسلم أثر الجليس الصالح وجليس السوء من خلال حديث حامل المسد ونافخ الكير، وليس بخاف عليك كذلك أن قرناء السوء في هذه الحياة يكونون يوم القيامة بعضهم لبعض عدو ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فاستعن بالله واقترب من الأخيار جهدك وجاهد نفسك وروضها على مصاحبة الأخيار، وانج بنفسك عن الأشرار وأنقذها قبل العطب.. فإن ذلك عامل مهم في الهداية إلى صراط الله.

وثمة سبب مهم للهداية.. ألا وهو الدعاء: سلاح المؤمن في الشدائد.. والقمة الكبرى بلا جهد ولا ثمن.. ومهما بذلت من أسباب الهداية فليكن الدعاء بالتوفيق والهداية للصراط المستقيم ديدنك، ولا تسأم أو تستكثر الدعاء، فتقول: دعوت ودعوت، فلم يستجب لي فتلك آفة فاحذرها، فدعاؤك محفوظ فإما أن يعطيك الله ما دعوت، أو يصرف عنك من السوء مثله، أو يدخر لك دعوتك حين تلقاه وأنت أشد حاجة إليها.

يقول الله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

ويقول الله تعالى- كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**».

والنبي ﷺ كان لا يفتر من الدعاء وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد علمنا من الدعاء كثيرًا ومنه حين القيام لصلاة الليل، فقد كان يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللهم اهدني لما اختلف من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

فألحوا على الله بالدعاء معاشر المسلمين، واحرصوا على أوقات الإجابة، أسأل الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم وأن يثبتنا عليه ما بقينا إنه جواد كريم.

أيها الإخوة وحيث علمتم أسباب الهداية فبقي أن تعلموا عوامل الثبات على دين الله.



بين تدبر القرآن وهجره[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي المصطفى صلى الله عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وسار على درب الهدى.

أما بعد: فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٢].

إخوة الإيمان ألا إن من تقوى الله تلاوة كتابه العزيز آناء الليل وأطراف النهار، وتدبر آياته، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه قال الله تعالى مثنيًا على من كان ذلك دأبه ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٣].

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال ﷺ: «**لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالًا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النار**»[٤].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٦/ ١٤١٢هـ

(٢) سورة النساء: ١٣١.

(٣) سورة آل عمران: ١١٣.

(٤) الصحيح مع الفتح ٩/ ٧٣.

والمعنى- كما قال أهل العلم- لا رخصة في الحسد، أو لا يحسن الحسد إن حسن إلا في هاتين الخصلتين[١].

أو لعل المقصود الغبطة، وهي تمني مثل ما عند الغير من غير رغبة في زوالها عنه، ولهذا بوب البخاري لهذا الحديث بقوله «باب اغتباط صاحب القرآن» ثم أردف بعد هذا الحديث حديث صاحب النية الطيبة الذي تمنى إحدى هاتين الخصلتين له مع بقائهما لأصحابهما، فوسعه فضل الله، والله واسع عليم، وقصته كما رواها البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل**»[٢].

أخي المسلم ألست تبحث عن الخير في مظانه؟ إليك هذه الهدية وإن كنت لبيًا فاحفظها واعمل بها، يقول عقبة بن عامر رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة- وهو موضع في المسجد كان فقراء المسلمين يأوون إليه، ولذا سموا بأصحاب الصفة- فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق**- وهما موضعان قرب المدينة- **فيأتي منه بناقتين كوماوين**- وهي العظيمة السنام - **في غير إثم ولا قطيعة رحم**؟ فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك، قال: **أفلا يغدو أحدكم إلى السجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين أو ثلاث خير من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**»[٣].

---

(١) ابن حجر، الفتح ٩/ ٧٣.

(٢) البخاري مع الفتح ٩/ ٧٣.

(٣) الحديث رواه مسلم ١/ ٥٥٢.

أخي المؤمن أنت طيب في معدنك، وكريم على الله لشمائلك وخلقك، لكن هل علمت أن القرآن يزيد في جمالك، ويزكي رائحتك؟ يقول الرسول ﷺ: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرآ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو**»[١].

فإن قلت: فما الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة- مثلًا-؟ فقد قيل: إن الأترجة:

١) يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية.

٢) ويستخرج من حبها دهن له منافع.

٣) وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين.

٤) وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن.

٥) وفيها أيضًا من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها.

٦) وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهة ودباغ معدة وجودة هضم- ولها منافع أخرى مذكورة في المفردات[٢].

وهل علمت- أخي السلم- أن القرآن يزيد من قدرك، ويرفع شأنك، يقول النبي ﷺ «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**».

فقد أخرج أبي داود- بإسناد صحيح- عن الأشعث بن قيس أنه قدم غلامًا صغيرًا، فعابوا عليه، فقال: ما قدمته ولكن قدمه القرآن[٣].

---

(١) الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم ١/ ٥٤٩.

(٢) نقل ذلك الحافظ بن حجر عليه رحمة الله - في الفتح ٩/ ٦٦، ٦٧.

(٣) الفتح ٩/ ٨٣.

إخوة الإيمان، يكفي أن يعلم أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، لكن ينبغي أن يعلم كذلك أنه ليس المقصود بأهل القرآن، من يقرأونه دون تمعن، أو يهذونه هذًّا كهذِّ الشعر دون تأمل لمعانيه، أو تدبر لآياته، أو التزام بأوامره وتجنب لنواهيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٣].

وكان صحابة رسول الله ﷺ ينكرون على من يهذ القرآن هذًّا كهذ الشعر أو يتكلفون في قراءته، ففي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: يا أبا عبد الرحمن كيف نقرأ هذا الحرف ألفًا تجده أم ياءً «من ماء غير آسن» أو من ماء غير ياس) قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة: فقال عبد الله: هذا كهذِّ الشعر؟ إن أقوامًا يقرأون هذا القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، سورتين في كل ركعة[٤].

وكان إمامهم محمد بن عبد الله ﷺ مثالًا حيًا و نبراسًا يحتذى في تأمله القرآن وأثره به، ويكفي أن أسوق لك خبرة مع عبد الله بن مسعود نفسه حيث

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٦٣.

قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي القرآن، قال: فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، فقرأت النساء حتى إذا بلغت:** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي، فرأيت دموعه تسيل»[(١)].

إخوة الإيمان، هذه حال أسلافنا، فما بالنا نحن نقرأ القرآن كما يقرأ أي كتاب آخر لا تراق لنا دمعة، ولا تقف لنا شعرة؟ وفي القرآن الكريم مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[(٢)].

وهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، فهو لما يفهمون من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر جلودهم خشية وخوفًا، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، وهم بذلك يختلفون عن الكفار، ومخالفون لأهل البدع الذين ربما ذهبت عقولهم وغشي عليهم بفعل الشيطان[(٣)].

ولأهمية قراءة القرآن بتدبر وتمعن جاء النهي عن كثرة قراءته إلى حد لا يفقه القارئ ما قرأ، فقال ﷺ: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**» وبإسناد صحيح آخر «**اقرأوا القرآن في سبع ولا تقرأوه في أقل من ثلاث**»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم ١/ ٥٥١.
(٢) سورة الزمر: ٢٢٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٨٥.
(٤) الفتح ٩/ ٩٦، ٩٧.

وقد ذمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من بلغها عنه خلاف ذلك، فقالت: إن رجالًا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثًا فقالت: قرأوا أو لم يقرأوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ[1].

فهل يكون لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، نقرأ القرآن بتدبر وخشوع.. نداوي به جراحنا، ونصلح به ما أعوج من أخلاقنا وسلوكياتنا، ونصون به حمانا، وندافع به عن معتقداتنا، ونربي عليه أبناءنا، ونزكي به أنفسنا، وينصح به خاصتنا عامتنا، ويكون هو الفيصل في قضايانا، وإليه المرجع والتحاكم في صغير أمورنا وعظيمها.

إن ذلك هو الأليق بنا وهو الأمر الطبيعي في حياتنا وخلافه أمر شاذ في مجتمعاتنا.

اللهم علمنا الحكمة والقرآن، وفقهنا في الإسلام، وادفع عنا غوائل مردة الإنس والجان... أقول هذا القول وأستغفر الله.



(١) الإتقان في علوم القرآن/ للسيوطي ١/ ١٣٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وآلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه.. صلى الله عليه وعلى آله وإخوانه.. وارض اللهم عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المسلمون، والمسافة بعيدة بين قراءة القرآن وتدبره والعمل، وهجره ومخالفته وعدم الاكتراث به، والفرق كبير بين من يقرآون القرآن ويعلمون به، ومن يهجرون القرآن ويلغون فيه، وحين اشتكى المصطفى ﷺ إلى ربه من الذين يهجرون القرآن أوحى الله إليه أن من قبلك من المرسلين جعلنا لهم أعداء ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[1].

وإذا كان هجر القرآن صفة مذمومة، والذين يهجرون القرآن فئة معلومة، فاتقوا الله معاشر المسلمين في القرآن، واحذروا هجره.

إخوة الإسلام، يكاد القرآن يهجر عند بعض المسلمين فيقل قراءته في المساجد إلا في رمضان، وأقل من ذلك قراءة القرآن في البيوت وتخصيص حلق نافعة تجتمع عليها الأسرة، وتكون مائدتها القرآن.

وربما فهم البعض أنه يكفيهم من القرآن أن تتلى آياته في المناسبات والاحتفالات وأن يستفتح به في البرامج والإذاعات.

والحق أن تقديمه يعني عدم التقدم عليه، والوقوف عند حدوده وأحكامه، وينبغي أن يفهم أن تقديمه رمز لإعلاء شأنه وعدم مخالفته، وأنه الحاكم الحق،

(١) سورة الفرقان: ٣٠، ٣١.

والفيصل بلغت الخلق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾(١) وهل رد الأمر إلى الله والرسول إلا رد لما ورد في القرآن إما جملة وإما تفصيلًا؟!

ومن صور هجر القرآن عدم العمل به، وربما وجدت قارئًا مكثرًا من قراءة القرآن، لكنك لو فتشت في حاله لوجدته في واد والقرآن في واد آخر، وقد قيل كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه، نعم ومصداق ذللت أن هناك من يقرأ ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - وهو يظلم- يقرأ لعنة الله على الكاذبين، وهو يكذب.

ويقرأ الوعيد الشديد في أكل الربا وهو واقع فيه، ويسمع آيات الله تتلى في تحريم شرب الخمر والزنا أو غيرهما من الفواحش، وكأن هذه الآيات لا تعنيه.

ما هكذا تكون قراءة القرآن يا عباد الله، وما نزل القرآن من أجل أن يتسلى به، أو يترنم بآياته فحسب؟

ومن صور هجر القرآن عدم الاهتمام به فلا يعلمه بنفسه ولا يتعلمه من غيره فضلًا عن أن يعلمه لمن يحتاج إليه، والنبي ﷺ يقول: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

أيها المسلمون إذا كان هذا بعض شأن هجر القرآن في عموم المسلمين، فإن هجر القرآن لدى الحكام الأمراء أو العلماء أشد وأنكى، ذلك أن هؤلاء يخولون للحكم به، وإلزام الناس بالتحاكم إليه، وسياسة الخلق على هداه، ويوم أن تفرط الأحكام عن توجيهات القرآن، أو يحكم بالقرآن في بعض الأمور ويتجاهل في أمور أخرى، أو تزاحم أحكام القرآن مواد القوانين الوضعية، أو

(١) سورة النساء: ٥٩.

الدساتير البشرية، فقل على المجتمع بل على الأمة السلام، وتلك من أعظم صور هجر القرآن.

إن الله تعالى أمرنا بالتحاكم إلى القرآن، ووصف الذين لا يحكمون به بالكفر والظلم والفسوق فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي آية أخرى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وفي آية ثالثة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

ومن حق المسلم في ديار الإسلام أن يطلب التحاكم إلى القرآن في كل أمر يهمه، أو قضية تعرض له ومن حقه كذلك أن يرفض التحاكم إلى القوانين البشرية والأنظمة المستوردة.. لكن لا ينبغي أن يكون الهوى والمصلحة هما المسير له، فأيهما وجد فيه مصلحة له انساق له ورضي به، وليس من داع أن يقال لك أخي المسلم إن حكم الله دائمًا وحكم القرآن أبدًا فيهما المصلحة للبشر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لأن تلك بدهية من البدهيات، ولأن الذي خلق أعلم بمن خلق، وهو الحكيم الحميد، فكيف والعالم اليوم عاد يشكو من الظلم والاضطهاد، وبات يتبرم من أحكام شريعة الغاب، وأضحى القادة والمفكرون في البلاد الكافرة يبحثون عن مخرج ويتلمسون المنقذ.. ولا مخرج إلا بالإسلام، ولا منقذ إلا الرحمن، فهل يعي المسلمون دورهم، ويكونون عند حسن الظن بهم، ويقدمون للعالم كله أنموذجًا للحياة السعيدة في الدنيا، وطريقًا آمنًا للوصول إلى الآخرة.

اللهم هيء للمسلمين من أمرهم رشدًا. اللهم اهدهم واهد بهم، وارحمهم وارحم بهم، هذا وصلوا على النبي... ﷺ.

---

(١) سورة المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(١) طريق المغفرة[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين كتب على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يفرح بتوبته عبده وهو غني عنه، والعبد قد يعرض وهو فقير إليه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان يتوب إلى ربه ويستغفره في اليوم أكثر من سبعين مرة.. اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وارض اللهم عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الناس اتقوا الله ربكم، وتوبوا إليه من ذنوبكم، ولا تقنطوا من رحمة الله مهما بلغت ذنوبكم، فإنه يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب.

يقول الحق تبارك وتعالى في صفات المتقين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ويقول تعالى مؤكدًا توبته ومغفرته لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدي ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٣].

ويفتح الله طريقًا إلى التوبة بالاستغفار وهو يوجه رسوله ﷺ فيقول ﴿وَلَوْ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٣/ ٥/ ١٤١٣هـ.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٣) سورة طه: ٨٢.

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

أيها المسلمون.. ومن ذا الذي لا يخطئ في هذه الحياة، والرسول ﷺ يقول «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[2].

ولا شك أن الناس متفاوتون في حجم أخطائهم على قدر إيمانهم ويقينهم بخالقهم، وعلى قدر خوفهم من العذاب أو صبرهم على الطاعات.. ومع ذلك كله فالله يفتح باب الرجاء لمن زلت به قدمه أو عثر به لسانه، أولم تطاوعه جوارحه فسبقته إلى المعاصي.

ويقول البارئ جل جلاله: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]. بل لعل الله تعالى يريد من الخلق أن يبقوا دائمًا وأبدًا على صلة به فهم يحبونه ويتبعون أمره في حال عبوديتهم وطاعتهم وإقبالهم على الخيرات وجمع الحسنات.. وهم يخشونه ويطلبون منه المغفرة في حال ضعفهم وزلتهم إذ لا نصير لهم إلا الله.. ولا مجيب لهم سواه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[4].

وهذا الحديث كان يكتمه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رغم معرفته به، ولم يتحدث به إلا حينما حضرته الوفاة وقال: «كنت كتمت عنكم حديثًا سمعته من

---

(١) سورة النساء: ٦٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٤/ ١٧١.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

(٤) الحديث رواه مسلم، انظر جامع الأصول ٨/ ٣٨.

رسول الله ﷺ وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسي» ثم ذكر نحوًا من الحديث السابق(١).

أخي المسلم وينبغي أن تحذر المعاصي ما ظهر منها وما بطن قدر طاقتك فهي لا تزال بصاحبها حتى تورده المهالك.. ومع ذلك فينبغي ألا تيأس من روح الله ورحمته، وألا يصيبك الإحباط والقنوط مهما بلغت ذنوبك، شريطة أن تقبل على الله، وأن تقف ببابه معترفًا مستغفرًا، وإليك قصة هذا الرجل الذي تكرر ذنبه، وفي كل مرة يقف بباب الله سائلًا مستغفرًا، فلم يخب أمله.. فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى قال: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة «اعمل اعمل ما شئت»(٢).

وفي رواية بمعناه وفي الثالثة قال: «**قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**» قال الحافظ في الفتح، قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى

---

(١) مسلم، جامع الأصول ٨/ ٣٨.

(٢) رواه البخاري رحمه الله ٧٠٥٧ في كتاب التوحيد، ومسلم ٨٥٧٢ في كتاب التوبة وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٨/ ٩٣.

التوبة أحسن من ابتدائها، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله، والاعتراف أنه لا غافر للذنب سواه، ثم نقل الحافظ وذلك عن النووي قوله في الحديث أن الذنوب ولو تكررت مائة مرة، بل ألفًا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته» وقوله: «**اعمل ما شئت**» معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك[١].

أيها المسلمون ما أعظم فضل الله: والمرء يمكنه بتوفيق من الله أن يخرج من ذنوبه وأن يتخفف من سيئاته، بملازمة الاستغفار، وهي كلمات يسيرة «أستغفر الله.. أستغفر الله..» أو نحوها.. ولا شك أن الذي يقولها من قلب حاضر مستشعر لمعناها.. ومعترف بمغزاها يختلف عمن يقولها بلسانه وقلبه مشغول عنها.. وهذا ديدن الذكر كله فهو يحتاج إلى حضور قلب وتعظيم للخالق.

وهناك طريق للتوبة والاستغفار حفظه لنا من رسول الله ﷺ الصحابة الأطهار الذين كانوا يعقلون ما يسمعون، ويعملون بما يعلمون.

فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني- وصدق أبو بكر- أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله ﷻ إلا غفر له**»[٢].

إخوة الإسلام.. والاستغفار دأب الصالحين، ومنهج الأنبياء والمرسلين،

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) حديث حسن أهرجه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم، تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٤، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة. (السابق ٢/ ١٠٤).

وهذا صفوة الخلق وأكرمهم على الله، والذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر في اليوم مائة مرة.. كما روى ذلك مسلم في صحيحه[١].

وقبله كان هود عليه الصلاة والسلام يقول لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾[٢].

وقبلهما قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[٣].

ألا وإن الأنبياء أعرف الخلق بالله وأخشاهم له، مع قلة أخطائهم وكثرة عبادتهم.. وقوة صلتهم بخالقهم.. ولكن من كان به أعرف كان منه أخوف.. وكلما ازداد العبد قربًا من الله زاد منه خوفًا ووجلًا. والخائفون في هذه الحياة هم الآمنون المطمئنون بعد الممات، ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية.. إلا أن سلعة الله الجنة.

وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم... نفعني الله وإياكم بهدي كتابه..



(١) الأذكار للنووي/ ٣٤٧.

(٢) سورة هود: ٥٢.

(٣) سورة نوح: ١٠- ١٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله..

أيها المسلمون.. وللاستغفار فوائد جليلة، وآثار حسنة كثيرة.. ومن آثار الاستغفار وفوائده.. قوة التعلق بالله جل جلاله، فإن الغافلين اللاهين أبعد الخلق عن الله.. وكلما كثر استغفار العبد لخالقه كان دليلًا على قربه منه وحضوره في قلبه.

وللاستغفار أثر في تفريج الهموم وإزالة الكروب، والنبي ﷺ يقول: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(١).

والذي يلازم الاستغفار لا يعد من المصرين على الذنوب، ولا شك أن الإصرار على الذنب آفة عظمى وسبب حائل دون مغفرة الله، وقد جاء في الحديث: «**ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة**»(٢).

والاستغفار سبب لمغفرة كبار الذنوب فضلًا عن صغائرها، ولابد من التنبيه للصيغة التي وردت عن النبي ﷺ، وعلى سبيل المثال يقول النبي ﷺ: «**من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه، وإن كان قد فر من الزحف**»(٣).

---

(١) الحديث رواه أبو داود وابن ماجه، وأحمد، بسند لا بأس به، الأذكار/ ٣٤٨، جامع الأصول ٤/ ٣٨٩.

(٢) حديث حسن رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٦.

(٣) رواه الحاكم قال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم، الأذكار للنووي/ ٣٤٩، جامع الأصول ٤/ ٣٨٩.

ومن صيغ الاستغفار التي ينبغي معرفتها والعمل بها «سيد الاستغفار» فافقهوا سيد الاستغفار، وتأملوا ما فيه من الأجر والمغنم وهو أثر من آثار الاستغفار، يقول ﷺ «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»(١).

والاستغفار- معاشر المسلمين- طريق الجنة، ولهذا جاء عن النبي ﷺ قوله: «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»(٢).

والاستغفار جلاء للقلوب، وقد قيل «إن للقلوب صدًا كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار»(٣) وروى البيهقي بإسناد لا بأس به «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار»(٤).

وعليك أخي المسلم ألا تستعظم ذنوبك مهما بلغت أمام مغفرة الله وعفوه، وما أجمل كلمة قالها أعرابي شوهد متعلقًا بأستار الكعبة ويقول «اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، جامع الأصول ٤/ ٣٨٨.
(٢) رواه ابن ماجه بسند جيد، الأذكار للنووي/ ٣٤٨.
(٣) المتجر الرابح/ ٤٩٦.
(٤) المتجر الرابح/ ٤٩٧.

يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين[١].

وعليك أخي المسلم ألا تتألى على أحد، وتنصب من نفسك حكمًا عليه، وتظن أن الله لا يغفر لفلان لكثرة ذنوبه، أو لا يهدي فلانًا لكثرة أخطائه ومعاصيه، فالقلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء، وباب التوبة مفتوح.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح **«أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان: وأن الله تعالى قال: «من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له وأحبطت عملك»**[٢].

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا وأنت راضٍ عنا..



(١) الأذكار للنووي/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه مسلم، جامع الأصول ٨/ ٤٠.

(٢) طريق المغفرة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله..

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين، والتمسوا الطريق لرضاه، وابحثوا عن أسباب مغفرته ورضاه، فإن رضى الله غاية القصد.. وإذا رضي الله عن عبد وفقه للخير وأرضى عنه الناس.

أيها المسلمون.. قد تقرر في الخطبة الماضية أن الخطأ من طبيعة البشر.. ولكن دواء الذنوب والأخطاء الندم والاستغفار، ولهذا ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال إبليس: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[2].

ولهذا لم يكن عبثًا أن يبحث الصحابة رضوان الله عليهم عن أسباب المغفرة، وأن يعلموا الدعاء الذي يغفر الله به الذنوب، وقد سأل أحدهم رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «**قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

بل لقد ثبت من دعاء الرسول ﷺ قوله: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي**

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ٥/ ١٤١٣هـ.

(٢) الحديث رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، المتجر الرابح ص ٤٩٦.

وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»[١].

وفوق ذلك كله فقد كان الصالحون يبحثون عن الأوقات المناسبة للاستغفار وهل علمت أخي المسلم أنسب الأوقات للاستغفار؟ تجد ذلك في كتاب الله وأنت تقرأ في صفات المتقين قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢] وتقرأ في صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[٣].

قال العلماء: وهذا يدل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[٤] أنه أخَّرهم إلى وقت السحر[٥]، وثبت من سنة رسول الله ﷺ عن جماعة من الصحابة ما يؤكد أهمية الاستغفار في الأسحار، فقد قال النبي ﷺ **«ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ فأين السائلون وأين المستغفرون.. أين أصحاب الحاجات؟ والجليل تبارك وتعالى يفتح بابه للسائلين والمستغفرين»**.

---

(١) حديث متفق على صحته، شرح السنة ٥/ ١٧٢.

(٢) سورة الذاريات: ١٧، ١٨.

(٣) سورة آل عمران: ١٦، ١٧.

(٤) سورة يوسف: ٩٨.

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨.

أجل لقد استفاد من هذه الأجواء المشمرون.. وربح البيع عند أولئك المسارعين للخيرات.. فهذا عبد الله بن عمر ﵄ كان يصلي من الليل ثم يلتفت إلى نافع ويقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال نعم: أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة.

وعن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سعت رجلًا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: رب أمرتني فأطعتك، وهذا سحر فاغفر لي. فنظرت فإذا ابن مسعود ﵁[(١)] هكذا كان المخبتون، وكذلك ينبغي أن يكون المفرطون المذنبون.

إخوة الإيمان وبالاستغفار تؤجل العقوبة ويؤخر الله العذاب ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٢)].

ومن هنا يبقى للأمة أمانان من العذاب هما بقاء الرسول ﷺ ودوام الاستغفار، فإذا ذهب بقاء الرسول ﷺ بموته بقي الاستغفار هو الأمان الوحيد من العذاب إلى يوم القيامة.

ولهذا ساق الحافظ ابن كثير- عليه رحمة الله - حديثًا رواه الترمذي عن أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «**أنزل الله علي أمانين لأمتي.. وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون.. فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة**»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨ مع ما سبق.

(٢) سورة الأنفال: ٣٣.

(٣) قال الترمذي: هذا حديث غريب، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩٠.

وبالاستغفار كذلك ينزل الله البركات من السماء وتنتشر الجنان وتكثر الأموال والأولاد، وتجري الأنهار.. وهي كلها نعم يتمناها الناس ويسعون إلى تحقيقها.. والاستغفار سبب جالب لها بإذن الله، واسمع إلى قول نوح- عليه السلام لقومه- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(١).

إخوة الإسلام وإذا كان الإسلام قد شرع الإستغفار بعد عمل الطاعات، فأول ما يبدأ به المرء بعد انتهاء الصلاة هو الاستغفار.. وهي لفتة إلى أن الطاعة قد يكون دخلها من الخلل، والتقصير ما يستدعي طلب العفو والمغفرة من الله.. ولذلك يقول المصلي بعد السلام مباشرة «**أستغفر الله- أستغفر الله**».. إذا كان هذا في شأن العبادة والطاعة، فكيف ترون الحاجة للاستغفار في حال الذنب والمعصية؟.. لا شك أن الحاجة أولى وأحرى.

أخي المسلم أحذر كل الحذر أن يُران على قلبك بالمعاصي بسبب غفلتك عن الاستغفار، وتأمل قول النبي ﷺ «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكر الله ﷻ في كتابه** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»(٢).

واعلم أن من علامات حياة القلب الندم على المعاصي والمبادرة بالتوبة والاستغفار، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ «**الندم توبة**»(٣).

---

(١) سورة نوح: ١٠- ١٢.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، شرح السنة للبغوي ٥/ ٨٩.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه بسند قوي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، شرح السنة ٥/ ٩١. وحسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتح ١٣/ ٤٧١.

ومن هنا فرَّق العارفون بين المؤمن الذي يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وبين الفاجر الذي يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه[١].

اللهم ارزقنا التوبة والاستغفار، والندم على الذنوب والآثام، ووفقنا لعمل الصالحات وتقبل منا يا عزيز يا غفار.. هذا وصلوا..



(١) شرح السنة ٥/ ٨٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله تعالى على كل حالة، وأشكره وهو الغفور لمن شاب وأناب، وأشهد ألا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أزكى الخليقة وأكثرها ذكرًا واستغفارًا اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله، وارض اللهم عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين..

أما بعد أيها المسلمون فاعلموا- رحمني الله وإياكم- أن هناك موانع لمغفرة الذنوب لابد من معرفتها والعلم بها والحذر منها.

وأول هذه الموانع الشرك بالله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[1].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب (أي ملؤها أو ما يقارب ذلك) الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»**[2].

والشرك المقصود هنا- معاشر المسلمين- لا يقتصر على عبادة الأصنام التي كان أهل الجاهلية يعبدونها كاللات والعزى ونحوها.. كما قد يفهم بعض

---

(١) سورة المائدة: ٧٢.

(٢) رواه الترمذي بسند صحيح، صحيح الترمذي ٣/ ١٧٦.

الناس وإنما يشمل كذلك عبادة القبور والاستغاثة بالأموات، ودعاءهم من دون الله وطلب المدد منهم، وهل يغيب عن البال أن أول شرك وقع في الأرض هو هذا الذي قد يظنه بعض الناس ليس شركًا فقد كان الشرك الذي وقع في قوم نوح الغلو في الصالحين، والتوسل بالأموات ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح ماتوا فعبدوهم من دون الله. .» نسأل الله السلامة من الفتن وأن يرزقنا البصيرة في ديننا لنعبد الله على هدي المرسلين.

أيها المسلمون أما المانع الآخر من حصول المغفرة فهو قتل المؤمن عمدًا، فقد روت أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «**كل ذنب عسى أن يغفره الله أو قال عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركًا، أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا**»(٢).

ولابد من العلم بأن الإصرار على الذنب- آفة ينبغي للمسلم أن يعالج نفسه منها، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣) ومن هنا فلا ينبغي أن يتحول الاستغفار إلى كلمات باللسان فقط مع البقاء والاستمرار على المعاصي، وهذا أمر نقع فيه كثيرًا. . نسأل الله أن يعيننا على تجاوزه. . وما أجمل كلمة قالها أحد السلف وكأنه يحكي واقع الكثير منا، ولابد من إدراك معناها والعمل على إزالة آثارها، فقد قال الفضيل

---

(١) سورة نوح: ٢٣.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود وأحمد وغيرهما وإسناده حسن، انظر: جامع الأصول ٨/ ٤٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٥.

بن عياض رحمه الله «الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»، ويقارب ذلك المقولة الأخرى «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير»(١).

إخوة الإيمان.. من أقوى عوامل حصول المغفرة قوة الرجاء بالله وعدم القنوط من رحمته أو اليأس من روحه- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٢).

وفي الحديث السابق (يا ابن آد م إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي) فلابد من الدعاء والرجاء.. الدعاء بصدق وضراعة.. والرجاء بخشوع وإنابة وأن تتصور أن خزائن الله ملأى لا يضيره ما أنفق وأعطى.. وما بالله بخل أو شح إذا أحسَّ من عبده التوجه الصادق والتوبة النصوح..

واقرأ بقلب خاشع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٣).

أسأل الله أن يغفر لي ولكم وأن يرزقنا التوبة النصوح، وأن يلهمنا رشدنا، ويعيننا على أنفسنا.. هذا وصلوا..



(١) الأذكار للنووي/ ٣٤٩.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

(٣) سورة الزمر: ٥٣، ٥٤.

(١) اليوم الأغر[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خص أمتنا بما لم يخص به غيرها من الأمم، وفضل ملتنا على سائر الملل، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخاتم الأنبياء وأفضلهم- اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأخيار الطيبين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله معاشر المسلمين، واشكروه على ما أولاكموه من نعم، واختصكم به من مزايا ومنن.

أيها المسلمون يغيب عن أذهان المسلمين أحيانًا ما اختصهم الله تعالى به من فضل، أو يتكاسلون في الاستفادة فيما هيأ لهم من فرص الطاعات والخيرات.. وسواء كان الداء الجهل أو الكسل فهما صوارف عن الخير، ودواؤها العلم والعمل.

وحديثي إليكم- عن يوم عظيم من أيام الله لم نوله ما يستحق من العناية والتكريم، ولم نستثمره في الطاعات والقربات، بل وربما لم نعلم خصائصه ومميزاته، ولم نلتزم أحكامه وآدابه كما ينبغي، إنه اليوم الأغر في جبين هذه الأمة.. سيد الأيام على الإطلاق هو يوم الجمعة، الذي ادخره الله لنا، وأضل عنه من قبلنا.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٤/ ١٤١٣هـ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدأ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرج البخاري ومسلم- في صحيحيهما- واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسوله الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غدًا، والنصارى بعد غد**»[(١)].

هذه الحقيقة مسجلة في كتب أهل الكتاب، ويعترف بها مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإسلام من أهل الكتاب، واستمعوا إلى هذا الحوار بين أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكعب الأحبار وتأييد عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فقد قرأ أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حديث رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط وتيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله ﷻ حاجة إلا أعطاه إياها**» قال كعب: ذلك في كل سنة يوم؟ فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة فقال: صدق رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة، ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب فقال عبد الله بن سلام: وقد علمت أية ساعة هي[(٢)].

وفي حديث آخر عن عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت ورسول الله ﷺ

---

(١) أحمد ابن حجر، الجمعة ومكانتها / ٢٢، انظر ابن القيم في زاد المعاد ١/ ٣٦٥.

(٢) الحديث رواه أبو داود وغيره بسند صحيح (زاد المعاد ١/ ٣٩٢).

جالس: إنا لنجد في كتاب الله (يعني التوراة) في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى يسأل الله ﷻ شيئًا إلا قضى الله له حاجته[1].

وهكذا معاشر المسلمين تتضافر الكتب والأخبار الصحاح على فضيلة هذا اليوم، وماذا كان وما سيكون فيه وإنه لمؤسف أن تستشعر الملائكة والدواب والشجر والحجر عظمة هذا اليوم وتخشى ما يقع فيه والإنس والجان عنه غافلون، ما بال هذه وتلك لا تستشعر عظمة هذا اليوم، ويوم الجمعة أعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى.. كل ذلك وغيره يؤكده المصطفى ﷺ في حديث أبي لبابة بن عبد المنذر ؓ عن النبي ﷺ قال: «**سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه خمس خصال، خلق الله فيه آدم وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى الله ﷻ آدم، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئًا إلا آتاه الله إياه ما لم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، ما من ملك مقرب، ولا أرض ولا رياح ولا بحر، ولا جبال ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة**»[2].

إخوة الإسلام كما أن لهذا اليوم مكانته ومنزلته في الحياة الدنيا فليوم الجمعة كذلك شأنه ومنزلة في الحياة الأخرى، وكما أن للجمعة في الحياة الدنيا أهلًا يقدرونها حق قدرها، فأهلها يوم القيامة بمنزلة سامية يطرق الناس منهم عجبًا، كما جاء في حديث أبي موسى ؓ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث يوم الجمعة زهراء منيرة لأهلها، فيحفون بها كالعروس، تهدى إلى كريمها، تضيء لهم، يمشون في ضوئها ألوانهم كالثلج بياضًا، رياحهم تسطع كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم**

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه بسند حسن انظر المصدر السابق ١/ ٣٩١.

(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه وهو حسن ١/ ٣٨٨.

الثقلان ما يطرقون تعجبًا حتى يدخلوا الجنة، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون»[١].

هذه معاشر المسلمين بعض ما ورد في فضل يوم الجمعة، هذا اليوم الذي لم يَعُدْ له وزنه الحقيقي عند كثير من المسلمين، بل ربما اعتبره بعضهم فرصة لكثرة النوم والتنوع في المآكل والمشارب لا أكثر.. وربما فهمه آخرون على أنه يوم متعة جسدية ولهو ولعب وطاب لهم أن يخرجوا فيه إلى البراري، ويتركوا الجمع والجماعات، ويا ليت هؤلاء يفقهون كلام أهل العلم في حكم السفر المباح في يوم الجمعة، إذ نصوا على أنه لا يجوز السفر بعد دخول وقتها، إلا إذا كان سيؤديها في مسجد في طريقه، وأما السفر في أول النهار وقبل دخول وقتها فمكروه، هذا حكم السفر الذي قد يكون الإنسان محتاجًا إليه، فكيف بمن يخرج من البلد في هذا الوقت لتضييع الوقت والتغيب عن الصلاة، إن التحريم والكراهية في حقه أشد[٢].

اللهم علم جاهلنا وفقه متعلمنا..



---

(١) الحديث رواه الحاكم والبيهقي وسنده صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٤٢.

(٢) الشيخ صالح الفوزان/ الخطب ١/ ٦٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأسأله المزيد من فضله، وأشهد ألا إله إلا الله في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله، وارض اللهم عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أيها المسلمون لفضل هذا اليوم يبعث الله ملائكته على أبواب المسجد بكرة ليستقبلوا المبكرين المحتسبين، ويسجلوا أعمال الراغبين، ويوزعوا الهدايا على المستحقين، ويا ويحك أخي المسلم إن فاز الناس بالشاه والبعير، وكان نصيبك الخسران المبين.. يقول ﷺ: «**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على قدر منازلهم الأول فالأول، فإذا جلس الأمام طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر، ومثل المهجر (يعني المبكر) «كمثل الذي يهدي بدنه ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كالذي يهدي الكبش ثم كالذي يهدي الدجاجة، ثم كالذي يهدي البيضة**»[1].

أيها الإخوة المسلمون التأخر في المجيء لصلاة الجمعة داء ابتليت به الأمة المسلمة، وهو في ظني يعود إلى أمرين غالبًا، الأمر الأول: القصور في معرفة منزلة هذا اليوم معرفة حقيقية، تجعل المرء يضحي في سبيل هذا اليوم وفي سبيل التبكير لصلاة الجمعة بالغالي والنفيس، وهو يستشعر عظمة الله وعظمة هذا اليوم.

أما الأمر الآخر فهو العجز والتكاسل والرغبة في الإخلاد إلى الراحة وإعطاء النفس حقوقها من المنام والمآكل والمشارب، وتلك وربي آفة صارفة عن كل

---

(١) حديث صحيح عن أبى هريرة، صحيح الجامع ١/ ٢٧٣.

خير، ولا يزالا العجز والكسل بالمرء حتى يورده المهالك.. والنفس كما قيل كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم.

ويوم أن يتوافر لك أخي المسلم علم حقيقي لا نظري بمنزلة يوم الجمعة عند الله.. ومجاهدة للنفس عن بعض شهواتها فستصل إلى منزلة تسمو بك عن الآخرين وتجد أثرها يوم العرض على رب العالمين.

إخوة الإيمان ما ظنكم لو أن السلطان أمر جنودًا يقفون على الأبواب ويوافونه بالمتقدم، ويعدونهم بالعطايا والهدايا الحسان، ويسجلون المتخلف ويعدونه بالخسارة على رؤوس الأشهاد؟ فكيف الحال إذا كان الباعث هو الجبار جل جلاله، والجنود هم الملائكة الأطهار.

إنه حري بك أخي المسلم أن تستحي من ملائكة الرحمن أن يروك متأخرًا إن تصورك لهذا الأمر في كل جمعة سيدعوك للتبكير مستقبلًا بإذن الله إن كنت ممن يعي ويتعظ ويقدر الخير ويفرق بين البدنة والبيضة، وأرجو ألا يكتبك الله مع الغافلين.. وأرجو أن يعينك الله على مواصلة السير مع الصالحين.. وألا يحشرك مع الغافلين المتكبرين.

أخا الإسلام افتح قلبك وسمعك لهذا الحديث النبوي المرغب في التبكير، واحرص على أن يكون لك منه أوفر الحظ والنصيب.

يقول ﷺ: **«من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت، ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها.. وذلك على الله يسير»**[1].

---

(١) الحديث رواه أحمد وغيره بسند صحيح، صحيح الجامع ٥/ ٣٢٥.

قال الإمام أحمد: وغسَّل بالتشديد جامع أهله، وكذلك فسره وكيع[١]. أين الراغبون في الحسنات.. وأين المسارعون إلى الخيرات.. إن ذلك جزء من فضائل يوم الجمعة.

إخوة الإسلام ويكفي من فضائل يوم الجمعة أن ما بين الجمعتين كفارة لما بينهما إذا ما اجتنبت الكبائر، وهنا يغلط بعض الناس فتراه يحافظ على الجمعة، ويتهاون فيما سواها من الصلوات ظنًّا خاطئًا منه أن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، وإيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض، لأن الرسول ﷺ إنما ذكر أن الجمعة تكفر الذنوب الصغائر دون الكبائر، حيث قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**» ولا شك أن ترك الصلوات الخمسة أو التهاون بآدائها من الكبائر.. فلا تصح الجمعة ممن هذه حاله حتى يؤدي الصلوات الخمس.

أما من يتهاون أو يترك صلاة الجمعة دون عذر فهذا جرمه كبير.. فقد أخبر النبي ﷺ أن من ترك صلاة الجمعة تهاونًا بها طبع الله على قلبه[٢].

وفي الحديث الآخر: «**من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين**»[٣] نسأل الله السلامة والعصمة من الزلل.

أيها المسلمون هناك خصائص وفضائل وأحكام أخرى للجمعة نرجئ الحديث عنها في خطبة لاحقة بإذن الله.. هذا وصلوا.

(١) زاد المعاد ١/ ٣٨٥.

(٢) صحيح صالح الفوزان خطبة الجمعة/ ٦١.

(٣) صحيح الجامع ٥/ ٢٦٨.

(٢) اليوم الأغر سننه وأحكامه(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله، وارض اللهم عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين، وارجوا اليوم الآخر، وتلمسوا أسباب النجاة في هذه الحياة، وبواعث السعادة بعد الممات، ألا وإنكم في يوم عظيم من أيام الله، سبق في الجمعة الماضية بيان شيء من فضله، ونستكمل اليوم بعضًا من خصائصه وسننه وأحكامه.

روى الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**سيد الأيام يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة**»(٢).

وهذه السيادة لهذا اليوم كان يقدرها المصطفى ﷺ حق قدرها بدءًا من فجر هذا اليوم، حيث كان يقرأ في صلاة الفجر سورتي آلم السجدة، وهل أتى على الإنسان، ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة ويسمونها سجدة الجمعة، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة قرأ سورة

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ٥/ ١٤١٣هـ.

(٢) صححه الحاكم ووافقه الذهبي زاد المعاد ١/ ٣٦٦.

أخرى فيها سجدة، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة دفعًا لتوهم الجاهلين[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق آدم، وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وأن قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا، ليست مقصودة حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت[٢].

أيها المسلمون، كان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره، وقد اختلف العلماء هل هو أفضل أم يوم عرفة على قولين[٣].

ويستحب الإكثار فيه من الصلاة على النبي ﷺ في يومه وليلته لقوله ﷺ **«أكثروا من الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة»**[٤].

كما يستحب الاغتسال في يوم الجمعة، بل قال بعض العلماء إنه أمر مؤكد جدًا، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ومن مس الذكر والقهقهة في الصلاة، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء ووجوب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير ووجوب القراءة على المأموم.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وللناس في وجوب الغسل يوم الجمعة ثلاثة

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ١/ ٣٧٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٥.

(٣) هما وجهان لأصحاب الشافعي، الزاد ١/ ٣٧٥.

(٤) أخرجه البيهقي من حديث أنس وهو حسن، المصدر السابق ١/ ٣٧٦.

أقوال: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها فيجب عليه، ومن هو مستغنى عنه فيستحب له، والثلاثة لأصحاب أحمد(١).

أما التطيب يوم الجمعة فهو أفضل من التطيب في غيره من أيام الأسبوع، والسواك فيه له مزية على السواك في غيره.

أما التبكير للجمعة فقد سبقت الإشارة إليه، لكني هنا أشير إلى المقارنة بين صلاة الجمعة وصلاة العيد، حيث قال العلماء: لما كان يوم الجمعة في الأسبوع كالعيد في العيد، وكان العيد مشتملًا على صلاة وقربان، وكان يوم الجمعة يوم صلاة، جعل الله التعجيل فيه إلى المسجد بدلًا من القربان وقائمًا مقامه، فيجتمع للرائح فيه إلى المسجد الصلاة والقربان، وهذا من حكم قوله ﷺ: «**من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة**»(٢).

وهل علمت أخي المسلم أن قربك من الله يوم القيامة على قدر رواحك للجمعة، وهل تريد أن تعلم شيئًا من حرص السلف على التبكير لصلاة الجمعة؟

ذكر البيهقي في الشعب وابن ماجه في السنن وغيرهما عن علقمة بن قيس قال: رحت مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى جمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد، ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قدر رواحهم إلى الجمعة الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع**» ثم قال: **وما رابع أربعة ببعيد**»(٣).

ومن الأمور المستحبة في يوم الجمعة قراءة سورة الكهف، فقد ورد عن

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٧.

(٢) الحديث (زاد المعاد ١/ ٣٩٩).

(٣) الحديث حسنه المنذري في الترغيب والترهيب والبوصيري في الزوائد.
انظر زاد المعاد ١/ ٤٠٩.

النبي ﷺ أنه قال قي فضل ذلك: «**من قرأ سورة الكهف في يومها سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء به يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين**»(١).

كما يستحب في هذا اليوم أن يلبس أحسن ثياب، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «**ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته**»(٢).

فإذا اجتمع لك يا أخا الإسلام غسل يوم الجمعة وسواك وتطيب ولبس أحسن الثياب ثم كملت ذلك بالمشي إلى المسجد مبكرًا وعليك السكينة، وركعت ما قدر الله لك أن تركع، وأنصت والإمام يخطب فأبشر بالخير والمثوبة من الله. وفي ذلك يقول ﷺ: «**من اغتسل يوم الجمعة واستاك ومس من طيب إن كان له، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتي المسجد ولم يتخط رقاب الناس ثم يركع ما شاء الله أن يركع، ثم أنصت إذا خرج الإمام فلم يتكلم حتى يفرغ من صلاته، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى**»(٣).

وكما يستحب أن يهتم الناس بنظافة ملابسهم وأجسادهم في كل حين، وبالأخص يوم الجمعة، فيستحب كذلك الاهتمام بالمساجد وتجميرها، وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يأمر بتجمير مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار(٤).

وهذه مسألة طالما غفل عنها كثير من الناس في وقت لا يغفلون فيه عن تجمير

---

(١) حديث صحيح أخرجه الحاكم وغيره، زاد المعاد ١/ ٣٧٧.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح ١/ ٣٨٢.

(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم، صحيح الجامع ٥/ ٢٥٢.

(٤) زاد المعاد ١/ ٣٩١.

منازلهم وأضيافهم وبيوت الله حرية ألا تنسى، وضيوفها الملائكة وخيار الصالحين.

إخوة الإسلام من أبرز خصائص وفضائل هذا اليوم أن فيه ساعة الاستجابة التي قال النبي ﷺ في شأنها: «**وإن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه، وقال بيده يقللها**»[١]، وقد اختلف أهل العلم في تحديد هذه الساعة وأرجح الأقوال رأيان يعضد كل منهما أحاديث صحيحة، وأحدهما أرجح من الآخر.

القول الأول أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، وصحة هذا القول ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي بردة بن موسى أن عبد الله بن عمر قال له: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة شيئًا؟ قال: نعم سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة**»[٢].

والقول الثاني أنها بعد العصر، وهذا- كما يقول ابن القيم- أرجح القولين وهو قول عبد الله بن سلام وأبي هريرة والإمام أحمد وخلق، وحجة هذا القول ما رواه أحمد وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر**».

وروى سعيد بن منصور في سننه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا فتذاكروا الساعة التي في يوم الجمعة فتفرقوا ولم يختلفوا إنها آخر ساعة من يوم الجمعة[٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) وهناك حديث آخر رواه ابن ماجه والترمذي يشير إلى نفس المعنى (زاد المعاد ١/ ٣٩).

(٣) زاد المعاد ١/ ٣٩١.

فإن قلت: وكيف يكون آخر ساعة من يوم الجمعة والرسول ﷺ يقول: لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي.. ومن المعلوم أن آخر ساعة من الجمعة ليست محل صلاة.. فقد أجاب الرسول ﷺ على سؤال وجهه له عبد الله بن سلام حين قال: إنها ليست ساعة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «**بلى إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لا يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة**» فهل يحتسب المسلمون هذه الساعة يروضوا أنفسهم على الجلوس في المساجد ابتغاء ما عند الله.. وإذا لم يمكنه في كل جمعة فهل يحاول ولو بعض الجمع، وإذا لم يستطع المكوث في المسجد من صلاة العصر فهل يحرص على الأقل على الذهاب إلى المسجد قبل الأذان بوقت يكفيه للدعاء والابتهال إلى الله.. إن ذلك خير من الدرهم والدينار.. بل لعله من أنفع طرق جمع الدرهم والدينار، وما عند الله خير وأبقى.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

أيها المسلمون، الصدقة في يوم الجمعة لها مزية على الصدقة في سائر الأيام، قال العلماء: والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور، وقال ابن القيم رحمه الله: وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية- عليه رحمة الله- إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره فيتصدق به في طريقه سرًا وسمعته يقول: إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ فالصدقة بين يدي مناجاته تعالى أفضل وأولى بالفضيلة[1].

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا.. ووفقنا لطاعتك وجنبنا معصيتك يا حي يا قيوم.. أقول هذا القول وأستغفر الله.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كبيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضاه، وأشهد ألا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وارض اللهم عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أيها المسلون... لابد من التفقه في دين الله، ولابد من معرفة أحكام شرع الله..

وهذه الفضائل وغيرها إنما تحصل لمن اتبع والتزم ولم يلغ ويؤذي غيره، يقول ﷺ «**يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها يلغو وهو حظه منها، ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا لله ﷻ إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكون ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدًا فهي كفارة له إلى يوم الجمعة التي يليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك أن الله يقول: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**»[1].

فكن أخي المسلم ممن يحضر إلى الجمعة بإنصات وخشوع، وتأمل واستفادة مما يقال، فذلك خير من الدعاء والتشاغل دون الخطبة.. فضلًا عن اللغو والحديثة الآخر.

ولتعلم أخي المسلم أن اللغو أو التشاغل يوم الجمعة أمره خطير وقد ورد: «**من قال لصاحبه يوم الجمعة صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له**» بل فهم بعض العلماء أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾،

---

(١) الحديث رواه أحمد وأبو داود بسند حسن، زاد المعاد ١/ ٤٣١.

يشمل الإنصات يوم الجمعة، فقد ذكر ابن كثير عن سعيد بن جبير قال: الإنصات: يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الجمعة.

ثم اعلموا معاشر المسلمين أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة مع الإمام فليضف إليها ركعة أخرى وقد تمت جمعته، ومن أدرك أقل من ركعة فقد فاتته الجمعة فيدخل مع الإمام بنية الظهر، ويصلي أربع ركعات(١) وهذه مسألة يغلط فيها كثير من الناس فليتفقهوا ذلك.

ومن حضر الجمعة فلا يجوز له أن يتخطى رقاب الناس، فقد رأى النبي ﷺ وهو على المنبر رجلًا يتخطى رقاب الناس، فقال له: «**اجلس فقد آذيت**»، ولا يجوز للإنسان أن يحجز مكانًا في المسجد ويحرم الناس منه، إلا من عرض له عارض فقام ثم عاد قريبًا فهو أحق بمكانه.

أما نافلة الجمعة قبل الصلاة فلا حدّ لها، وليس لها سنة راتبة، بل يتنفل بما شاء، أما النافلة الراتبة بعدها، فأقلها ركعتان، وأكثرها أربع(٢).

قال العلماء: إن صلى النافلة في المسجد صلى أربعًا وإن صلى في بيته صلى ركعتين هذا هو المحفوظ من سنة النبي ﷺ لراتبة الجمعة بعدها، فقد روى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند قوي أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد صلى أربعًا وإذا صلى في بيته صلى ركعتين(٣) فاعلموا واعملوا بسنة المصطفى ﷺ ترشدوا.

---

(١) الفوزان في خطبه ١/ ٦٠.

(٢) الفوزان ١/ ٦٠.

(٣) رواه أبو داود بسند قوي، زاد المعاد ١/ ٤٤٠.

إخوة الإسلام.. الله الله أن تغلبوا على هذه السنن، أو تفرطوا في هذه الواجبات، واشكروا الله إذ هيأ لكم هذا اليوم الفضيل لكي تتقربوا فيه إلى الله بالنوافل والواجبات، وجعل لهم يومًا يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، ويوم الجمعة بالنسبة لنا معاشر المسلمين يوم عبادة وهو في الأيام- كما قال أهل العلم كشهر رمضان في الشهور، وساعة الاستجابة فيه كليلة القدر في رمضان، ولهذا قيل: من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته، ومن صلح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر، وبالله التوفيق[١].

بل لقد قيل: إن جهنم تسجر كل يوم إلا يوم الجمعة، وسر ذلك والله أعلم- كما نقل ابن القيم- أنه أفضل الأيام عند الله، ويقع فيه من الطاعات والعبادات والدعوات والابتهال إلى الله سبحانه ما يمنع فيه تسجير جهنم فيه.. وقيل كذلك: إن الموتى تدنو أرواحهم من قبورهم وتوافيها في يوم الجمعة، فيعرفون زوارهم ومن يمر بهم، ومن يسلم عليهم، ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام.

فهو يوم يلتقي فيه الأحياء والأموات، فإذا قامت الساعة التقى الأولون والآخرين وأهل الأرض وأهل السماء، والرب والعبد، والعامل وعمله والمظلوم وظالمه والشمس والقمر. ولم يلتقيا قبل ذلك قط. فهو يوم التلاق ويح من يكشف سريرته في هذا اللقاء وقد أضمر من الشر والخداع ما أضمر.. ويا سعادة من يسر إذ تنشر صحائفه على الخلائق.. ذلك فضل الله يؤتيه من

(١) زاد المعاد ١/ ٣٩٨.

يشاء.. اللهم لا تحرمنا فضلك ولا تجعلنا أشقى خلقك بك.. واجعل لنا من الخير نصيبًا وافرًا، ومن الشر والعجز والكسل مانعًا وحائلًا.. اللهم تقبل منا واغفر لنا وأعنا على أنفسنا، إنك على كل شيء قدير.



فيض العشر وفضل الدعاء

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه. . .

أما بعد إخوة الإسلام فها هي أيام رمضان تسارع مؤذنة بالانصراف والرحيل، وها هي أيام العشر تحل لتكون الفرصة الأخيرة لمن فرط في أول الشهر، أو لتكون التاج الخاتم لمن أصلح ووفى فيما مضى، إخوة الإيمان العشر الأخيرة من شهر رمضان سوق عظيم يتنافس فيه العاكفون، وموسم يضيق فيه المفرطون، وامتحان تبتلى فيها الهمم، ويتميز أهل الآخرة من أهل الدنيا. . طالما تحدث الخطباء، وأطنب الوعاظ، وأفاض الناصحون بذكر فضائل هذه الليالي. . ويستجيب لهذا النداء الحاني، والموعظة المشفقة قلوب خالط الإيمان بشاشتها، وآذان أصغت للمنادي واستقر في روعها أنه لا يريد إلا الخير ليس إلا. . فسلكت هذه الفئة المستجيبة طريق المؤمنين، وانضمت إلى قافلة الركع الساجدين، واختلطت دموع أصحابها بدعائهم في جنح الظلام، وربك يسمع ويجيب، ويجزي العاملين المخلصين، وما ربك بظلام للعبيد.

أما الفئة الأخرى فتسمع النداء وكأنه لا يعنيها، وتسمع المؤمنين يتضرعون لخالقهم، وكأنه ليس لهم حاجة إلا ملء البطون والتفكير في الفروج. . ويا ليت شعري والمأساة أعظم أن هؤلاء نائمون قائمون. . فهم في عداد النائمين إذ لم يشهدوا مع المسلمين صلواتهم ودعاءهم وهم في عداد القائمين المضيعين لأوقاتهم والمزجين لفراهم بالقيل والقال والسهر الذي لا طائل من ورائه، ولا نفع يرجى من خلاله إلا من رحم الله.

فهل يتأمل الشاردون في غبنهم، وهل يعيد المفرطون الحساب مع أنفسهم ومع خالقهم، ونحن بعد في مستهل هذه العشرة التي ضمنها الله تعالى ليلة: العبادة فيها خير من العبادة في ما يزيد على ثلاثة وثمانين عامًا، وربك تعالى يقول ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وكم هي نعمة أن يتخفف المرء في هذا الشهر من الذنوب والأوزار التي لو كان لها جرم لما أطاق الإنسان حملها لثقلها، ولو كان للذنوب رائحة لزكمت الأنوف لشدة نتنها «**ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

هكذا يقول المصطفى ﷺ، والذين يحتسبون على الله قيام ليالي العشر لابد وأن يدركوا هذه الليلة، فهي في العشر الأواخر، وهي في الأوتار أحرى وآكد.

وفي الليل سواء كان في رمضان أو غيره- ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئًا من أمور الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، ولكم هو وقت النزول الإلهي، ومنه الثلث الأخير من الليل، يقول المولى جل جلاله في هذه الساعة: **هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**.. فأين أنت يا عبد الله عن هذا المورد العظيم، وإذا غلبتك نفسك في سائر العام أفلا تغلبها على الأقل في هذه الليالي والأيام.

أخوة الإيمان إذا كان قيام الليل أعظم ما يرجى وأزكى ما يقدم في هذه العشر منحة قربات حري بالمؤمن أن يتقدم بها لمولاه في هذه الليالي والأيام الفاصلة.. فذكر الله على كل حال سياج من الشيطان ودرع واق للإنسان، ويكفي أن يعلم أن مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره كمثل الحي والميت.. ويرحم الله أمواتًا رغبوا لأنفسهم الموت وهم بعد أحياء، ويرحم الله أمواتًا إذا ذكرهم الناس ذكروا الله وإن كانوا أجداثًا في قبورهم.

فليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

فلا تمت نفسك أخي المسلم بالغفلة عن ذكر الله وأنت بعد على قيد الحياة.
وبادر باغتنام هذه العشر لمزيد ذكر الله والأنس به ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ومن رحمة الله أن فضل الذكر عظيم وهو لا يكلف المرء عناءً، وبإمكان المرء أن يذكر الله قائمًا أو قاعدًا أو على جنبه. فلا يستحوذن عليكم الشيطان.

عباد الله حذار أن ينسيكم الشيطان ذكر الله والباري يقول في محكم التنزيل ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ومن الأمور المعينة على ذكر الله الاعتكاف في المساجد، وهي سنة أغفلها كثير من الناس، ومنها انقطاع عن الخلق واتصال بالخالق تعين المرء على ذكره والأنس به وحده، وفيها تفريغ للقلب من المشاغل التي طالما فرقته في أودية الدنيا وهمومها، ويخطئ بعض الناس فيظن أن الاعتكاف لازم للعشر كلها، وليس الأمر كذلك فبإمكان الإنسان أن يعتكف نصفها، أو بعضًا منها، أو يومًا أو ساعةً منها، فهل تحيي هذه السنة النبوية في مساجدنا وتشجع كبارنا وصغارنا على المسارعة في الخيرات واغتنام الأوقات؟

وليس يخفى أن الإكثار من تلاوة القرآن، والسنن النوافل والصدقات، وصلة الأرحام، والعمرة، ونحوها من القربات، تحسن في كل حال، ولها ميزتها في مثل هذه الأيام، ولا تنسوا أنكم مقبلون على إجازة، الكيس منكم من استثمرها في الطاعة، والمسكين من فرط فيها بكثرة النوم وضياع الأوقات.

أيها المسلمون وثمة عبادة يحسن التذكير بها في كل حال، وهذه الليالي والأيام بالذات ميدان للاجتهاد فيها- ألا وهي الدعاء.

إخوة الإيمان والدعاء هو سهام الليل يطلقها القانتون، وهي حبل ممدود بين السماء والأرض يقدره حق قدره عباد الله المخلصون.

هو الربح ظاهرًا بلا ثمن، وهو المغنم في الدنيا والآخرة بلا عناء، هو التجارة الرابحة يملكها الفقراء كما يملكها الأغنياء على حد سواء، يتفاوت الناس في هذه العبادة بين مقل ومستكثر، بين حاضر القلب، وشارد الذهن، بين خاشع متأمل لما يقول وبين قاس القلب لا يتأثر ولا يلين وهو طريق للفلاح في الآخرة، وهو سبب من أسباب السعادة في الدنيا بإذن الله ذلكم هو الدعاء، بل هو العبادة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢).

فالآية في بدئها تسمية الدعاء، وفي نهايتها أطلق عليه العبادة، مما يؤكد لك أهمية الدعاء، وكونه هو العبادة.

وإذا كان الله يصف الراغبين عن الدعاء بالاستكبار كما في الآية السابقة، فاعلم أخي المسلم- أن ليس شيء أكرم على الله من الدعاء، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه بسند حسن(٣)- يا أخا الإسلام أترغب أن توصف بالعجز والكسل، وهل علمت أن المقصر في الدعاء من أعجز الناس بقول الرسول ﷺ «**أعجز الناس من عجز عن الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام**»(٤).

لقد أمر الله المسلمين بالدعاء ووعدهم بالاستجابة، وهل بعد ذلك من كرم، فقال أكرم الأكرمين: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، لكنها الاستجابة

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (الأذكار/ ٣٣٣).

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) الأذكار للنووي/ ٣٣٣.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح (صحيح الجامع ١/ ٣٤٦).

المشروطة بالاستجابة لله والإيمان به، وهذا وذاك طريق الرشد وسبيل الخير ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١].

وهل علمت أخا الإسلام أن الدعاء وتعليمه يأتي في مرتبة تالية للصلاة، للداخلين في الإسلام فقد كان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات «**اللهم اغفر لي وارحمني، واهدني وعافني وارزقني**» وكان عليه الصلاة والسلام يقول في فضل هذه الدعوات: **إنها تجمع الدنيا والآخرة**[٢].

وهل علمت أن صاحب الدعاء كاسب على كل حال إذا لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، وتأمل جيدًا هذا الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا أتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**، فقال رجل من القوم: إذا نكثر (يعني من الدعاء) قال ﷺ: **الله أكثر**[٣].

وحاصل ذلك أن الداعي لا يعدم أحد ثلاثة أمور، إما أن يستجاب دعوته عاجلًا، أو تدخر له في القيامة، أو يدفع عنه من السوء مثلها.

وهذا أو ذاك لا شك فضل عظيم ومنة من الله يمتن بها على عباده الداعين، أسأل الله سبحانه وتعالي أن يتقبل منا إنه هو السميع العليم.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه. رياض الصالحين/ ٤٦٩.

(٣) يعني أكثر إحسانًا مما تسألون (الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (رياض الصالحين/ ٤٧٥). وزاد الحاكم في المستدرك: (أو يدخر له من الأجر مثلها) وصححه ووافقه الذهبي (الدعاء/ ٥).

الخطبة الثانية:

فإذا عرفت فضل الدعاء وأهميته فينبغي أن تعرف أن للدعاء آدابًا وسننًا، تخفي على كثير من الناس، ومعرفتها والعمل بها سبب في استجابة الدعاء بإذن الله.

فمن آداب الدعاء أن يبتدأ الداعي دعوته بحمد الله والثناء عليه والاعتراف بتقصير العبد وحاجته إلى الله، وقد سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال ﷺ «**لقد سألت الله تعالى بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب**».

وفي رواية: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم**»[1]. بما هو أهله وتأمل في دعاء ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له[2].

وإذا كان هذا الثناء على الله في بدء الدعاء، فمن آداب الدعاء وسننه كذلك أن نختمه بالصلاة والسلام علي الرسول ﷺ، وقد جاء في الحديث لا يزال الدعاء معلق بين السماء والأرض حتى يصلي الداعي على الرسول، فإذا صلى رُفِعَ الدعاء.

وفي صحيح الجامع «كل دعاء محجوب حتى يُصَلِّي على النبي ﷺ».

فهل تعمل بهذا الأدب في الدعاء في البدء والنهاية إن ذلك أرجى للقبول وأدعى لفتح أبواب السماء.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن (الأذكار/ ٣٣٦).

(٢) رواه الحاكم وقال، صحيح الإسناد (الأذكار/ ٣٣٨).

ومن سنن الدعاء أن يختار الداعي الأوقات الفاضلة، والأزمنة الشريفة، كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل، ووقت الأسحار، وبين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات.

وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ قال: **جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبة**[١].

ومن آداب الدعاء- بل هو من أهم الآداب- حضور القلب وخشوعه لله ومعرفة ما يدعو به، فإن الغافل اللاهي تتحرك شفتاه بالدعاء وقلبه مشتغل بأمر آخر وأنَّى لهذا الدعاء أن يصعد للسماء، والحق يرشدنا إلى هذا الأدب ويقول ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

ويصف حال طائفة من المؤمنين فيقول عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٣].

ومن آداب الدعاء وسننه بدأ يستقبل القبلة ويكون على طهارة، فذلك أقرب للقبول وإن لم يكن ذلك شرطًا لازمًا فيمكن أن يدعو المرء على كل حال وفي أي اتجاه كان- لكن إن تيسر له الاستقبال وكان على وضوء فهو أولى وأحرى.

ومن آداب الدعاء أن يعزم الداعي الدعاء، ويوقن بالإجابة، فلا يقول مثلًا: اللهم اغفر لي إن شئت، أو ارزقني إن رغبت، فإن الله لا مكره له، بل يعزم المسألة، ولا يخامره شك في الاستجابة واضعًا ذهنه أنواع الاستجابة المعملة أو الموكلة أو دفع السوء والمكروه، كلما تقدم قال سفيان بن عيينه يرحمه الله:

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن (رياض الصالحين/ ٤٧٥).

(٢) سورة الأعراف: ٥.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٠.

لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه، فإن الله تعالى أجاب شر المخلوقين إبليس إذ ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[١].

ومن آداب الدعاء عدم التكلف في الدعاء، وخفض الصوت، وتكرار الدعاء ثلاثًا والإلحاح في الدعاء، والدعاء في الرخاء إذ هو سبب لقبول الدعاء في حال الشدة والضر، وقد ورد في الحديث: «من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء»[٢].

هذه أبرز آداب الدعاء، ويبقى بعد ذلك أمر مهم وهو معرفة موانع الاستجابة للدعاء ليتجنبها. ومن أبرز أسباب عدم قبول الدعاء المطعم الحرام والملبس الحرام، ورد في ذلك خبر الأشعث الأغبر الذي لا يزال يسأل ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له الحلال يستجب الله دعاءكم.

ومن موانع الاستجابة: الاستعجال في الدعاء والتوقف عنه والرسول ﷺ يقول: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي**»[٣].

وفي رواية لمسلم قيل يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر من يستجب لي فيستخسر عند ذلك ويدع الدعاء**»[٤].

ومن موانع الاستجابة في الدعاء الاعتداء في الدعاء والزيادة عن المشروع، والله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٥] وكم من

---

(١) سورة الأعراف: ١٤.
(٢) حديث حسن رواه الترمذي، الأذكار/ ٣٣٣.
(٣) متفق عليه.
(٤) رياض الصالحين.
(٥) سورة الأعراف: ٥٥.

دعوة بلغت عنان السماء وصاحبها خاشع لا يكاد جاره يسمع به لكن قلبه مرتبط بالسماء وشفتاه وقسمات وجهه تعبر عن صدق التضرع والالتجاء وكم من داع علا صوته وأسمع من حوله.. ولكن دعوته لم تتجاوز حدود مكان الدعاء، ولم يؤذن لها باختراق الحجب، بسبب اعتداء صاحبها أو تفريطه في الذنوب والمعاصي وعدم إقباله على الله بصدق وإخلاص وتوبة نصوح.

وأخيرًا يبقى أن تعلم أخي السلم- أختي السلطة- نماذج من الدعاء، حرص النبي ﷺ على تكرارها أو أوصى أحد أصحابه بالدعاء بها، فهي عون لك بإذن الله، وهب في عداد جوامع الدعاء التي ينبغي الحرص عليها وتكرارها، ومن هذه الأدعية الجوامع: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» رواه مسلم.

وعلم أبا بكر أن يقول في الصلاة: «اللهم أني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». (متفق عليه).

قال الإمام النووي: وهذا الدعاء وأيه كان ورد في الصلاة فهو حسن نفيس صحيح فيستحب في كل موطن، وقد جاء في رواية «وفي نيتي»[١].

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» زاد مسلم في روايته قال «وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه»[٢].

---

(١) الأذكار للنووي/ ٣٣٤.
(٢) الأذكار/ ٣٣٣.

ومن الأدعية التي ينبغي الإكثار منها: يا ذا الجلال والإكرام، فقد ورد: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»[١] والمعنى الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أي الدعاء أفضل؟ قال: «**سل ربك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة**»، ثم أتاه في اليوم الثاني فسأله فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث كذلك فقال له مثل ذلك، وقال: «**فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلحت**»[٢].

ومن جوامع الدعاء ما علمه النبي ﷺ عائشة ﵂: **اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله وأعوذ بك من الشر كله.. وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار.. وأسألك خير ما سألك به عبدك ورسولك محمد ﷺ وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك... وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا**[٣].

إخوة الإسلام ومن رحمة الله بنا وسعة فضله علينا في الدعاء أنه لا يعجل بإجابة الداعي على نفسه أو ولده أو ماله بالشر في حال الضجر والغضب وضعف النفوس، وذلك لعلمه سبحانه أن ذلك غير مقصود منا، وإنما هو التفريج عن الشدة التي نجدها أحيانًا في نفوسنا، فنظن أننا نفرغها بالدعاء على أنفسنا وأموالنا وأولادنا.

وبعكس ذلك في دعائنا بالخير فهو يستعجل الإجابة لنا، ويعطينا سؤلنا أو يدخر لنا خيرًا منه في أخرانا. ولكم معاشر المسلمين فضل من الله وإحسان..

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد (الأذكار/ ٣٣٨).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، الأذكار/ ٣٣٨.

(٣) رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد وهو حديث حسن (الأذكار/ ٣٣٩).

ويأملوا في حقيقة ذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1].

ومع ذلك- إخوة الإيمان- فلا ينبغي للمسلم أن يكثر من الدعاء على نفسه أو ولده أو ماله، مهما ضجر أو غضب، فالعاقبة وخيمة كلما قال عليه الصلاة والسلام «**لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم**»[2].

قال مجاهد في تفسير هذه الآية ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه «اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم»[3].



(١) سورة يونس: ١١.

(٢) رواه البزار. تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٨.

النصر والتمكين في يوم عاشوراء[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه. .

أما بعد إخوة الإسلام فإن ثوبي الكبرياء والعظمة لله لا ينبغي لأحد من البشر مهما كان أن ينازع فيهما، قال الله تعالى في الحديث القدسي «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**»[٢] والظلم مرتعه وخيم، والمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله تلك معان وحقائق يعرضها علينا القرآن في أكثر من مشهد وغير واحد من المواقف والقصص في أخبار السابقين، ولكنها تتجلى بشكل واضح، ويزداد تكرارها في القرآن في قصة موسى عليه السلام وفرعون اللعين، بشكل ملفت للنظر لمن تمعن في قصص القرآن، فلماذا يكثر ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون في القرآن؟

وقد أجاب أهل التفسير عن ذلك بأنها من أعجب القصص، أما وجه العجب فقالوا: إن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره الله أن ربى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه الله إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة الملك والسلطان، فجاءه برسالة الله وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية والنفس الخبيثة الأبية وركب رأسه وتولى بركنه وادعى ما ليس له

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٨/ ١/ ١٤١٥هـ.

(٢) رواه مسلم وأبو داود- جامع الأصول ١٠/ ٦٣.

وتهجم على الله وعتا وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون عليهما السلام ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء ومرة بعد مرة مما يبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وصمم فرعون وملأه- قبحهم الله- على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فهل من مدكر؟ وكيف وقع الغرق؟ وما هي عاقبة الظلم والطغيان، وكيف نستفيد من قصص القرآن؟

تلك أسئلة مهمة، ومفتاح الإجابة عليها في أمثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[3].

وتأويل ذلك: أن بني إسرائيل حين خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية- ويقال: إن إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام-

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) سورة البقرة: ٥٠.

(٣) سورة يونس: ٩٠- ٩٢.

حين دخل مصر دخلها في ستة وسبعين نفسًا من ولده وولد ولده، فأنمى الله عددهم وبارك في ذريتهم[١] وكانوا بنو إسرائيل حين خرجوا قد استعاروا وكان من القبط حليًا كثيرًا (ومتاعًا وأحل الله ذلك لبني إسرائيل)[٢] فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس (وذكر الطبري أن فرعون أعلم أن موسى سرى ببني إسرائيل من أول الليل فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك، وأمات الله تلك الليلة كثيرًا من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الاتباع مشرقين[٣] ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك إنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وأدركهم فرعون لم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه بالسؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقًا لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين حتى لا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوز بنوا إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنده إلى حافته من الناحية الأخرى (وعدتهم فيما قيل ألف ألف ومئتا ألف)[٤]

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٨٩.

(٢) القرطبي ١/ ٣٨٩.

(٣) القرطبي ١/ ٣٨٩.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٨٩.

ومعهم مائة ألف أدهم (فرس) سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك فرعون هاله البحر وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيهات ولا حين مناص، نفذ القدر واستجيبت الدعوة، وجاء جبريل على فرس وديق حائل (ويقال إنه لم يكن في خيل فرعون فرس أنثى، ويقال أن جبريل جاء في صورة هامان وقال له: تقدم، ثم خاض البحر فتبعهما حصان فرعون وميكائيل يسوقهم لا يشذ منهم أحد[1] ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا. فاقتحموا كلهم عن آخرهم، فلما اجتمعوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن فارتطم عليهم، فارتطم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدۡ خَلَتۡ فِى عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2].

وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ أي أهذا الوقت تقول وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[3].

إخوة الإسلام هذا الذي حكاه الله عن فرعون في حاله ذاك من أسرار الغيب التي يعلم الله بها رسوله محمدًا ﷺ فلم يسمعها، بل ربما لم يسمعها أحد من خلقه بقي على الحياة بعد فرعون، ولكن جبريل وقد حضر الواقعة وسامع

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٣٧٧.

(٢) سورة غافر: ٨٤، ٨٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧.

الكلمة- أوحى بها بأمر الله إلى نبيه محمد ﷺ، وبلغه كذلك بغيرها مما وقع بينه وبين فرعون قي لحظاته الأخيرة، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: لما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: قال لي جبريل: **يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالًا من حال البحر (وهو الطين الأسود في قاع البحر) فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة**»[1]. تلك واحدة من أسرار القرآن، وهي معدودة في دلائل نبوته عليه السلام حتى قال الطبري «وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه الصلاة والسلام بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل قائم عليهم بنبوة محمد ﷺ»[2].

والحادثة بمجملها تؤكد نهاية الطغيان وهلاك المجرمين، ونصرة الحق ونجاة المؤمنين، وإذا كانت هذه الحقيقة بارزة في هذا المشهد والحق ينتصر على مشهد من الناس في هذه الحياة، فليس ذلك شأن القصص كله في القرآن، إذ ليس أمد النصر ينتهي في هذه الحياة: وليس معنى النصر مقصورًا على النصر المحسوس للناس، فقد ينال النصر فرد أو مجموعة من الصادقين وإن خيل للناس أنهم قد استضعفوا أو أهينوا أو غلبوا في هذه الحياة الدنيا أجل لقد انتصر الخليل عليه السلام على الطغاة وإن قذف في النار، وانتصر أصحاب الأخدود وإن حفرت لهم الأخاديد وأحرقوا، وانتصر الغلام المؤمن وإن كانت روحه قد أزهقت على ملأ الناس الذين لم يتمالكوا أنفسهم وقالوا آمنا برب الغلام.

وهكذا يبدو النصر أشمل من صورته الظاهرة المحسوسة، وينبغي أن يعلم الناس أن الثبات على المبدأ الحق حتى الممات نصر، وأن نصر المبادئ والقيم

(١) قال الترمذي: حديث حسن (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٧).

(٢) انظر تفسير القرطبي ١/ ٣٩٣.

نجاح ونصر، وينبغي ألا يصاب الناس بالإحباط إذا لم يشهدوا نصر الحق وأهله في هذه الحياة الدنيا، فليست هذه الدار نهاية المطاف، بل وليست أعمارهم هم مستغرقة لكل هذه الحياة الدنيا وقد يشهد أبناؤهم أو أحفادهم النصر الذي بذرت بذوره الأولى في عهد آبائهم وأجدادهم، ولهذا أوحى الله إلى نبيه ﷺ فيما أوحى ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾(١)، وأوحى إليه أيضًا ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾(٢).

كل ذلك حتى لا يستعجل النصر ولا يتعلق به أكثر وتعلقه بتهيئة أسبابه والصبر على متطلباته.

تلك قيمة كبرى من قيم القرآن، وعبرة عظمى من عبر التاريخ لابد من وعيها. ولله الأمر من قبل ومن بعد ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



(١) سورة يونس: ٤٦.

(٢) سورة الزخرف: ٤١، ٤٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الواحد القهار، ذي الجبروت والسلطان، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام ثمة درس ثالث وقيمة كبرى نستفيدها من قصص القرآن ألا وهي الحفاظ على النصر، ومضاعفة الشكر حين تتضاعف النعم، وكما يمتحن الله بالضعف والذلة والهزيمة والمطاردة يمتحن بذلك بالقوة والعزة والنصر والتمكين، فمن الناس من يصبر حال الضعف والقلة، ولا يشكر في حال القوة والكثرة، والمؤمنون الصادقون هم الذين يصبرون في الضراء ويشكرون في السراء قال عليه الصلاة والسلام «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له**» رواه مسلم.

ووصف الله عباده الذين يستحقون التمكين في الأرض ويستحقون النصر بقوله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

وتعالوا بنا إخوة الإيمان لنقرأ على عجل شيئًا من تاريخ هذه الأمة التي نصرت ورأت من آيات الله الباهرات ما رأت، هل قدرت هذا النصر وأورثها التقى والهدى واتباع المرسلين، أم زاغت وحرفت وبدلت وآذت المرسلين؟.

---

(١) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

إن تاريخ بني إسرائيل شهد من المعجزات على يدي موسى عليه السلام ما لم تشهده أمة من الأمم قبلهم، وشهد في الوقت نفسه من الحيل والصدود والإيذاء لموسى عليه السلام ما يجل عن الوصف، وحذرت هذه الأمة أن تسلك مسلكهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[1].

وإليكم طرفًا من سيرتهم: ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عباد أن بني إسرائيل قالت: وما مات فرعون وما كان ليموت أبدًا، فلما أن سمع الله تكذيبهم بنبيه عليه السلام رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل، فلما اطمأنوا وبعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا في النعمة رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة- حتى زجرهم موسى وقال: أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضلكم على العالمين- أي عالمي زمانه- ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون، وكانت الأرض المقدسة في أيدي الجبارين قد غلبوا عليها، فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال، فقالوا: أتريد أن تجعلنا لحمة للجبارين، فلو أنك تركتنا في يد فرعون لكان خيرًا لنا فدعا عليهم وسماهم فاسقين.. فبقوا في التيه أربعين سنة عقوبة لهم، ثم رحمهم فمن عليهم بالسلوى والغمام.

ثم سار موسى عليه السلام إلى طور سيناء ليجيئهم بالتوراة فاتخذوا العجل، ثم قيل لهم: قد وصلتم إلى بيت المقدس فادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، فبدلوا وأنزل الله بهم وأنزل كما في القرآن الكريم، وكان موسى عليه السلام شديد الحياء

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٩.

ستيرًا وكانوا هم يغتسلون عراة يرى بعضهم عورة بعض، فقالوا: ما استتر إلا أنه آدر أي من عيب خلقي في خصيته- حتى كشف الله لهم الحقيقة حينما ذهب الحجر بثوبه فأبصروه لا عيب فيه، ولما مات هارون قالوا: أنت قتلته وحسدته حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه.. إلى غير ذلك من مواقفهم المشينة حتى بلغ بهم الأمر أن بدلوا التوراة، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم ما لم يأذن به الله، واشتروا به عرضًا من الدنيا، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم، فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم[1].

أجل لقد شاء الله أن تكون هذه الأمة نموذجًا لمن بغى وتجبر وأعرض وأنكل بعد أن أبصر من آيات الله ما أبصر فأحل الله بهم بأسه ومسخهم قردة وخنازير وألحقهم بمن سلفهم، وكذلك تعمى القلوب وتصم الآذان عن رؤية الحق وسماع الهدى لدى القوم الفاسقين الغافلين، وصدق الله ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

إخوة الإيمان هذه الملحمة الكبرى وهذا النصر المبين لحزب الله المؤمنين والغرق والهلاك للطغاة والمفسدين وقع كله في العاشر من هذا الشهر شهر الله المحرم، وعليه فيوم عاشوراء يوم من أيام الإيمان، ومناسبة تستحق الشكر والعرفان- بما شرع الله لا بما يهوى البشر، لا بما يتوارثه أصحاب النحل والملل والأهواء الفاسدة.

وقد قدر المؤمنون على مدار التاريخ هذا اليوم وعظموه وكانت اليهود يصومون ويقولون: إن موسى عليه السلام صامه شكرًا لله، فصامه الرسول ﷺ وقال:

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) سورة يونس: ١٠١.

«**نحن أحق بموسى منكم**»، بل كانت العرب في جاهليتها تصوم ذلك اليوم وتعظمه وتكسو فيه الكعبة[١]، وأمر النبي ﷺ بمخالفة اليهود وصيام التاسع مع العاشر فقال: «**إن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع**» (يعني مع العاشر)[٢].

وصيام التاسع مع العاشر هو أصح ما جاء، وعليه أكثر الأحاديث، أما حديث «**صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده**» فالمرفوع منه للنبي ﷺ ضعيف، والموقوف على ابن عباس رضي الله عنهما صحيح[٣] وكذلك حديث «**صوموا يومًا قبله ويومًا بعده**»[٤].

وإن كان ابن القيم ذكر مراتب صيامه فقال: «أكملها أن يقام قبله يوم وبعده يوم، ويلي ذلك أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث، ويلي ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم»[٥].

معاشر المسلمين قدروا هذا اليوم وصوموه قربة لله وشكرًا، واحتسابًا للمغفرة والمثوبة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**صوم عاشوراء يكفر سنة ماضية**» واسألوا الله النصر للإسلام والمسلمين. فالذي قدر النصر للسابقين قادر على إنزال النصر على اللاحقين.



---

(١) زاد المعاد ٢/ ٧٠.

(٢) رواه مسلم/ ١١٣٤.

(٣) زاد المعاد ٢/ ٦٩.

(٤) أخرجه البيهقي وسنده ضعيف (زاد المعاد ٢/ ٧٦ الحاشية).

(٥) زاد المعاد ٢/ ٧٦.

ليث الإسلام والبطل الهمام[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا..

أما بعد إخوة الإسلام فلا تزال صفحات مشرقة من تاريخنا تحتاج إلى جلاء وبيان.. وتحتاج إلى وقفات متأملة غايتها العظة والاعتبار، ولا يزال عدد من ملوك الإسلام وخلفائه وسلاطينه أو قادته ورجاله العظام يكتنف شخصياتهم الغموض عند أبناء الإسلام للجهل بسيرهم وعدم معرفة أحوالهم أو تقدير جدهم وجهادهم في سبيل هذا الدين، والدفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين.

وما أروع قراءة الصحيح من تاريخ المسلمين! وما أجمل التأمل في ملاحمهم! فهي من جانب تؤنس الفرد وتسري عنه، وتخفف جزءًا من همومه إن قدر له العيش في فترة يستذل فيها المسلمون، ويتصدر القيادة غيرهم من اليهود والنصارى أو سواهم من الكفرة والملحدين، وهي من جانب آخر تشعره بأن تاريخه لا يبدأ من تاريخ ولادته، وينتهي بوفاته، وإنما يمتد تاريخه في غابر السنين وعبر القرون.. لكن هذه القرون حافلة بالنصر والهزيمة والعزة والذلة، والاجتماع والفرقة، والقوة والضعف وهو في تأمله يرصد أسباب النصر والتمكين، ويقف على أسباب الهزيمة والضعف للمسلمين، فلا تعد الأحداث في أي عصر تفاجأه، ولا تعد الأوضاع في أي مصر تخرج عن إطار نظرته وتقويمه، فهناك سنن كونية ثابتة يستدل بها، وهناك قواعد كلية يحتكم إليها.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٧/ ٥/ ١٤١٤هـ.

وبكل حال فقراءة التاريخ يزود القارئ برصيد كبير من التجارب، ويضيف إلى معارفه عددًا من المعارف إن شاء في دنياه وإن شاء في دنياه وأخراه. وهذا هو المهم فالإنسان في هذه الحياة يحتاج إلى من يدفع مسيرته إلى الله، ويحتاج إلى نماذج عملية شقت طريقها في الحياة، ورسمت له معالم الطريق علمًا وعملًا، وجهادًا وتربية، وإخلاصًا ومتابعة، وبذلك تقطع وساوس الشيطان، ويتخلص الفرد من ضعف الهمة والتردد في عمل الخير، ويضمر شعوره بالوحدة في الميدان.

وإذا كنت أسلفت الحديث عن صلاح الدين الأيوبي وجهاده يرحمه الله، فحديث اليوم عن نموذج آخر لا يقل عن صلاح الدين، بل ربما فاقه في بعض الجوانب، على الرغم من جهل بعض المسلمين بسيرته، وعدم وضوح جوانب من شخصيته عند آخرين. إنه الملك العادل ليث الإسلام نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ترتبط أسرته بدولة السلاجقة العظام، فهو من نسل الأتابكة لهذه الدولة السلجوقية، وتعني كلمة الأتابكة: مربي الأمير، وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك، الذين ترعرعوا في كنفهم، وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي (المربي) ليعاونه في الحكم ويسدي إليه النصح.. وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتابك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عهد إليهم بالحكم فيها[١].

ومن هذه السلالة الأتابكية التركية خرج نور الدين محمود ومع أنه لم يكن من أصحاب الملك الأصليين، ولم يك من ذوي النسب المرموقين، فقد فاق غيره من أصحاب النسب والحسب، وحقق لأمة الإسلام وأبناء المسلمين ما تجاوز

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي.. لحسن إبراهيم حسن ٤/ ٦١.

خيال الواصفين، وإليك شيئًا من سيرته التي يجتمع فيها العلم والإيمان، ويتوفر فيها الشجاعة والإقدام، وهي نموذج للعبادة والزهد والعدل بين بني الإنسان، وهو من ذوي العفة لليد واللسان، وليس من أرباب شهوات البطن والفرج بلا رادع أو ميزان، كتب في سيرته أهل التاريخ وأصحاب التراجم، لكن ابن الأثير قدم لسيرته بالقول: (وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيهم بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريًا منه للعدل)[١].

وهذا إن وجد فيه مبالغة من ابن الأثير يرحمه الله- فهو يدلك على قدر هذا الملك وعظيم منزلته وعلو مناقبه.

ثم تحدث عن زهده وعبادته وعلمه فقال: كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف في الذي يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له ومنها يحصل له في السنة نحو عشرين دينارًا فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم ولا أخوض نار جهنم لأجلك. وكان يصلي كثيرًا بالليل وله فيه أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب في المحراب[٢]

وذكر ابن كثير في ترجمته لنور الدين أن الزهد والعفاف بلغ به إلى حد استفتى معه العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئًا ولو مات جوعا[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٣.
(٢) الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٠٤.
(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٥.

بل بلغ في عبادته وذله لربه وخشوعه بين يديه ما حكاه سبط ابن الجوزي قال: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج (النصارى) لما نزلت على (دمياط) ما زال نور الدين عشرين يومًا يصوم ولا يفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف. وكان مهيبًا ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك، فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيي بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط، فقلت: يا رسول الله! ربما لا يصدقني، فقال: قل له: بعلامة يوم حارم. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى تحدثني أو أحدثك؟ فارتعد يحيى وخرس فقال نور الدين: أنا أحدثك، رأيت النبي ﷺ هذه الليلة وقال لك كذا وكذا، قال: نعم، فبالله يا مولانا ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال نور الدين: لما التقينا بالعدو خفت على الإسلام، فانفردت ونزلت ومرغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي: من محمود في البين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم أفعل ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم(١).

إخوة الإسلام كان ليث الإسلام والبطل الهمام نور الدين محمود صادقًا مع نفسه ومع ربه، لا يأكل الحرام ولا يشربه ولا يلبسه ولا غرابة أن تستجاب له الدعوة، بل ورد في سيرته أنه يأكل من كسب يده، وكانت له عجائز فكان يخيط الكوافي، ويعمل السكاكر فيبعنها له سرًا ويفطر على ثمنها(٢).

وخلاصة القول فهو كما قال الذهبي: كان دينًا نقيًا لا يري بذل الأموال إلا في نفع، وما للشعراء عنده نفاق، وقد اصطبغت رعيته بصبغته كما قال الشاعر:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٨.

(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٥٣٧.

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا　　له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة　　من المعاصي وفيها الجوع والعطش[(١)]

أيها المسلمون وهل يمكن أن يكون هذا الزهد والعفاف والتقى والدين وتلك العبادة والإنابة لرجل خلو من العلم أو بعيد عن العلماء؟ كلا. وإليكم شيئًا من حرصه على العلم وإكرامه للعلماء.

فقد نقل ابن الأثير عنه أنه كان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث وأسمعه طلبًا للأجر.. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم، ويجلس معهم وينبسط ولا يرد لهم قولًا، ويكاتبهم بخط يده[(٢)].

وذكر ابن كثير أنه كانت له هيبة، ولذلك كان أكابر رجاله يقفون بين يديه، ولا يجلسون إلا بإذنه سوى نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين الأيوبي) ومع هذا كان إذا دخل أحد الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا مستكثرًا يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما نعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقوقهم فلهم المنة علينا.

بل نقل ابن كثير لنا أكثر من هذا في سبيل إكرام هذا الملك العادل والمجاهد الصادق للعلماء، ومنعه العامة أن تنالهم بسوء أو أذى حتى ولو وقع ذلك من كبار الأمراء، وإليك هذه الحادثة فاعقلها، واعلم ما فيها من الحكمة والأدب، فقد نال بعض الأمراء مرة عنده من الفقهاء وهو قطب الدين النيسابوري- فقال له

---

(١) السابق ٢٠/ ٥٣٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٠٤، ٤٠٥.

نور الدين: ويحك إن كان ما تقول حقًّا فله من الحسنات الكثيرة الماحية كذلك ما ليس عندك، مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت، إن كنت صادقًا، على أني والله لا أصدقك، وإن عدت ذكرته أو أحدًا غيره عندي بسوء لأوذينك، فكف عنه ولم يذكره بعد ذلك[1].

إنه الدفاع الواعي عن أعراض العلماء، ينبغي على كل أحد، ولكن يطيب ويحسن إذا صدر من الولاة والأمراء للصادقين من العلماء.



(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٩٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين واهب النعم ومحل النقم، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآله، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام ولا تكاد تنقضي عجائب هذا الملك العادل، أو تحصر مناقبه وسأكتفي بالوقوف عند منقبتين من مناقبه- غير ما سلف- هما: العدل والجهاد، إذ هو كما وصفه الإمام الذهبي: حامل رايتي العدل والجهاد، قل أن ترى العيون مثله، حاصر دمشق تم تملكها وبقي بها عشرين سنة.. وكان بطلًا شجاعًا وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرض للشهادة، سمعه كاتبه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير..

قال ابن واصل- كما نقل الذهبي- كان من أقوى الناس قلبًا وبدنًا لم ير على ظهر فرس أحد أشد منه، كأنما خلق عليه لا يتحرك وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها.

قال الذهبي: قد أدركها على فراشه وعلى ألسنة الناس (وهم يقولون) نور الدين الشهيد[1].

وإليك أخي المسلم هذا الحوار المعبر عن شجاعته وبذله لنفسه في سبيل الله، فقد قال له يومًا قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٢، ٥٣٧.

بنفسك، فإنك لو قتلت قتل جميع من معك، وأخذت البلاد، وفسد حال المسلمين. فقال له: اسكت يا قطب الدين فإن قولك إساءة أدب على الله، ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود؟ قال: فبكى من كان حاضرًا رحمه الله[(١)].

إذا كان ذلك كذلك فلا غرابة أن يفتح القلاع ويدك الحصون، حتى فتح الله على يديه وانتزع من الكفار نيفًا وخمسين مدينة وحصنًا[(٢)] وينشر الله رعبه في قلوب الأعداء، فضلًا عن هيبة الصلحاء، حتى أن بعض المسلمين حينما دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام كانت القدس مع الفرنج سمعوا الفرنج وهم يقولون: إن القسيم ابن القسيم- يعنون نور الدين- له مع الله سر، فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله، ويدعو فيستجيب له ويعطيه سؤله، فيظفر علينا، قال: فهذا كلام الكفار في حقه[(٣)].

أيها الإخوة المسلمون.. أما عدل نور الدين محمود- يرحمه الله- فهو مثار الوصف، ومحل الإعجاب، فهو أول من ابتنى دارًا للعدل- كما نقل ابن الأثير وابن كثير- وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات وقيل خمس، ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجبه ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه فيكشف المظالم وينصف المظلوم.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣.

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٠.

وبلغ من عدله أن رأى يومًا رجلًا يحدث آخر ويومئ إلى نور الدين، فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه؟ فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقًا يريد أن يحاكمه عند القاضي، فلما رجع الحاجب وأعلم نور الدين ألقى ما بيده وأقبل مع خصمه ماشيًا إلى القاضي الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له: لا تعاملني إلا معاملة الخصوم. ثم وقف مع خصمه أمام القاضي حتى انفصلت الخصومة ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال للسلطان: إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا شجنكية لرسول الله ﷺ ولشرعه، فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه، فما أمر به امتثلناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وأنا أعلم أنه لا حق للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم أني قد ملكته ذلك الذي ادعى به، ووهبته له[1].

لا غرابة بعد ذلك أن تتعلق الرعية به، ويطير صيته في الآفاق، كيف لا وقد أكثر من أعمال البر والإحسان إلى الناس، فعمر المساجد، وبنى المدارس، وأقام المستشفيات، وأسقط عنهم المكوس والضرائب، وما أبقى سوى الجزية والخراج والعشر، وكتب بذلك إلى جميع ولاته في البلاد، فكتبت له أكثر من ألف منشور. كما نقل ذلك العماد في البرق الشامي[2].

بل نقل الحافظ ابن كثير أنه كتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال: أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم، وأمر الوعاظ أن يستحلوا به من التجار[3].

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٦.

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨.

إخوة الإسلام بهذه النوعية من الرجال تُرسى دعائم الملك، وبهذه السياسة الحكيمة تصلح الرعية، وبهذه الهمم العالية والدعوات الصادقة ينتصر المسلمون ويذل الكفرة والمنافقون. . والله غالب على أمره وله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الحليم الخبير.

اللهم هيء للمسلمين قادةً صالحين أمثال نور الدين وصلاح الدين واجعل المهابة للمسلمين في صدور الكافرين وأذهب ما حل بالمسلمين من ذل وهوان يا رب العالمين.



لماذا يتأخر النصر؟[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين تكفل بإظهار هذا الدين، ووعد بنصرة المؤمنين، فقال في كتابه المبين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له اقتضت حكمته أن يديل الإسلام والمسلمين تارة، ويديل الكفر والكافين تارةً أخرى، وصدق الله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله عاش فترة من حياته والمسلمون معه في مكة ظروف المحنة وشدة الابتلاء حتى جاء الله بالنصر والفتح المبين، وعاد المحاربون له مسالمين مؤمنين، بل وفي عداد الغزاة الفاتحين.

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/ ٧/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة الصف: ٩.

(٣) سورة الروم: ٤٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٠، ١٤١.

أيها المسلمون. . . يتكرر في فترات من التاريخ لمن تأمل انسياح الإسلام في الأرض وغلبة المسلمين، أو انحسار مدِّ الإسلام وهيمنة غير المسلمين، وإذا كانت أكثرية المسلمين تلتزم بالإسلام في حالة غلبته، فإن القلة من المسلمين من يتمالك نفسه ويلتزم بمقتضيات العقيدة والدين ويصبر على اللأواء والمحن في حال غلبة أعداء الدين، إذ من الناس من يصاب بالهلع وفقدان الثقة بنصرة هذا الدين، ويصاب آخرون بالإحباط واليأس والقنوط من رحمة الله، والتسخط لأقدار الله، وتلك أدواء قاتلة وهي منافية لحقيقة التوحيد من الصبر واليقين والتقوى والتوكل على رب العالمين.

إخوة الإيمان وهذا الشعور قديم وهذه الفتنة غير مستحدثة، وهذا الهاجس تحدث عنه العلماء السابقون، وذلك حين أصيبت الأمة، وكاد اليأس يلف بعض المنتسبين للإسلام، يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله، (وهنا نكتةٌ نافعة، وهي أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيبُ كثيرًا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب، وما يصيب كثيرًا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلًا، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1] وهو ممن يُصدِّق بالقرآن حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين. . . الخ[2].

---

(١) سورة الصافات: ١٧٣.

(٢) كلام الشيخ وإجابته السديدة على هذه المشاعر الخاطئة والهواجس الفاسدة، فليراجعه =

وهذا تلميذه الشيخُ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، يعرض أمام ناظريك أيها المسلم الحكمة من وراء تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان فيقول: «وكان في تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصالُ أولياء الله إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبةُ صادقةً إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل له روحه كان ذلك أعلى درجات المحبة، ومن المعلوم أن من لوازم ذلك... أن يخلق ذواتًا وأسبابًا وأعمالًا وأخلاقًا وطبائع تقتضي معاداة من يحبه... إلى أن يقول: فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه، والعطاء له والمنع له[1].

أيها المؤمنون نستبطئ النصر أحيانًا ونحن بعد لم نقدم للنصر ثمنًا، ونستعجل النصر وقد لا يكون حان وقته بعد، ونتطلع إلى تغير مفاجئ في العالم ونحن بعد لم نغير ما بأنفسنا. وبالجملة فهناك معوقات للنصر وأسباب لتأخره، يعرفها العلماء ويجهلها البسطاء، وأسوق لكم طرفًا منها استجمعها صاحب الظلال- يرحمه الله- فاعقلوها وقارنوا واقع المسلمين بها، يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: (والنصر قد يبطئ لأن بنية الأمة المؤمنة لم ينضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى

= من شاء في: جامع الرسائل، الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة) (عن: متى نصر الله، الجليل ص ٥٦- ٧٤).

(١) إلى آخر كلامه النفيس في طريق الهجرتين ص ٢١٤، ٢١٥. طبعة قطر.

المذخور فيها من قوة واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا لعدم قدرتها على حمايته طويلًا..

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا، إلا وتبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله..

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار، فيظل الصراع قائمًا حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر لاستبقائه. «من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية، وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفائه أسبابه، وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه».

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندًا إلا الله ولا متوجهًا إلا إليه وحده في الضراء.. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو

تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئًا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول الله ﷺ: «الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى فأيها في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[١].

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحص خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرةٌ من خير تذهب في الغمار..

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية)[٢].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) متفق عليه.

(٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٩.

(٣) سورة الرعد: ١١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمام المتقين اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد إخوة الإسلام فينبغي ألا يخامر المسلم شك بنصرة الله لهذا الدين، حتى وإن لم يره بأم عينه وتحقق لأجيال بعده، فحسبه أن يكون جنديًا صادقًا في سبيل خدمة هذا الدين، وحسبه أن يموت يوم يموت، وهو يحسن الظن بربه ويستشعر بمسئوليته تجاه دينه، قد حرر عبوديته لله...

أما النصر فلابد من اكتمال أسبابه وزال معوقاته، والله يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، ووعده حق، ونصره قريب، وأمره بين الكاف والنون... ولكن ثمة أدواء يتلبس بها المسلمون وهم يستشرفون النصر، ونصر الله عزيز لا بد فيه من تمحيص الصفوف، ولابد من تمييز الخبيث من الطيب، لابد من سقوطٍ لأصحاب المطامع والأهواء، ولابد من تجريد للصفوة المختارة التي يحبها الله وتستحق نصره، لابد من تمييز المجاهدين الصادقين من المتقوّلين المنتفعين...

عباد الله... وليست المسؤولية في هذا على الناس على حدٍ سواء فكل بحسبه، وليست العبودية المؤهلة للنصر ضربًا من الأماني أو قدرًا محدودًا من العبادات، يظن المرء فيها أنه بلغ قمة الإيمان واستحق النصر لولا فساد

---

(١) سورة القصص: ٧٠.

الآخرين بزعمه... كلا فالمسؤولية كبيرة والعبودية المرادة لله شاملة، واسمع إلى أحد علماء السلف وهو يشخص الحال وكأنه يعيش اليوم بين ظهراني المسلمين، ويقول ابن القيم في كتابه القيم «أعلام الموقعين عن رب العالمين» وهو يتحدث عن نوعي العبودية العامة والخاصة: «... ولله سبحانه على كل أحدٍ عبوديةٌ بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوّى بين عباده فيها: فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يومًا في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجب قد وضع عنا فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان فلم يوضع عنكن سلاح القلب، فقالت: صدقت جزاك الله خيرًا. أن يقول الشيخ رحمه الله، وقد غر إبليسُ أكثر الخلق بأن حسّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات فلم يُحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينًا، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مرتكبِ المعاصي... إلى أن يقول: ومن له خبرةٌ بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين. هم أقل الناس دينًا والله المستعان، وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب

عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرص، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلامبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحصن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتبَ الإنكارِ الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء- كما يقول الشيخ ﷺ- مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل[1].

أيها المسلمون في ترك أمر الله وعدم التمعر لشيوع الفساد والمنكر وقد ذكر الإمام أحمد وغيرة أثرًا أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلان العابد، فقال: به فابدأ، فإنه لم يتمعر وجهه في يومًا قط.

وذكر صاحب التمهيد أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أما زهدك في الدنيا فقد تعجّلت به الراحة. وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب وأي شيء لك عليَّ؟ قال هل واليت في وليًا أو عاديت في عدوًا؟[2].

هكذا إخوة الإسلام فهم السلف رحمهم الله حقيقة العبودية لله، وكذلك جاءت النصوص الشرعية والوصايا النبوية تؤكد أمر القيام لله بحقه عبودية عامة يشترك الناس فيها وعبوديات خاصة كل بحسبه تضمن قيام أمر الله، تُرسى

---

(١) أعلام الموقعين.

(٢) أعلام الموقعين- تعليق طه عمد الرؤوف ٢/ ١٧٦، ١٧٧.

دعائم الخير في الأرض، وتوالي الخيرين وتحب الناصحين، وتسهم في اقتلاع الشر من حذروه وتأخذ على أيدي السفهاء وتأطرهم على الحق أطرًا، وتكره المبطلين وتعادي الكافرين وتبغض المنافقين...

وبهذه المجاهدة في الأرض ينساحه الخير وينكمش الباطل و يقترب النصر، ولكن ذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة وإيمان ويقين، ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

وصدق رسول الله ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا أعز الله به الإسلام، وذلًا يذل به الكفر**»[3].

اللهم انصر دينك وكتابك وعبادك الصالحين- اللهم اجعلنا من أنصار دينك والمنافحين عن شرعك يا رب العالمين.



(١) سورة الروم: ٤٧.

(٢) سورة الصافات: ١٧١- ١٧٣.

(٣) رواه ابن حيان وصححه الألباني في السلسلة ج ١/ ٧ ح ٣.

السلف والوقت(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

إخوة الإيمان حديث اليوم عن الجوهرة الثمينة في نظر العارفين، والطاقة المهدرة عند البطالين، عن واحد من جوانب النعمة المغبون فيها كثير من الناس، عن الوقت بل عن الحياة، فالوقت هو الحياة.

والمسلم يستشعر قيمة الزمن وأهمية الوقت من آي القرآن الحكيم، فالله قد أقسم في كتابه أكثر من مرة بالوقت، ولله أن يقسم بما شاء لكنه لا يقسم إلا بعظيم يستحق القسم.

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾(٢).

ومع ما قيل في تأويل الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر والليل، فالذي يلفت النظر أن هذا القسم لعظمته وأهمية المقسم به إنما هو لأصحاب العقول الذين يعقلون ما يسمعون، ويستفيدون مما يعلمون ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ وإنما سمي العقل حجرًا لأنه يمنع صاحبه من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.. وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغيرها، كما يقول المفسرون(٣).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢/ ٢/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة الفجر: ١- ٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٤١٦.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

وهل الليل والنهار إلا مراكب يختلف الناس في سبل الانتفاع بهما فمغبوط يستثمرها في طاعة الله، ويزرع فيهما ما يبلغه إلى الله ويسعد يوم لقاه، ومغبون مضيع لساعات الليل والنهار، مفرط على نفسه، يحمل الأوزار التي تثقل كاهله يوم العرض على الله، وصدق الله ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

ويقسم الله مرة ثالثة بالدهر فيقول ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1] والعصر هو الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، والله تعالى يقسم أن بني الإنسان كلهم في خسارة وهلاك إلا من استثمر وقته، واستنفد عمره في عمل الصالحات[2] كما أقسم تعالى بالضحى والليل.

إخوة الإسلام يهدي المصطفى ﷺ بسنتيه القولية والفعلية إلى استثمار الوقت بما ينفع، ويحذر من إضاعة الأوقات سدى فيقول: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[3]. وتأمل قوله (كثير من الناس) والمعنى أن الذي يوفق لاستثمار هاتين النعمتين بما ينفع قليل.

قال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا، ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة

---

(١) سورة العصر: ١- ٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٠٠.

(٣) أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما.

التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل:

يسر الفتى طول السلامة والبقا   فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة   ينوء إذا أم القيام ويحمل(١)

ولقد كان استثمار الوقت أحد نصائحه، وضمن مواعظه عليه الصلاة والسلام لأصحابه يقول- وهو الناصح الأمين- لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(٢).

فإذا كانت تلك طائفة من سنته القولية فيكفي أن ينظر اللبيب فيما عمل وخلف في مدة لا تتجاوز ثلاثة وعشرين عامًا، لقد أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، علم العلم وفاق غيره في العمل، وزرع الخير واقتلع جذور الشر، جاهد في الله في كل ميدان، وخلف أجيالًا تحمل مشاعل النور والهدى من بعده.

أيها المسلمون يكفيكم أن تطلعوا على نماذج من سير أصحابه لتروا كيف كانوا يعملون، وكيف كانوا لأوقاتهم مستثمرين، وفي ذلك إجابة لمن لا زالوا حائرين في استثمار الأوقات، متطلعين إلى نماذج راشدة في ملء الفراغ وبماذا تقضى الأوقات؟

وإذا كانت العبادة الحقة لله رب العالمين هدف الوجود في هذه الحياة امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣).

---

(١) الفتح ١١/ ٢٣٠.

(٢) أخرجه الحاكم موصولاً وصححه ووافقه الذهبي وغيره، شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢٢٤.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦.

فقد ضرب الصحابة رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في استثمار الوقت فيها فالصلاة - مثلًا- لا يشغلهم عنها شاغل ولا يصرفهم عنها صارف حتى ولو كانوا في ساحات الوغى، ولا تسأل عن حسن صلاتهم وطول قراءتهم وقيامهم وركوعهم وسجودهم وخشوعهم، حتى أطلق على بعضهم السّجاد (محمد بن طلحة بن عبيد الله) لعبادته وتألهه[(١)] وبلغ الحرص بهم في المحافظة عليها جماعة المسلمين أن أحدهم إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته- كما ثبت عن ابن عمرو رضي الله عنهما[(٢)].

وفي الصيام لهم أخبار وأحوال تراها النفوس الضعيفة ضربًا من الخيال، ففي ترجمة (أبي طلحة الأنصاري) رضي الله عنه أنه كان يسرد الصوم، وأنه كان لا يفطر إلا في سفر أو مرض[(٣)].

إخوة الإيمان مما يستثمر الصحابة رضوان الله عليهم به أوقاتهم تلاوة كتاب الله، تعلمًا وتعليمًا وعملًا، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يسأل عنه علي رضي الله عنه فيقول قرأ القرآن ثم وقف عنده وكفى به[(٤)] وفي رواية أخرى: وعلم السنة وهو القائل: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[(٥)]. وكانوا يعقدون لتعليم القرآن الحلق، وتمتلئ المساجد بالمتعلمين ولا تكاد تخلو من القائمين به في ساعات الليل والنهار، وأنعم بكتاب الله رفيقًا، وأكرم ببيوت الله موئلًا.

---

(١) السير ٤/ ٣٦٨.
(٢) السير ٣/ ٢١٥.
(٣) السير ٢/ ٢٩، ٣٠، ٣٣.
(٤) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٣/ ٣١٨.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره بسند حسن (السير ١/ ٤٩٠).

وكان القوم جادين في حياتهم مستثمرين لأوقاتهم كذلك في بيوتهم، فهذا نافع رَحِمَهُ اللَّهُ يسأل: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا تطيقونه: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما[١].

عباد الله يا من ترومون نهج السلف، وتريدون الاقتداء باستثمار الأوقات بما ينفع، فقد كان للعلم والتعليم بكل عام نصيب وافر من أوقات العارفين، ومع ما كانوا فيه من عبادة خاصة فقد كانوا يؤثرون الناس على أنفسهم، ويجلسون لتعليمهم إذا احتاجوا إليهم ويعتبرون ذلك ضربًا من العبادة يتقربون بها إلى خالقهم كما روي عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

وحين يرد الاختلاف بينهم فيما يقرؤون من أجل التعليم ينتهي في وقته، لأن الحق رائدهم، وهذا أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾[٣] ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام، فبلغ ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأغلظ له، فقال يا عمر: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله، والله لئن أحببت لألزمن بيتي فلا أحدث شيئًا ولا أقرئ أحدًا حتى أموت! فقال عمر: اللهم غفرًا، إنا لنعلم أن الله قد جعل عندك علمًا فعلم الناس ما علمت».

وفي رواية: «بل أنت رجل عندك علم وقرآن فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله»[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد ٤/ ٧٠ بسند رجاله ثقات، السير ٣/ ٢١٥.

(٢) السير ١/ ٣٩٩ مع ضعف إسناده.

(٣) الفتح/ ٢٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢٧.

ولم يقف الأمر بهم عند حدود العلم والتعليم، بل استثمروا جزءًا من أوقاتهم في الدعوة لله فانتشروا في مشرق الأرض ومغربها يعلمون الناس الخير، ويدعون إلى الله بالحسنى، ويحملون صفاء الإسلام وإشراق العقيدة حتى هدى الله على أيديهم أممًا من الناس، واستنقذ الله بهم فئامًا من الخلق وهم في ذلك كله مسترشدون بهدي نبيهم ﷺ الذي لم يكفه بياض النهار في الدعوة للخير، بل استثمر سواد الليل، وهذا عمر رضي الله عنه يحدثنا أنه كان هو وأبو بكر رضي الله عنه يسمرون مع النبي ﷺ ليلًا في بيت أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي ﷺ»[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.



(١) أخرجه أبو نعيم والفسوي بإسناد صحيح، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٩، ٥٠٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

أيها الإخوة المسلمون ثمة ما يقضي به المسلمون أوقاتهم، ويتقربون به إلي خالقهم ألا وهو الجهاد في سبيل الله والمرابطة في ثغور المسلمين، وهذا أبو طلحة ﷺ شيخ كبير، ومع ذلك يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فيقول: استنفرنا الله وأمرنا شيوخًا وشبابًا، جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله، إنك قد غزوت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، ونحن نغزو عنك الآن، قال: فغزا البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير»[(١)].

ولئن عجبت من همة هذا الشيخ الكبير واستثمار عمره حتى الممات، فعجبك سيكون أعظم حين تقف على همة شيخ ضرير عذره الله وأنزل بشأنه وأمثاله قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] ومع ذلك كان يغزو بعد ويقول: ادفعوا إليّ اللواء فإني أعمى لا أستطيع أن أفرّ وأقيموني بين الصفين[(٣)]. ويقال: إنه قاتل ﷺ يوم القادسية، وفي رواية أخرى: شهدها ومعه الراية، ويقال: إنه استشهد يوم القادسية[(٤)].

وإذا كانت تلك همة هؤلاء فلا تسأل عن همم من سواهم! ويكفيك أن تقف على مقولة سيف من سيوف الله أبلى في الجهاد بلاءً حسنًا، وأمضى حياته بين

---

(١) رواه ابن سعد والحاكم بسند صحيح، السير ١/ ٣٤.

(٢) سورة النساء: ٩٥.

(٣) أخرجه ابن سعد، السير ١/ ٣٦٤.

(٤) السير ١/ ٣٦٤، ٣٦٥.

صليل السيوف وطعن الرماح، ومع ذلك كان يستشعر لذة هذه الحياة، ويرجو أجرها عند الله فيقول: خالد بن الوليد ﷺ: (لقد طلبت القتل مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلني تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار)[١].

وهو القائل (ما من ليلة يهدى إليّ فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح فيها العدو)[٢].

وهذا سلمان الفارسي ﷺ يزور الشام فيسأل عن أبي الدرداء ﷺ فيقال: يا أهل بيروت ألا أحدكم حديثًا يذهب الله به عنكم عرض الرباط، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا أجير من فتنة القبر، وجرى له صالح عمله إلى يوم القيامة**»[٣].

وفي رواية لمسلم: «**وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزق وأمن النفاق**»[٤].

أمة الإسلام إذا عز الجهاد في سبيل الله، أو تعذر الرباط في ثغور المسلمين فلا أقل من أن يبقى حديث النفس في الغزو والجهاد، وإنهما من خير ما تستثمر به الأوقات وتستنفد فيه الأعمار، «فالجنة تحت ظلال السيوف»[٥].

---

(١) الإصابة ٣/ ٧٤.

(٢) كذره الهيثمي في المجمع ٩/ ٣٥٠، وقال: رجاله رجال الصحيح. وذكره غيره، السير ١/ ٣٧٥، الإصابة ٣/ ٧٣.

(٣) إسناده حسن، السير ١/٥٠٦.

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٢٠ ح ١٩١٣.

(٥) رواه الحاكم بسند صحيح، صحيح الجامع ٣/ ٨٥.

ويحذر النبي ﷺ أمته من تناسي هذه الشعيرة الكبيرة ويقول: «**من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**»(١).

أيها المسلمون ليس الجهاد مقصورًا على جهاد الأعداء في ساحات الوغى، فالجهاد باللسان وبذل الأموال في سبل الخير والتيقظ للثغرات في الداخل، وكشف النفاق وفضح المنافقين كل ذلك ضرب من ضروب الجهاد، حث عليه النبي ﷺ فقال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(٢) واهتم له السلف الصالح حتى ظهرت السنة، وماتت البدعة وأخمدت نيران الفتن المشتعلة وقضوا به شطرًا من أوقاتهم.

وهذا العالم الفطن والصحابي النجيب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا)(٣) وإذا كانت ساحة المعركة في الخارج مكشوفة لكل أحد، فإن ميدان المعركة في الداخل، وإفساد المنافقين الذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون لا يخفى على الواحد الأحد.

إخوة الإيمان استثمر السلف الصالح جزءًا من أوقاتهم في تفقد أحوال إخوانهم المسلمين، وقضاء حوائج المحتاجين، ولله درها من نفوس لم يلهها الغنى عن استشعار من يبيتون على الطوى، وتذكر من يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، يفزعون في النائبة ويطعمون المسكين والأرملة، وهاكم نموذجًا لهؤلاء، فأهل المدينة - كما تقول الروايات.. كانوا عيالًا على

---

(١) رواه أحمد ومسلم وغيرهما، صحيح الجامع ٥/ ٣٥٨.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم، صحيح الجامع ٣/ ٧٩.

(٣) السير ١/ ٤٩٧.

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ثلث يقرشهم واله، وثلث يقضي دينهم، ويصل ثلثًا»[(١)].

ومع ذلك كان يخشى الهلكة على نفسه، فيأتي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ويقول: يا أم المؤمنين إني أخشى أن أكون قد هلكت، إني من أكثر قريش مالًا بعت أرضًا لي بأربعين ألف دينار، فتوصيه بالنفقة[(٢)].

ترون معاشر المسلمين ماذا سيكون موقفنا إذا سألنا عن أرملة من أرامل المسلمين تهدهد أطفالها وليس عندها ما تطعمهم؟ أو عن مغيبة طال ليلها وحيل بينها وبين زوجها، أو عن أسر فقيرة معدمة لا يسألون الناس إلحافًا، وعن مدين أقلق الدائنون مضجعه ولا يجد لديونهم سدادًا. ألا وإن تفقد أحوال المسلمين وقضاء حاجات المحتاجين من سمات هذا الدين ومن أخلاق المؤمنين، ومما تستثمر به الأوقات، والدال على الخير كفاعله، ومن فرج عن مسلم كربة من كوب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة.

هذه معاشر الأحبة إطلالة يسيرة على جوانب من استثمار الوقت عند السلف الصالحين وهي كما ترون- صلاة وصيام وتلاوة واعية للقرآن علم وتعليم وعمارة للمساجد بذكر الله، دعوة للخير وجهاد في سبيل الله والمال والنفس واللسان ومرابطة في ثغور المسلمين دفاعًا عن حياض الإسلام وحرمات المسلمين وتلمس واع لحاجات المسلمين والتقفي لأحوال المحتاجين فأين الشعور بالفراغ لمن يستثمر وقته في هذه الأعمال الجليلة أو مثلها وأي مكان في مجتمع المسلمين لمن يهلكون أوقاتهم في أماكن الخنا[(٣)] والزنا وأين من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٨٨.

(٢) السير ١/ ٨٢.

(٣) الخنا: الفحش (مختار الصحاح ص ١٩٢).

ينتظرون نصرة هذا الدين وهم بعد لأوقاتهم مضيعون، ولأهوائهم وشهواتهم مستسلمون.

إن الأمة محتاجة لكل طاقة، وإن الدعوة لا تستغني عن أي وسيلة مباحة فليسد كل واحد من المسلمين الثغرة التي يحسنها، لنتق الله في أوقاتنا ولنقدم خيرًا لأنفسنا، اللهم إنا نعوذ بك من العجز والكسل، اللهم ألهمنا رشدنا، ويسر أمورنا، واختم بالصالحات أعمالنا.

هذا وصلوا.



من أخطائنا في الصلاة[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، جعل الصلاة عماد الدين، وقال في كتابه المبين ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٢] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حثّ على إقامة الصلاة، وجعلها حدًّا فاصلًا بين الإيمان والكفر، فقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٣].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ما زال يوصي بالصلاة حتى كان من آخر كلامه: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[٤].

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى الآل والأصحاب المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فأوصي نفسي وإياكم معاشر المسلمين بتقوى الله، ألا وإن المحافظة على الصلاة بأوقاتها، وخشوعها وأركانها وواجباتها وسننها طريق إلى التقوى.

أيها المسلمون لا ضير أن يتتابع الحديث، ويتجدد عن هذه الشعيرة العظيمة، لاسيما إذا كان دعوة للخشوع فيها، أو تحذيرًا من أخطاء يكثر الوقوع فيها، وحيث مضى الحديث عن الخشوع في الصلاة فحديث اليوم عن أخطاء ينبغي التنبه لها لمن وقع في شيء منها، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٨/ ٦/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٣) سورة التوبة: ١١.

(٤) رواه أحمد بإسناد جيد ١/ ٢٩٠، الفتح الرباني ٢/ ٢٠٧، إرواء الغليل ٧/ ٢٣٨.

وأكيس الناس وأبصرهم من أصلح عيوب نفسه ولسان حاله يقول كما قال الصالحون: (سمعنا وأطعنا) وأحمق الناس وأجهلهم من ظن الحديث موجهًا لغيره واشتغل بعيوب الآخرين ونسي نفسه.

أيها الإخوة المؤمنون هذه الأخطاء منها ما هو قبل الصلاة، ومنها ما هو أثناء الصلاة، وثمة ما يحسن التنبيه إليه بعد الصلاة. وأول الأخطاء تقع في «الوضوء» وهو مفتاح الصلاة وبوابتها الأولى وشرطها المقدم ف(لا تقبل صلاة بغير طهور..)[1].

والطهور شطر الإيمان (رواه مسلم وغيره) وفي التنزيل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ إلى قوله ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾[2] ويقع الخطأ في الوضوء إما بعد التنزه من البول. والرسول ﷺ يحذر من ذلك، ويقول: «**تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه**»[3] أو يكون الخطأ في عدم إسباغ الوضوء، وبقاء بقع في أحد الأعضاء الواجبة الغسل لم يبلغها الماء، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام مؤكدًا على ذلك «**وإسباغ الوضوء شطر الإيمان**»[4] وتدعو الحاجة للإسباغ بشكل عام وتشتد حين المكاره كشدة البرد مثلًا «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد الحديث**»[5].

---

(١) رواه مسلم ١/ ٢٠٤ ح ٢٢٤.

(٢) سورة المائدة: ٦.

(٣) رواه الدارقطني وصححه الألباني في الإرواء ١/ ٣١٠، الطيار/ ٦١.

(٤) رواه ابن ماجه وهو في صحيح الترغيب ١/ ٨٣.

(٥) رواه مالك ومسلم والترمذي وغيرهم «صحيح الترغيب» ١/ ٨٣.

والمكاره: هي المشقة كشدة البرد مثلًا، وإسباغ الوضوء إتمامه وإكماله[١].

وكما يقع الخلل في عدم الإسباغ يقع الخطأ كذلك في المبالغة في الغسل المفضي إلى الوسوسة، عافانا الله من ذلك والمسلمين، وتلك بلية أخرى ينبغي التنبه لها والحذر منها، وعلى كل حال فالخلل في الوضوء زيادة أو نقصًا وعدم حسن الوضوء له أثره على الصلاة، وإليك هذا الأثر من مشكاة النبوة لتكون على حذر، فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن «أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين الصبح فقرأ الروم فأوهم، فلما انصرف قال: **إنه يُلَبَّس علينا القرآن، فإن أقوامًا منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء**»[٢]. وعلق عليه ابن كثير رحمه الله بقوله: هذا إسناد حسن ومتن حسن، وفيه سر عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان من ائتم به، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام[٣].

وبكل حال فقد وردت أحاديث كثيرة تأمر بحسن الوضوء وحسن الصلاة وترتب على ذلك الأجر العظيم[٤].

ومن الأخطاء المصاحبة للوضوء ترك التسمية عنده. فالتسمية واجبة عند بعض العلماء، وسنة عند آخرين قبل البدء في غسل الأعضاء، فيقول المتوضئ: بسم الله الرحمن الرحيم قال عليه الصلاة والسلام: «**ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والطبراني والحاكم، وقال:

---

(١) رياض الصالحين ٤٢٦، ٤٣٤.

(٢) المسند ٥/ ٣٦٣، الصحيح المسند من أذكار اليوم والليلة ابن العدوي/ ٧٥.

(٣) تفسير ابن كثير لسورة الروم.

(٤) صحيح الترغيب ١/ ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٦.

صحيح الإسناد، وصححه الألباني[١] وتسقط مع الجهل والسهو، وقبل الوضوء كذلك لابد من استحضار النية لرفع الحدث والطهارة للصلاة.

قال ابن حجر: واستنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إيجاب النية في الوضوء لأن التقدير: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا لأجلها[٢]. والنية محلها القلب ولا تحتاج إلى تلفظ باللسان، وهي عزم القلب على فعل الوضوء ابتغاء مرضاة الله وامتثالًا لأمر رسوله ﷺ[٣].

إخوة الإيمان ويبقى الوضوء سمة هذه الأمة، ومفرقها بين الأمم، فهم غُرٌّ محجلون من آثار الوضوء، كذلك يعرفهم نبيهم ﷺ[٤] والوضوء من الإيمان، وقد صح في الحديث: «**ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٥] وفي المسند: «**وينسون أنه ليس من عمل أحبَّ إلى الله تعالى من الصلاة على وقتها، وهو مقدم على الجهاد في سبيل الله مع فضله ومشقته**»[٦].

أخي المصلي ولا تكن الصلاة آخر اهتماماتك، تقضى حين الفراغ، ففرض الله أولى من كل عمل مهما كان، وإياك أن تكون ممن توعد بالويل في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أتدرون من هؤلاء الساهون؟ لقد سأل مصعب بن سعد أباه فقال: يا أبتاه أرأيت قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: ليس

(١) صحيح الترغيب ١/ ٨٧، الصلاة للطيار/ ٣٤، ٣٥.

(٢) الفتح ١/ ٢٣٢ باب ما جاء في الوضوء.

(٣) الطيار/ ٣٤.

(٤) صحيح الترغيب ١/ ٧٦.

(٥) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح الحاكم صحيح الترغيب ١/ ٨٦.

(٦) متفق عليه، صحيح الترغيب/ ١٥٩.

ذلك، إنما هو إضاعة الوقت، يلهو حتى يضيع الوقت)[١] أتدري أيها المؤخر للصلاة عن وقتها أنك على خطر عظيم، ولست بضامن على، الله المغفرة، يقول كعب بن عجرة ﷺ خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن سبعة نفر ننتظر الصلاة، فقال: **هل تدرون ما يقول ربكم؟** قلنا: لا، قال: **فإن ربكم يقول: من صلى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافًا بحقها فله علي عهد أن أدخله الجنة، ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافًا بحقها فلا عهد له علي، إن شئت عذبته، وإن شئت غفرت له**[٢].

بشراكم أيها المحافظون على الصلوات بأوقاتها وخشوعها، وتنبهوا من رقدتكم أيها الكسالى المفرطون المؤخرون للصلاة والمستثقلون لها.

عباد الله ومن أخطائنا المتكررة في الصلاة نقرها وعدم الاطمئنان في ركوعها أو سجودها أو قيامها أو نحو ذلك من الأركان والواجبات. والطمأنينة ركن من أركان الصلاة لا تصح إلا به، ولقد رأى النبي ﷺ رجلًا لا يتم ركوعه، وينقر في سجوده وهو يصلي فقال: «**لو مات هذا على حاله هذه مات على غير ملة محمد** ﷺ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: **مثل الذي لا يتم ركوعه، وينقر في سجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئًا**»[٣].

وحذر النبي ﷺ أمته من الإخلال بشيء من أركانها، و أن أولئك، لا تقبل صلاتهم ولو مكثوا على ذلك سنين فقال: «**إن الرجل ليصلي ستين سنة وما تقبل له صلاة، لعله يتم الركوع ولا يتم السجود، ويتم السجود ولا يتم الركوع**»[٤].

---

(١) رواه أبو يعلى بإسناد حسن (صحيح الترغيب/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحمد بنحوه وهذا في صحيح الترغيب ١/ ١٦١.

(٣) رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى بإسناد حسن، وابن خزيمة في صحيحه: صحيح الترغيب/ ١/ ٢١٠، ٢١١.

(٤) رواه الأصبهاني بسند حسن: صحيح الترغيب ١/ ٢١١.

أيها المسلمون .. أيها المصلون وليس بخاف على أحد قصة الرجل المسيء في صلاته والذين اعتبره النبي ﷺ لم يصل حقيقة وإن صلاها ظاهرًا، وقال له مرتين أو ثلاثة: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» وحين أقسم أنه لا يحسن غير هذه الصلاة، علمه النبي ﷺ وعلَّم غيره ممن يخل بالصلاة فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[(١)].

وفي رواية لأبي داود: «**فإذا فعلت ذلك فقد تمت صلاتك، وإن انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك**»[(٢)].

إنها الطمأنينة في سائر الأركان وحتى تقضى الصلاة، وليست الصلاة مجرد حركات لا يفقه المصلي فيها قولًا ولا يحسن دعاءً، ولا ترى إلا أجسادًا تهوي إلى الأرض خفضًا ورفعًا.

هل يرضيك أخي المصلي أن يصرف الله نظره عنك وأنت تصلي؟ يقول ﷺ: «**لا ينظر الله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده**»[(٣)].

أيها المصلون: وثمة أخطاء في هيئات ركوعنا أو سجودنا أو جلوسنا، فمن الناس من إذا ركع لم يخفضْ ظهره، بل يكتفي بالانحناء قليلًا، وهذه سمة جهل

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) صحيح الترغيب ١/ ٢١٣.

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد: صحيح الترغيب ١/ ٢١١.

أو تكبر (والسنة في الركوع استواء الظهر حتى لو صببت عليه ماءً لركد فيه) ويبالغ آخرون في الركوع حتى تنخفض رؤوسهم ويزيدون عن الحد المشروع في الركوع، فليحذر الإفراط والتفريط. وفي السجود يخطئ من يرفع أنفه أو جبهته أو رجليه وهو ساجد وإنما السجود على سبعة أعظم كما قال النبي ﷺ: «**على الجبهة، وأشاره بيده على أنفه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين**»[١].

كما يخطئ من يفترش ذراعيه افتراش السبع وهو ساجد لما في ذلك من التشبه بالحيوان، والمستحب مجافاتهما ورفعهما عن الأرض وفي الحديث «**إذا صليت فلا تبسط ذراعيك بسط السبع وادعم على راحتيك، وجاف مرفقيك عن ضبعيك**»[٢]، ما لم يشق عليه ذلك لطول سجوده فإن شق اعتمد بمرفقيه على ركبتيه[٣].

ولا يفرش كامل يديه مع المرفقين على الأرض فذلك المنهي عنه، وعقبة الشيطان أو الإقعاء منهي عنه في الصلاة وهو أن يلصق إليتيه بالأرض، وينصب ساقيه، ويضع يديه على الأرض كما يفرش الكلب وغيره من السباع[٤] وللإقعاء صور أخرى[٥].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٦] نفعني الله وإياكم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر بسند صحيح، صحيح الجامع/ ٢٤٢.

(٣) الطيار، الصلاة/ ١٣٦.

(٤) صحيح مسلم، تحقيق عبد الباقي ١/ ٣٥٨.

(٥) الطيار/ ١٣٦.

(٦) سورة هود: ١١٤، ١١٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله القائل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(١)] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلق لعبادته، وشرع لهم من الدين أحسنه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، ما زال يوصي أمته ويقول: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» رواه البخاري. وحذر من إضاعة الصلاة والتهاون بها، وهو القائل: «**ورب مصل لا خلاق له عند الله تعالى**»[(٢)] اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها المؤمنون من الأخطاء الشائعة مسابقة الإمام بالركوع أو الرفع منه أو السجود أو السلام أو نحو ذلك، ويكفي لذلك ردعًا أن يعي المصلي قول النبي ﷺ: «**أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار**»[(٣)].

وهناك خطأ آخر ألا وهو التأخر عن الإمام، أو الموافقة له في القيام والقعود أو الركوع والسجود، والسنة المتابعة للإمام، فإنما جعل الإمام ليؤتم به، وها كم صورة جلية للمتابعة المشروعة، يقوله البراء بن عازب رضي الله عنه: أنا خلف النبي ﷺ، فكان إذا انحط من قيامه للسجود لا يحني أحدٌ منا ظهره حتى يضع رسول الله ﷺ جبهته على الأرض[(٤)]. ورأى ابن مسعود رضي الله عنه رجلًا يسابق إمامه فقالت: لا وحدك صليت ولا أنت بإمامك اقتديت[(٥)].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٦.

(٢) صحيح الجامع الصغير، وعزاه إلى الحكيم وحسن سنده ٢/ ٣٥٣.

(٣) متفق عليه، صحيح الترغيب ١/ ٢٠٨ وفيه مزيد تعليق.

(٤) متفق عليه.

(٥) ابن حميد الخطب ٢/ ٣٩.

إخوة الإيمان ومن الأخطاء الاختصار في الصلاة، فقد نهى النبي ﷺ أن يصلى الرجل مختصرًا كما في صحيح مسلم(١).

والاختصار في الصلاة وضع اليد في الخاصرة، والخاصرة هي المستدق من البطن الذي فوق الورك، وعلة النهي أنه من فعل اليهود، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها(٢).

والتثاؤب في الصلاة ينبغي أن يدفع، قال عليه الصلاة والسلام «**إذا تثاءب أحدكم في الصلاة فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل، وفي رواية: فليمسك بيده على فيه فإن الشيطان يدخل**»(٣).

أيها المسلمون إذا كان يشرع تغطية الفم حال التثاؤب منعًا لدخول الشيطان، فاعلموا أنه لا ينبغي تغطية الفم في الصلاة لغير حاجة. فقد نهى النبي ﷺ أن يغطي الرجل فاه كما في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره بسند حسن عن أبي هريرة(٤) وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في الاقتضاء أن ذلك فعل المجوس عند نيرانهم التي يعبدونها، فنهي المسلمون عن مشابهة الكفار(٥).

والسترة في الصلاة مما ينبغي الاعتناء بها ويخطئ بعض المصلين حين لا يصلي إلى سترة أو يتهاون في منع المار بين يديه، والرسول ﷺ يقول: «**إذا صلى أحدكم فليصل إلى سترة وليدن من سترته، لا يقطع الشيطان عليه**

---

(١) المنذري/ ٩٧.

(٢) الطيار، الصلاة - ١٣٧.

(٣) رواه مسلم، المنذري/ ٩٧.

(٤) الفوزان أحكام حضور المساجد ص ٢٧، ٢٨.

(٥) الاقتضاء ١/ ٣٤٤.

صلاته»[١] وفي رواية أخرى: «**ولا يدع أحدًا يمر بين يديه، فإن جاء أحدٌ يمر فليقاتله فإنه شيطان**»[٢]. والسترة المأمور بها مثل مؤخرة ا لرحل... أما خط الخط فقد ضعف حديثه عدد من العلماء وأخذ به أحمد وغيره مع ضعف الحديث كما قال النووي قال النووي يرحمه الله: قال العلماء: والحكمة في السترة كف البصر عما وراءه، ومنع من يجتاز بقربه[٣].

ومن الأخطاء الإشارة بالأيدي عند السلام، وفي صحيح مسلم: باب كراهية أن يشير بيده إذا سلم من الصلاة، وساق الحديث عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ قلنا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. السلام عليكم ورحمة الله، وأشار بيده إلى الجانبين. فقال رسول الله ﷺ: **علام تومئون بأيديكم**.

وفي رواية: **ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس، وإنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه، ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله**[٤] التلفظ بالنية عند الصلاة خطأ شائع عند المصلين.

أيها المصلون وليس بخفي أن الشيطان حريصٌ على إضاعة صلاتكم، كيف لا وقد أمر بالسجود فأبى واستكبر، وأمرتم أنتم بالصلاة فسمعتم وأطعتم، والناس مع الشيطان في الصلاة أصناف صنف استحوذ عليهم بالكلية فأنساهم ذكر الله والصلاة. وصنف رضي منهم بالوسوسة فيها والغياب عن خشوعها والطمأنينة فيها، وزين لهم كثرة الحركات فيها. وصنف عصمهم الله منه فأدوا

---

(١) رواه أحمد وغيره بسند صحيح الجامع ١/ ٢٣٨.

(٢) صحيح الجامع ١/ ٢٣٨ للألباني.

(٣) شرح مسلم ٤/ ٢١٦.

(٤) مختصر المنذري: ص ٨٨.

الصلاة كما أمروا، أولئك هم المفلحون. ولا شك أن مراغمة الشيطان ومغاليته على هذه الصلوات ورياضة النفس وتدريبها المرة تلو الأخرى خير سبيل لحفظ هذه الصلوات، فإن غاب عنك الخشوع في ركعة فاحرص عليه في الأخرى، وإن غلبك الشيطان في هذه الصلاة فغالبه في الصلاة اللاحقة، وهكذا حتى تستمر النفس الخشوع وتتقلل من الأخطاء، والله تعالى يعين الصابرين ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

ثم احرصوا رحمني الله وإياكم على النوافل فإنها من خير ما يسدد نقص الفرائض، وفي الحديث «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أتمها كتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها، قال الله لملائكته: انظروا هل تجدون لعبادي من تطوع فتكملون بها فريضته**»[(١)].

ومن عجب أن ترى أكثر الناس تفريطًا في الصلوات المكتوبة أزهدهم في النوافل المنسوبة، ومثله عجبًا أن ترى آخر من يدخل المسجد أول الناس خروجًا منه، والفضل بيد الله، وراغموا الشيطان يا عباد الله، واعلموا أن المكوث في المسجد عبادة، ولا تزال الملائكة تصلي على المرء وتدعوا ما دامت الصلاة تحبسه.



(١) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما بسند صحيح: صحيح الجامع ٢/ ٣٥٣.

أول ما يرفع من هذه الأمة[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وصف الصفوة من عباده ورسوله إمام المتقين وقدوة الخاشعين المخبتين بالمسارعة للخيرات، وامتدحهم بالخشية والخشوع، فقال جل من قائل عليمًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٣].

وأشهد أن محمدًا عبده، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن آله المؤمنين وصحابته الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله معاشر المسلمين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٤] ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

إخوة الإيمان: كثيرة هي الألفاظ التي نمر بها في كتاب الله دون أن

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/ ٦/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة الزمر: ٢٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٤) سورة الطلاق: ٢، ٣.

(٥) سورة يوسف: ٩٠.

تستوقفنا، وكثيرة هي المعاني العظيمة التي نقرأها في القرآن وأثرها في سلوكياتنا ضعيف، وتعالوا بنا لنقف على واحدٍ من المصطلحات نحرره، ونعلم المقصود به، ونعي قيمته، ونحاكم أنفسنا إليه، ونصحح المفاهيم الخاطئة فيه، وكيف نبلغه. إنه «الخشوع» شعار المتقين، وأول ما يرفع من المسلمين.

أخرج الإمام أحمد والطبراني عن أبي الدرداء، وشداد بن أوس رضي الله عنهما -بسند صحيح- أن النبي ﷺ قال: «**أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعًا**».

وفي رواية: «**أول ما يرفع من الناس الخشوع**»[(١)].

وخرَّج النسائي -بسند صحيح أيضًا- من حديث جبير بن نفير رضي الله عنه عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يومًا فقال: «**هذا أوان يرفع فيه العلم**، فقال رجل من الأنصار يقال له: زياد بن لبيد: يا رسول الله: أو يرفع العلم وقد أثبت ووعته القلوب؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة**». وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله عز وجل، قال (جبير) فلقيت شداد بن أوسٍ فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال: صدق عوف، ألا أخبرك بأول ذلك يُرفع؟ قلت بلى، قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعًا»[(٢)].

أمة الإسلام فمعنى الخشوع المراد هنا: لين القلوب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعته الجوارح والأعضاء خاشعة مطيعة لله

---

(١) صحيح الجامع ٢/ ٣٥١- ٣٥٣، وانظر تحقيق علي حسن لرسالة الخشوع في الصلاة لابن رجب/ ٢٦.

(٢) الرسالة السابقة ٢٤- ٢٥، وانظر: صحيح الجامع الصغير ٦/ ٧٢ مع اختلاف يسير.

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(١)].

أجل يا أخا الإسلام إن الخشوع الحق ينتظم جوارح العبد كلها بدءًا بالقلب، ومرورًا بالمخ والعظم والعصب، وانتهاءً بالسمع والبصر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: **«اللهم لك ركعت وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي**[(٢)] وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من فقده ويقول في دعائه **«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا تستجاب لها»**[(٣)].

ولك -يا أخا الإيمان- أن تدرك قيمة الخشوع وتعي قدره حين تعلم أن خيار الأمة عوتبت عليه، ولما يمضي على إسلامهم زمن طويل، قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٤)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية... إلا أربع سنين»[(٥)] ولعلك تدرك من لفظ الآية والتي بعدها: أن طول الأمل سببٌ

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) رواه مسلم ٦/ ٥٧- ٦٠ شرح النووي.

(٣) رواه مسلم ٢٧٢٢.

(٤) سورة الحديد: ١٦، ١٧.

(٥) أخرجه مسلم ١٨/ ١٦٢ النووي، الهلالي/ ١٩.

وزاد النسائي: «فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضًا» (رسالة ابن رجب في الخشوع/ ٢٩ السابقة).

لقسوة القلب، وأن قسوة القلب مظهر من مظاهر عدم الخشوع، وأن الله كما يحيي الأرض الميتة بماء السماء، كذلك يحيي القلوب بوحي السماء.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[١].

قال أبو عمران الجوني: والله لقد صرف إلينا ربنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لمحاها ودحاها، وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ هذه الآية ثم يقول: أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صُدِّعَ قلبه».

ويروى عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة أو حدثتك بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حملك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت وتصدعت، فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر بها وتعتبر، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه.. لأن عليك الحساب ولك الجنة والنار[٢].

يا أهل القرآن والخاشعون لله حقًا هم الذين يحبون الله ويثبتون هذه المحبة بالتقرب إليه بالطاعات، وهم الذين يخافون عقابه ويؤكدون خوفهم بالبعد عن المحرمات، الخاشعون لله هم الذين يؤتون ما آتوا من القربات وتبقى قلوبهم وجلة ألا تقبل منهم تلك الطاعات، أما الجاهلون.. أما غير الخاشعين فتبقى قلوبهم لاهية وإن لم تتقدم بهم الحسنات، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، ومن أعرض عن ذكر الله فلا يبال الله بأي أودية الدنيا أهلكه- نسأل الله السلامة ونعوذ به من الغواية. وليس من خشوع العين رؤيتها لما حرم الله،

(١) سورة الحشر: ٢١.

(٢) رسالة ابن رجب في الخشوع السابقة ٣٠، ٣١.

وليس من خشوع الأذن سماعها لما حرم الله، وليس من شأن اليد الخاشعة أن تبطش بالحرام، ولا أن تسير الرجْل الخاشعة إلى حرام، ولا من شأن القلب الخاشع أن ينطوي على الخواطر الرديئة وسيئ الأخلاق والاعتقاد ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أيها المسلمون ومن صفات الخاشعين البكاء من خشية الله ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[١].

قال القرطبي رحمه الله، وهذه أحوال العلماء، يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموتون[٢].

ومن صفاتهم: الصبر على ما أصابهم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ووجل القلوب عند ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣].

ومن صفات الخاشعين: تعظيم شعائر الله، وشعائر الله أوامره. كما قال المفسرون[٤] ومن تعظيمها: التحرج من المساس بها سوءًا أو القرب منها تعديًا، وذلك من تقوى القلوب، قال علام الغيوب: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[٥].

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٧- ١٠٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٥٨.
(٣) سورة الحج: ٣٤، ٣٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٦.
(٥) سورة الحج: ٣٢.

ومن صفاتهم الإيمان بالله ورسوله وكتبه المنزلة مع عدم كتمان شيء من الحق أو بيع الدين بالدنيا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1].

ومن صفات الخاشعين في كتاب الله، يقينهم بلقاء ربهم، وأنهم إليهم راجعون، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2].

وكذلك فامتحن نفسك أيها الإنسان في الخشوع، وانظر قربك أو بعدك من هذه الصفات، وهل أنت من الخاشعين أم عدادك في الغافلين؟.

يا أخا الإيمان: وإن استهوتك منازل السالكين في الجنان، ورمت طريق الخاشعين فاعلم أنه يسير على من يسره الله عليه، لكنه محتاج في البداية إلى صبر وعزيمة وتجاوز للعقبات وسؤال الله الثبات.. وهاك تجربة العارفين بمدارج أحد السالكين يهديها لك الإمام ابن القيم حين يقول: «فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله. وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلابد أن ينتهي إليه.. وفي ذلك الجبل أودية وشعوب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج، وعُلَّيق وشبرق ولصوص يقطعون الطريق على السائرين.. فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات وإلا تعلقت بهم الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشيطان على قُلَّةَ ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه،

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٩.

(٢) سورة البقرة: ٤٥، ٤٦. وانظر: الخشوع وأثره في بناء الأمة: سليم الهلالي ص ٢٧- ٣٠.

فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قُلَّته، وضعف عزيمة السائرين فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع، والمعصوم من عصمه الله.. ثم يقول وكلما رقى السائر في ذلك اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانًا، وحينئذٍ يسهل السير، وتزول عوارض الطريق.. ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن. إلى أن يقول: فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»(١).

اللهم اسلك بنا طريق المتقين، وبلغنا منازل الصادقين، واعصمنا من الفتن يا رب العالمين/ أقول قولي هذا..



(١) مدارج السالكين ٢/ ٧- ٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، هو أهل الحمد والثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها الإخوة المؤمنون.. والخشوع الحق تصور واع لعظمة الله وعلم يقيني بثوابه وعقابه، يقود إلى صلاح القلب ووجله وتقواه، ويعلق صاحبه بالله دون سواه، ثم تسري هذه الشحنة الإيمانية في الجسد فيقشعر لها، ثم تفيض العين بالبكاء، ثم يلين القلب والجلد معًا، ثم تتنزل السكينة والوقار فيأمن الخاشع من المخاوف ويهدأ من الاضطراب، وينتهي بالمرء إلى الإخبات، والإخبات أول منازل الطمأنينة، حتى يبلغ الخشوع بالمرء إلى الطمأنينة وهي نهاية الإخبات، ومعها يسكن القلب والنفس مع قوة الأمن دون غرور.. تلك درجات الخشوع الحق لمن ابتغاها[١].

أيها المسلمون وليس من الخشوع الحق الزعيق والصياح كما يصنعه جهلة العوام أو المبتدعة، ولا الرقص والتصفيق كما يفعله أهل التصوف والطرقية والجهلة الطغام، يقول العز بن عبد السلام يرحمه الله: وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب، كيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه... أما التصفيق فقد حرمه بعض العلماء لقوله عليه الصلاة والسلام «**إنما التصفيق**

---

(١) انظر سليم الهلالي، الخشوع ص ٥٧- ٦١.

للنساء»[١]- إلى أن يقول العز ﷺ: ومن هاب الإله، وأدرك شيئًا من تعظيمه لم يتصور منه رقصٌ ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق إلا من غبي جاهل، ولا يصدر من عاقل فاضل[٢].

أمة الإسلام.. وليس من الخشوع الحق ضرب الخدود وشق الجيوب، والتباكي كما يفعله أهل البدع الضلال، أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وقد تحدث الإمام الشاطبي رحمه الله عن طائفة من هؤلاء الذين شأنهم الرقص. والزمر، والدوران، والضرب على الصدور، وبعضهم يضرب على رأسه وما أشبه ذلك من العمل المضحك للحمقى والمبكي للعقلاء... وبين خطأهم وضلاهم كما علق عالم السنة أبو بكر الأجري رحمه الله على حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال الأجري: «ميزوا هذا الكلام، فإنه لم يقل: صرخنا من موعظة، ولا طرقنا على رؤوسنا، ولا ضربنا على صدورنا، ولا زفنا ولا رقصنا، كما يفعل كثير من الجهال يصرخون عند المواعظ، ويزعقون ويتناشون... إلى أن يقول: وهذا كله من الشيطان يلعب بهم، وهذا كله بدعة وضلالة[٣].

عباد الله... ومن الخشوع الكاذب خشوع النفاق، وهو تكلف الإنسان الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه، ذلكم هو الذي كان يتعوذ منه السلف، فيروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «استعيذوا

(١) أخرجه مسلم.
(٢) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ٢/ ١٨٦، ١٨٧، عن الخشوع للهلالي ٦٣- ٦٥.
(٣) انظر: سليم الهلالي، الخشوع وأثره في بناء الأمة ٦٥- ٦٧.

بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[١].

معاشر المسلمين- وليس من الخشوع الصادق المسكنة الفارغة، والضعف المذل، والسلبية والانطوائية، وضعف الإنتاج، وطأطأة الرأس دون وجل القلب وقوته، ويروى أن عمر رضي الله عنه أبصر شابًا قد نكس رأسه فقال له: يا هذا: ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب» فمن أظهر خشوعًا غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق[٢].

هذه معاشر المسلمين ضروب من التخشع الكاذب فاحذروها، واعلموا أن الخير كل الخير فيما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته ومن سار على نهجهم، وأولئك جاء في القرآن صفة خشوعهم، وأبانت السنة الصحيحة كيفية عبادتهم وهيئة خشوعهم، يقول الحق تبارك وتعالى في وصف أحوال أهل المعرفة عند سماع الذكر والتنزيل ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم، فصعد المنبر فقال: «**سلوني، لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا**» فلما سمع ذلك القوم أرموا- أي سكتوا- ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، قال أنس: فجعلت ألتفت يمينًا وشمالًا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي... الحديث.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور، ونسبه لابن المبارك وأحمد في الزهد، وابن أبي شيبة عن أبي الدرداء، انظر: الخضوع في الصلاة لابن رجب تحقيق علي حسن/ ٢١.

(٢) المرجع السابق/ ٢١.

وقد مر معنا هيئتهم عند الموعظة تذرف منها العيون، وتوجل منها القلوب- كما في حديث العرباض رضي الله عنه- لكن دون زعيق أو صياح، أو رقص وتصفيق أو ضرب خدود وشق جيوب... أو نحو ذلك من أحوال رآها الخلف الجاهلون ضروبًا من العبادة والقربى... وهي ليست إلا ضروبًا من البدع منكرة... وألوانًا من المعونات الباطلة.

أيها الإخوة المؤمنون، وبالعلم والإيمان، وتدبر السنة والقرآن، والنظر في ملكوت الله وكيف خلق الإنس والجان، وكيف رفع السماء بلا عمد تراها، وأغطش ليلها و أخرج ضحاها، وبسط الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها... والإلتفات بعد ذلك إلى الطامة الكبرى، يوم يرد الناس كلهم على الله آتيه فردًا، عراة غرلًا... كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا حقًا- ونذكر الله بأسمائه الحسنى وتصور صفاته العلى - بهذه وتلك، يناله الخشوع وتطمئن القلوب. قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وقال جل من قائل عليمًا ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

ويبقى بعد ذلك حديث مهم عن الخشوع في الصلاة.

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، نسألك نعيمًا لا ينفد وقرة عين لا تزول... هذا وصلوا.

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

الخشوع الغائب[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الناس اتقوا الله وأصلحوا أعمالكم وراقبوه فيما تعملون أو تدعون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3].

عباد الله كثيرًا ما يسأل المرء منا نفسه ماذا وكم عمل؟. وقليلًا ما نسائل أنفسنا وكيف كان عملنا ومدى قربه أو بعده من هدي نبينا؟. وهذا من جهلنا وتقصيرنا بحقيقة العبادة التي يريدها الله منا، فإن المعول عليه في العبادات كلها إخلاصها وصحة أدائها، لا مجرد الإتيان بها وكثرتها، ولقد بيّن الله في كتابه الكريم أنه خلقنا ليبلونا أينا أحسن عملًا، قال تعالى في سورة هود ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾[4].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٦/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٣) سورة الحشر: ١٨.

(٤) سورة هود: ٧.

وقال في سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾(١).

ذلك لمن كان يرجو لقاء ربه كما قال في سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢).

قال العارفون في معنى «أحسن عملًا» أي أصوبه وأخلصه.

وحتى نبلوا أنفسنا ونصحح أخطاءنا تعالوا بنا لنقف على واقعنا في عبادة من أهم العبادات وأكثرها تكرارًا في اليوم والليلة هي أول ما سنحاسب عليه، وهي آخر ما نفقد من ديننا، إنها الصلاة، كتاب الله المفروض على المسلمين، والحد الفاصل بين الإسلام والكفر.

ولن يكون حديثي هذا اليوم عن فريضة الصلاة ووجوبها، وليس الحديث موجهًا لأولئك النفر القلة المضيعين للصلاة والمفرطين في الواجبات، لكنه حديث موجهٌ لنفر من المسلمين المحافظين على الصلاة بأوقاتها ومع جماعة المسلمين، أولئك الذين يرجون رحمة الله، ويرغبون في معرفة أخطائهم، ويتطلعون إلى الاقتداء بخير البرية محمد بن عبد الله ﷺ.

وحيث سبق الحديث عن الخشوع بمفهومه العام، وحاجتنا إليه، فحديث اليوم عن الخشوع في الصلاة، لب الصلاة وروحها، وهذا الخشوع الذي افتقده كثيرٌ من المصلين، ولم تقف المصيبة بفقده عند عوام الناس، بل شملت الخواص- إلا من رحم الله- وسار داء فقد الخشوع حتى شمل النساء إلى جانب الرجال، والصغار إلى جانب الكبار، ولم تكن البلية بعدم الخشوع في الصلاة حدثًا طارئًا بل وجد فيمن قبلنا... ولكن بنسب متفاوتة، وكلما شاع

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

الجهل وقلَّ التقى، واشتغل الناس بالدنيا عن الدين كلما اتسعت الهوة وقل الخشوع في العبادة، ولئن صحت نسبة القول إلى أحد السابقين» يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»[١] فهي البلية الكبرى والمصيبة العظمى. وعلى كل حال فما من شك أن غياب الخشوع في الصلاة ظاهرة خطيرة وداء يستحق الوقفة، ويستوجب العلاج، وذلك لأمرين هامين:

الأمر الأول: أن الصلاة ميزان لقبول الأعمال أوردها، يقول عليه الصلاة والسلام: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»[٢].

الثاني: أن المرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وفي المسند مرفوعًا «**إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها**»[٣].

فهل ترضى يا أخا الإسلام أن ترد أعمالك الأخرى بسبب عدم إصلاح صلاتك؟ وهل يكفيك أن تكتب لك من صلاتك ربعها أو ثُمنها أو عشرها.

أيها المسلمون... أيها المصلون وهنا ترد الأسئلة التالية:

ما معنى الخشوع في الصلاة؟ وما حكمه؟ وما مظاهر عدم الخشوع في صلاتنا، وكيف نستجلب الخشوع في الصلاة؟.

أما معنى الخشوع في الصلاة: فهو.. كما قال ابن كثير.. رحمه الله: تفريغ

(١) أخرجه الترمذي ورواية النسائي أرجح ابن رجب ص/ ٢٥.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وغيره عن أنس وسنده صحيح، صحيح الجامع الصغير ٢/ ٣٥٢.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١١٢ عن المنجد في رسالته ٣٣ سببًا للخشوع في الصلاة ص ٦٠/ ٦١.

القلب لها، وعدم الاشتغال بما عداها، وإيثارها على غيرها، وحينئذ تكون قرة عين للمصلي، كما كانت للنبي ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١).

والخشوع في الصلاة كما جاء في عبارات السلف، سكون وخوف، وغض للبصر وخفض للجناح، وعدم الالتفات هنا أو هناك(٢).

هو باختصار سكون الجوارح عن الحركة غير المأذون بها شرعًا، وتدبر القلب وخشوعه لما يقال أو يفعل في الصلاة إن سرًا أو جهرًا. قال بعض السلف، الصلاة كجارية تهدى إلى ملك الملوك، فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح... فكيف بالصلاة يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وليس من العمل الطيب صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عبد لا روح فيه(٣).

أيها المؤمنون أما حكم الخشوع في الصلاة فقد قال بوجوبه في الصلاة عدد من العلماء، قال القرطبي رحمه الله: «اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها؟ على قولين، والصحيح الأول ومحله القلب»(٤)، وممن قال بوجوبه، قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(٥).

---

(١) أخرجه النسائي وأحمد بسند صحيح الهلالي، الخشوع وأثره في الأمة ص ٣١، وتكون له راحةً، كما قال عليه الصلاة والإسلام لبلال رضي الله عنه «**أرحنا بها يا بلال**» (أخرجه أبو داود، وأحمد بسند صحيح، المرجع السابق/ ٣٢، تفسير ابن كثير ٥/ ٤٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٦/٥، ابن رجب/ ٣٥.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢٦ عن رسالة المنجد في الخشوع في الصلاة ٧، ٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٠٤.

(٥) سورة البقرة: ٤٥.

قال الشيخ: وهذا يقتضي ذم غير الخاشعين، والذم لا يكون إلا لترك واجبٍ أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دلّ ذلك على وجوب الخشوع/ كما استدل الشيخ على وجوب الخشوع لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ ... إلى قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وبأدلة أخرى وكلام طويل استجمعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]. كما قال بالوجوب الحافظ العراقي في (طرح التثريب[٢] ردًّا على النووي رحمهما الله[٣].

إخوة الإسلام فإذا علم وجوب الخشوع في الصلاة أدركنا مدى تفريطنا وتهاوننا في أداء هذه الفريضة الواجبة وقلة خشوعنا في الصلاة، فإن قال قائل: وما هي مظاهر عدم خشوعنا في الصلاة؟ قلت: هذه كثيرة ومنها:-

١- كثرة الحركات في الصلاة دونما فائدة كتحريك الأرجل والأيدي وتسوية الملبس ومس الشعر والنظر في الساعة وفرقعة الأصابع ونحو ذلك، وتأمل كيف قال النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه حين سأله عن مسِّ الحصى في الصلاة فقال: «**واحدة، ولأن تمسك عنها خيرٌ لك من مائة ناقة كلها سود الحدَق العيون**»[٤].

٢- الإلتفات في الصلاة وهو نوعان: حسي ومعنوي، فالحسي تقليب البصر يمينًا وشمالًا. وذلك هو الاختلاس الذي يختلسه الشيطان من صلاة العبد، كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح[٥]. والمعنوي هو التفات القلب عن الله لأي غرض من أغراض الدنيا، والانشغال عن الصلاة، وقد قال النبي ﷺ

---

(١) في الفتاوى ٢٢/ ٥٥٣- ٥٧٢.

(٢) ٢/ ٣٧٢.

(٣) انظر الخشوع وأثره في بناء الأمة، الهلالي/ ٣٥.

(٤) الحديث رواه ابن خزيمة في صحيحه وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٥٥٨) المنجد/ ٥٣.

(٥) أخرجه البخاري ٢/ ٢٣٤، ٦/ ٢٣٨ من الفتح.

لعمرو بن عتبة ﷺ في فضل الوضوء والصلاة الخاشعة «**فإن هو قام وصلى فحمد الله وأثنى عليه... وفرّغ قلبه لله انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه**»(١) والخاشع والموفق من سلم من التفات البصر والفؤاد في الصلاة ولم يرفع بصره إلى السماء.

٣- ومن مظاهر عدم الخشوع استثقال الصلاة وتباطئ الإمام في السلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ والمعنى ثقيلة إلا على الخاشعين.

٤- ومن مظاهره عدم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(٢). وقيل للنبي ﷺ: إن فلانًا يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق، فقال سينهاه ما تقول، أو قال ستمنعه صلاته»(٣).

٥- ومن مظاهر عدم الخشوع كثرة السهو فيها، وقلة التدبر لما يقال أو يقرأ من القرآن فيها، ولو سألت بعضهم ماذا قرأ الإمام في المغرب والعشاء مثلًا أو ماذا قرأ هو في صلاة اليوم لتردد في الإجابة، وليس ذلك إلا مظهرًا من مظاهر الغفلة وعدم الخشوع والتدبر في الصلاة فليحذر.

٦- ومن أبرز مظاهر عدم الخشوع في الصلاة عدم الطمأنينة في الصلاة، وسرقة شيء من أركانها أو الواجبات، كعدم الاطمئنان في الركوع أو الرفع منه، أو السجود أو الجلسة بين السجدتين أو نحو ذلك، قال ﷺ «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قيل: يا رسول الله كيف يسرق صلاته؟ قال لا يتم**

---

(١) رواه مسلم ٨٣٢، انظر الخشوع في الصلاة لابن رجب/ ٣٨.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) رواه أحمد البزار وصححه الألباني ١/ ٦٦ من السلسلة الضعيفة حين ضعف الحديث. لم تنه صلاته عن الفحشاء (الصلاة وأثرها/ العوايشة/ ٤٩).

ركوعها ولا سجودها»[١] وفي الحديث الآخر نهى رسول الله ﷺ عن نقرة كنقرة الديك، وإقعاء كإقعاء الكلب، والتفات كالتفات الثعلب»[٢]. وقد يصل الأمر ببعضهم إلى مسابقة الإمام، وهذا من تلاعب الشيطان في المصلي، وإلا هل سينهي الصلاة قبل الإمام، وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك فقال «**أما الذي يخشى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار**»[٣] اللهم وفقنا للهدى وعافنا من البلوى.



(١) رواه أحمد والحاكم وهو في صحيح الجامع ٩٧٧.

(٢) رواه أحمد وهو في صحيح الترغيب ٥٥٦، المنجد/ ٩٥.

(٣) رواه مسلم ١/ ٣٢٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، واللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإيمان إذا عرفنا معنى الخشوع في الصلاة وقيمته وحكمه وبعضًا من مظاهر عدم خشوعنا في الصلاة، فهنا يرد السؤال المهم فكيف نخشع في الصلاة؟، وما هي الأسباب المعينة على الخشوع؟ وقبل الشروع في ذكر بعض الأسباب المعنية، أذكرك أخي المسلم بعلاج الظواهر السابقة لعدم الخشوع فتلافيها يورث الخشوع في الصلاة، وأضيف إليها أسبابًا أخرى للخشوع.

١- وأول هذه الأسباب استحضار عظمة الله حين الدخول في الصلاة. أولست تبدأ الصلاة بالتكبير قائلًا: الله أكبر . . . أجل إن معرفتك بمدلول هذه الكلمة يجعلك تعتقد أن الله أكبر من كل شيء ومن ثم فلا ينبغي أن يشغلك شيء عن ذكر الله وعن الصلاة حتى تفرغ منها. وينبغي أن تجل الله وأنت تقف بين يديه تناجين قال ﷺ «**إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه**»[1].

٢- وتدبر ما تقول من أذكار وما تقرأ من قرآن، من خير ما يعينك على الخشوع، فأنت لو تأملت ما تقول من دعاء الاستفتاح وما تقوله حين تركع وترفع وتسجد وتعتدل، وتدبرت ما تقرأ بين ذلك من كتاب الله العزيز لكان في هذا ذاك شغل لك عن التفكير في أمور أخرى خارج الصلاة، ولمن يغفل عن

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه ١/ ٢٣٦ وهو صحيح الجامع الصغير رقم ٦٥١.

تدبر القرآن أثناء الصلاة أو خارجها أذكر بمقولة أحد السلف «إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(١)]. وأذكر من يقرؤون من الآيات دون تدبر بموقف قتادة بن النعمان رضي الله عنه الذي قام الليل لا يقرأ إلا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها لا يزيد عليها[(٢)].

٣- ومما يعين على الخشوع في الصلاة تذكر الموت، والصلاة صلاة مودع، وفي هذا يقول ﷺ «**اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسنها، وصل صلاة رجل لا يظن أنه يصلي غيرها**»[(٣)]. إي وربي إن صلاة من يظن أجله قاب قوسين أو أدنى لتختلف عن صلاة من خدع بطول الأمل وحب الدنيا.

٤- أيها المسلمون ومن الأمور المعينة على الخشوع في الصلاة الحرص على سنن الصلاة، فصلًا عن الإتيان بواجباتها والأركان، ولهذا وذاك أثر في خشوع المصلي، أرأيت وضع اليد اليمنى على اليسرى على صدر المصلى... كم فيه من عبودية لله رب العالمين، وقد سئل الإمام أحمد يرحمه الله عن المراد بذلك فقال «هو ذل بين يدي عزيز» قال علي بن محمد المصري الواعظ يرحمه الله: ما سمعت في العلم بأحسن من هذا»[(٤)]. فوق ما في ذلك من اتباع هدي المرسلين «**إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة**»[(٥)] ثم أرأيت

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ١٨.
(٢) رواه البخاري الفتح ٩/ ٥٩ وأحمد ٣/ ٤٣.
(٣) أخرجه الديلمي في مسنده بسند حسن: الخشوع للهلالي/ ٤٥، المنجد/ ١٣.
(٤) الخشوع في الصلاة لابن رجب ٣٦، ٣٧.
(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح ٣/ ١٥٥.

تحريك السبابة حين التشهد كم هو شديد على الشيطان حتى قال النبي ﷺ «**لهي أشد على الشيطان من الحديد**»[(١)] ومثل ذلك يُقال في طأطأة الرأس، والنظر في موضع السجود، ونحو ذلك من هيئات الصلاة المشروعة، وكلها تدعوا للخشوع وتذهب الغفلة وتطرد وساوس الشيطان بإذن الله.

٥- إخوة الإيمان، ومما يدعو للخشوع التأمل في حال السلف في صلاتهم، وتذكر مسلسل الخاشعين الماضين من المؤمنين، وهاك نموذجًا لهم، يقول مجاهد رحمه الله: كان إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه من شأن الدنيا إلا ناسيًا ما دام في صلاته»[(٢)] وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: في ثلاث خصال لو كنت في سائر أحوالي أكون فيهن لكنت أنا أنا، إذا كنت في الصلاة لا أحدث نفسي بغير ما أنا فيه، وإذا سمعت رسول الله ﷺ حديثًا لا يقع في قلبي ريبٌ أنه الحق، وإذا كنت في جنازة لم أحدث نفسي بغير ما تقول ويقال لها»[(٣)].

ويذكر أن عصام بن يوسف رحمه الله مر بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه، فقال: يا حاتم تحسن تصلي؟ قال: نعم، قال: كيف تصلي؟ قال: حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالنية، وأختمها بالإخلاص لله عز وجل، وأرجع على نفسي بالخوف، أخاف ألا يقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت» قال: تكلم فأنت تحسن تصلي[(٤)].

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند حسن كما في صفة الصلاة/ ١٥٩، المنجد/ ٢٤.

(٢) تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٨٨ عن رسالة المنجد/ ٣٧.

(٣) الفتاوى لابن تيمية ٢٢/ ٦٠٥.

(٤) الخشوع لابن رجب ص ٤٧.

عباد الله أيها المصلون ومما يعين على الخشوع:

٦- استحضار المغنم والمغرم في الصلاة، وإذا كان قد مضى شيء من المغرم لمن ضيع صلاته ولم يخشع فيها يكفي منها أنها لا تنهاه من الفحشاء والمنكر في الدنيا، وتكون في الآخرة سببًا لرد أعماله الأخرى، إلى غير ذلك من المغارم الأخرى.

أما الصلاة الخاشعة فلها مغانم كثيرة، منها مغفرة الذنوب، كما قال ﷺ **«ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»**[(١)].

في الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام **«إن العبد إذا قام يصلي أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقيه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه»**[(٢)].

قال المناوي: المراد أنه كلما أتم ركنًا سقط عنه ركن من الذنوب، حتى إذا أتمها تكامل السقوط وهذا في صلاة متوفرة الشروط والأركان والخشوع كما يؤذن به لفظ (العبد) و(القيام) إذ هو إشارة إلى أنه قام بين يدي ملك الملوك مقام عبد ذليل[(٣)] والصلاة الخاشعة سبب لدخول الجنة كما ثبت ذلك في صحيح[(٤)] وهي تمنع مدخل السوء ومخرجه كما صح بذلك الحديث[(٥)].

إخوة الإيمان يطول الحديث عن آثار الصلاة ومغانمها- وليس هذا موضع بسطها- والمقصود أن نقدر هذه الصلاة حق قدرها، وأن يبصر كل منا نفسه

---

(١) رواه مسلم ١/ ٢٠٦.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى والطبراني وغيرهما بسند صحيح (صحيح الجامع ٢/ ٧٨).

(٣) فيض القدير ٢/ ٣٦٨ عن المنجد في ٣٣ سببًا للخشوع في الصلاة/ ٤١.

(٤) العوايشة: الصلاة وأثرها/ ٥١.

(٥) صحيح الجامع ١/ ١٩٧.

ويتأمل في صلاته، وإن من الحرمان أن يجهد المرء نفسه ثم لا يتقبل الله منه بسبب تقصيره وتلاعب الشيطان بعبادته، وكم هو مؤلم للنفس أن يمكث الإنسان دهرًا من عمره يؤدي الصلاة وكأنها عادة لا عبادة، فلا يجد فيها أنسه، ولا تنهاه عن معصية، وفرق كبير بين من إذا دخل الصلاة تمنى عدم الخروج منها لما يجده من لذة المناجاة وقرة العين، وبين من إذا دخل في الصلاة أخذ يحسب أنفاسه حتى تقضى الصلاة؟.



حرب العقائد والدرس المستفاد[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، له العزة والكبرياء، يحكم ما يشاء ويختار، والذين يمارون في عزته أو يتشككون في قدرته أولئك هم الخاسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يُديل أممًا من الناس على أمم تارة، وقد تكون هذه الإدالة بداية النهاية.

ويمتحن آخرين فيسلط عليهم أعداءهم، وقد يجعل الله في ثنايا المحن منحًا إلهية، وقد يكون بداية النصر المؤزر على إثر الهزيمة الساحقة.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله جاهد في الله حق جهاده وناله وأصحابه من ألوان الأذى من أعدائه ما لم يستكينوا معه أو ييأسوا وما زالوا يتضرعون حتى كان النصر والفتح المبين... اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطاهرين وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

اتقوا الله معاشر المسلمين، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ٣/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة النساء: ١.

إخوة الإسلام والمتتبع لتاريخ العلاقات ما بين الغرب وشعوب الإسلام يلاحظ حقدًا مريرًا يملأ صدور الغرب حتى درجة الجنون، يصاحب هذا الحقد خوف رهيبٌ من الإسلام والمسلمين. وهذا الحقد وذلك الخوف ليس مجرد إحساس نفسي لا ظل له ولا أثر في الوجود، وإنما من أهم العوامل التي تبني وتبلور عليها مواقف الحضارة الغربية من الشعوب المسلمة سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا وسائر جوانب الحياة الأخرى.

ولم تعد هذه المقولة مجازفة يطلقها المسلمون... أو تهمة تُلصق بالغرب ومن شايعهم وهم منها براء، كلا والواقع ينطق والحقائق تشهد، والستار الوهمي يزاح، وتشهد أرض البوسنة والهرسك اليوم أبشع جريمة، وأسوأ كارثة في التاريخ المعاصر.. تسفك فيها دماء الأبرياء، وتغتصب النساء، ويفصل بين الأبناء والآباء، ويموت الألوف محل الأطفال ويحال بينهم وبين الرضاع أو شربة الماء.. ولا تنتهي الكارثة رغم سوئها عند هذا الحد فالهوية المسلمة يراد طمسها.. والأرض الخاصة لابد من تقسيمها والملأ يأتمرون ويخططون والسادة يباركون، والمنظمات والهيئات الدولية تحمي وتشرف على المخطط الآثم وتضطلع بمسؤوليتها في الجريمة النكراء، ويلف الصمت أممًا أو دولًا أخرى لها نصيبها في المغنم أو يكفيها يوأد الإسلام المتململ، وتُنهى- ولو إلى حين- هذه الصحوة الإسلامية المتجددة.

ولك الله يا شعب البوسنة والهرسك، كم تكالبت عليك الخطوب، وكم كنت هدفًا للتخطيط الماكر، والكيد الظاهر والخفي... لك الله وأنت باكورة ثمار التخطيط للنظام العالمي الجديد بصليبيته الظاهرة، واستعماره الملفوف، وخداعه المكشوف.

على أن حرب اليوم ليست ضد شعب البوسنة وحدهم، بل هي حرب على الإسلام أنى كان وعلى المسلمين أينما وجدوا. . . ودونك مذابح المسلمين في الشيشان والطاجيك، وبورما، وتايلند، وكشمير، والفلبين، وفلسطين وغيرها. وكأن من بنود النظام العالمي الجديد السماح لأي دولة تريد الاستقلال وتقرير حق المصير، أما الإسلام وأما المسلمون فيستثنون من هذه القاعدة ولابد من اضطهادهم والتضييق عليهم وعدم تمكينهم.

إنها حرب العقائد بكل ما تحمله الكلمة من معان ومضامين، وممارسة الاستعمار، ولكن بثوب جديد، وميدان المعركة خير دليل على كشفِ المؤامرة، وبيان هوية المقاتلين، والتصريحات بعدم السماح لدولة ترفع شعار الإسلام في أوربا لم تعد خافية، والجهود لمحاصرة هذه النبتة الإسلامية مسؤولية مشتركة حتى ولو كانوا من بني جلدتهم.

أيها المؤمنون وإن من السذاجة والتغفيل أن نتصور حرب العقائد وليدة اليوم، وأن عدوان الغرب لنا معاشر المسلمين نبتت هذه الأيام. كلا . . فالتخطيط قديم، والنية للعداء مبيتة، والتصريحات قديمة وإن رغمت أنوف المخدوعين، وهاكم البينة وإليكم الدليل، يقول (أيو جين روستو) رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية. . . ومستشار الرئيسي جونسن لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧م: (يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دولٍ أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقدر كان الصراع محتدمًا بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة. . إلى أن يقول: إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية

للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها). فهل بعد هذا من صراحة؟[١].

إذا كانت هذه سياسة أمريكا فقبلها أوربا وقد قال مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م- وليت المسلمين يعون ما يقوله الآخرون عنهم. يقول هذا المسؤول: ليست الشيوعية خطرًا على أوربا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا وعنيفًا هو الخطر الإسلامي. فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع- هكذا يقول الكاتب من وجهة نظره المادية، وإلا فهناك أسباب أخرى لانطلاقة المسلمين الكبرى- انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ... إلى أن يقول الكاتب: إن العالم الإسلامي عملاق مقيد، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافًا تامًا، فهو حائرٌ، وهو قلقٌ، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب رغبة يخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر... إلى آخر ما قال[٢].

---

(١) قادة الغرب يقولون.. جلال العالم ص ٢٤/ ٢٥.

(٢) قادة الغرب يقولون ص ٤٠/ ٤١.

إخوة الإسلام هذه التصريحات الجلية بالعداوة من جانب، وبالتخوف من الإسلام القادم من جانب آخر إذا انضم إليها الواقع المشهود بتآمر الغرب ووحشيته وتآمره على الإسلام والمسلمين في أرض البوسنة والهرسك مثلًا باتت سهامًا موجعةً وضربةً قاصمةً للعلمانيين في ديار المسلمين أولئك الذين ما فتأوا ينافحون عن الغرب ومؤسساته ويوهمون أمتهم أن الدول المتحضرة لم تعد تقيم للدين وزنًا قي سياستها وبرامج تخطيطها، وينبغي- حسب نظرتهم الهزيلة- أن يبقى الدين علاقة شخصية بين الفرد وخالقه، لا علاقة له بتنظيم أمور الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والإعلامية وسواها.

أجل لقد واتت الفرصة لكل مخدوع بشعار العلمنة والتغريب أن يكشف القناع عن عينيه، وأن يسمح لأذنيه بسماع ما لم يكن يسمح به من قبل، وستتكشف له الحقائق دون غموض، وهذه راعية العلمنة ومصدرة أفكارها تؤوب إلى ديانتها وإن كانت محرفةً، وتتخذ من الدين والمعتقد منطلقًا أساسيًا لسياستها، وتُبقي العلمنة شعارًا أجوف تخدع به المساكين، وتصدره بضاعةً مزجاة لمن لا زال في قلبه مرضٌ من أبناء المسلمين، وإذا سقطت العلمانيةُ وأفلس العلمانيون في ديار الغرب، فلا تسأل عن مصيرها في ديار المسلمين، وربك يحكم ما يشاء ويختار، فبالأمس سقطت الشيوعية الشرقية وأذنابها داخل يحميها، واليوم تتهاوى العلمانية الغربية ومؤسساتها وغدًا وبعد غدٍ ستتهاوى بإذن الله كل نحلةٍ ضالة، وسينفضح كل نظام مزورٍ مهما خدع الأبصاَر برهةً من الزمن.

ويبقى دين الإسلام دين الله في الأرض منسجمًا مع نظام الكون كلِّه، ويبقى المسلمون يسبحون بحمد ربهم، ويشاركون غيرهم من مخلوقات الله تسبيحهم. ووعد الله حق، ولكن الله لا تغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأنصتوا

لعلكم ترحمون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[1].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.



(١) سورة الحج: ٣٨- ٤١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره ولا يحمد على مكروه سواه، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد أيها المسلمون فطالما تحدث الغرب ومؤسساته وأذنابه عن الأصولية الإسلامية وعن تطرف المسلمين وتعصبهم وخطرهم، وها هي الأحداث تكشف بجلاء أين مكمن التطرف وأين يكون العداء، فالغرب لا يكتفي برفع شعار الدين رايةً لحروبهم ومساعداتهم، ولا ينتهي عند حد الدفاع عن الصليب مقابل الهلال، بل ولفرط تطرفهم- يصيرون على الدفاع عن مذاهب النصرانية المتنافرة، ويتفقون على اقتسام الغنيمة بين فضائل الكاثوليك والبروتستانت، والأرثوذكس، ففي الوقت الذي تساند (ألمانيا) الكاثوليكية (الكروات) يبقى (الصرب) في حماية من روسيا واليابان وبقية الدول التي لا تدين بالكاثوليكية.

فهل بعد هذا التطرف من تطرف، وحروب اليوم تذكرنا بالحروب الصليبية السابقة فأين المعجبون بالغرب والمروجون لشعاراته الوهمية من الديمقراطية والحرية والعدالة. وحقوق الإنسان أتراهم اليوم يعيدون حساباتهم، ويعلنون انخداعهم فيما مضى. فينصحون لأنفسهم، ويصدقون مع أمتهم، أم تراهم يراوغون ويخادعون ولا تزال عقدة الشعور بالنقص تصاحبهم، والفتنة بالفكر المستورد تطاردهم.

أيها الإخوة المؤمنون وبرغم فداحة ما تسمعون من جرائم تقشعر لهولها الأبدان من أمم الكفر على شعوب الإسلام فالحقيقة الغائبة أكبر، والمخطط

أعتى وأقسى، وكل يوم تكشف لنا حقائق وإحصاءات لم تتكشف بالأمس، لن يكون آخرها اكتشاف قبور جماعية لما يقرب من ثلاثة آلاف مسلم ومسلمة من شعب البوسنة ردموا فيها بالجرافات في الأحداث المؤلمة الأخيرة، وأمثال هذه الأحداث تؤكد لنا استمرار العداوة بين المسلمين وأهل الكتاب التي أخبرنا عنها ربنا بقوله ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1]، وتذكرنا بعدم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

ولقد مضى على العلماء والدعاة زمن وهم يقررون هذه الحقائق للناس، وقد لا يعيرهم البعض اهتمامًا لهذا، أما اليوم فكشفت الحقائق، ونطقت الرماح، وتحدثت لغة الأرقام عن حجم العداوة والمأساة، وفي أنين الأيامى والثكالى، وصراخ الأطفال جوعًا وعطشًا، وانتشار الجثث الهامدة على السكك طولًا وعرضًا ما يُعبر عن الصورة بجلاء، وما يقصر المسافة على الدعاة والعلماء. .

أمة الإسلام. . ومع الصمت والتخاذل والقعود عن نصرة المسلمين المستضعفين فلن تقف العداوة عند هذا الحد. فالهدف اقتلاع الإسلام من جذوره، والمخطط يشمل المسلمين كلهم، وما أجمل ما قيل (فبعد أن ينجز الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس مهمتهم في أوربا لابد وأن يتطلعوا عبر البحر الأبيض المتوسط صوب أراضي المسلمين ليكملوا ما يقوم به اليهود)[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٠.

(٢) جاسر الجاسر، مقال في الجزيرة بعنوان: أيها المسلمون تبرعوا لتحموا أنفسكم، في ١٤/ ٣/ ١٤١٦هـ عدد ٨٣٥١.

فهل نعي حقيقة المؤامرة وحجمها، وهل نتخذ من أساليب الوقاية وأسبابها ما نحفظ به على أنفسنا حين نساهم في الحفاظ على إخواننا.. إن أحداث البوسنة والهرسك ومثيلاتها في عالمنا الإسلامي مؤلمة للنفس أيَّما إيلام.. ولكن هل نتجاوز مجرد الحديث إلى ما بعده من دروسٍ وعبرٍ، وهل نتجاوزُ مرحلة البكاء والعويل إلى مرحلةِ الجدَّ والاستعداد للمستقبل القريب، فنتعاون جميعًا وبكل ما أوتينا من قوة للوقوف صفًّا واحدًا في وجه العدو الحقيقي لنا، هل نتجاوز الخلافات الوهمية التي يصنعها المغرضون، هل تتجاوز الحدود المرسومة من قبل المستعمرين لتقطيع أوصال الأمة وإشغالها عن قضاياها المهمة والمصيرية، هل يعود عودة صادقة لكتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ، وكتابنا أصدق الكتب المنزلة، ونبينا خاتم المرسلين، في وقت عاد فيه الآخرون إلى كتبهم المحرفة ودياناتهم المنسوخة؟ هل نحافظ على طاقاتنا؟.

إن عالم اليوم لا مكان فيه لمن يعيش بدون هوية، وإذ تشبث اليهودي والنصراني والبوذي وسواهم بعقائدهم أفيليق بنا معاشر المسلمين أن نعيش هملًا نقتات على موائد الآخرين، ونستطعم منهم وكأننا حفنة من المساكين... أين العزة بالإسلام.. أين الغيرة للقرآن وأين نضع خيريتنا وشهادتنا على الأمم بنص القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2].

أن من واجبنا أن ندعم كل مبادرة خيرة صادقة للتضامن مع شعب البوسنة والهرسك، على أن لا يتوقف هذا الدعم، وذلك التضامن حتى ينتصر المضطهدون، ويفضح المعتدون، وأن يشمل هذا الدعم والمساندة بقية

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

المسلمين المضطهدين في أنحاء الأرض. إن على وسائل الإعلام بقنواتها المختلفة وفي عالمنا الإسلامي كله، مسؤولية توعية الشعوب بحقيقة المؤامرة، وشرسة الهجمة، والهدف من وراء اللعبة، ولا ينبغي أن نقل مصداقية إعلامنا عن إعلام الغرب حين يشوهون صورتنا ونحن المسلمون المضطهدون ويلهبون مشاعر شعوبهم ضدنا وهم الكفرة المعتدون؟.

ومع ذلك كله فينبغي أن لا نقف عن حدود التوعية المبرمجة لقضايانا مع أهميتها، ولا نكتفي بمجرد المساندة المالية للمضطهدين مع مسيس الحاجة إليها، بل لابد من التفكير بربط علاقاتٍ ثقافية مع الشعوب المسلمة يحكمها الإسلام، ولابد من إقامة علاقات اقتصادية مع الشعوب المسلمة لا يكون الربح المادي هدفها، بل تهدف إلى إيجاد فرصٍ اقتصادية يستغني بها المسلمون عن استجداء الآخرين. ولابد من تعاونٍ عسكري جادٍ في محيط الأمة المسلمة، تتقلل منه في البداية عن معونات الأمم الأخرى وتستغني به مستقبلًا عن أي صفقة أخرى لا تعطى حتى تؤخذ تنازلات تقايضها، أو تعطى صراحة لفئة وتحرم أخرى كما يجري اليوم مع المسلمين البوسنة والصرب النصارى.

وحين نصدق مع ربنا، ونتمثل إسلامنا فلن يضرنا كيد الكائدين ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[(١)] ولن يستطيعوا إطفاء نور الإسلام ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(٢)]. والله غالب على أمره.



(١) سورة الطارق: ١٥- ١٧.

(٢) سورة الصف: ٨.

المرض الوافد[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

إخوة الإيمان ويقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ويقول ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

وفي صحيح السنة يقول الرسول ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...**»[2].

وفي الحديث الآخر: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**» في مأثور الحكم قيل: دع القلق وابدأ الحياة.

وبين هدي القرآن وتوجيهات السنة واستثمار مأثور الحكم سيكون الحديثُ عن موضوع من الأهمية بمكان، يُفترض أن بيئته التي ينمو فيها غيرُ بلاد المسلمين، ولا شك أن المصابين به من غير المسلمين أكثر، فإذا سرت عدواه إلى بلاد المسلمين، أو بدأت نذر خطره تهدد بعض المسلمين كان ذلك داعيًا للحديث عنه وتحذير الناس منه.. إنه المرض الوافد، القلق المؤذي، أو ما يسمى بالمرض النفسي داءٌ من أدواء هذا العصر، خفيُ العلة، ليس بالضرورة أن يكون الفقراءُ والمعوزون هم المرضى، وليس يسلم أصحابُ الثرى وأهلُ النعمةِ من الإصابة به، وتتجاوز عدواه الرجال إلى النساء، يمكن توصيف المرض بأنه

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ٧/ ١٤١٦هـ.

(٢) رواه مسلم (جامع الأصول ١٠/ ١٢٠).

تراكمُ هموم خيالية لا مبرر لها، وأسوأهُ ما قطع عن الجمع والجماعات، وأفضى إلى ترك الواجبات وفعل الحرمات وتوارد أحزانٍ وخواطر لا حقيقة لوجودها، هو ذبولٌ عن الحياة وانقطاعٌ عن الأحياء لا مسوغ له، هو ضعف بعد القوة، وعزلةٌ بعد الصحبة، وشكوك مستحكمة، وخوف وقلق وبغضاء وأثرةٌ، وعجز عن الملائمة في حياته مع الآخرين، ويبلغ بالمرضُ ذروتَه حين يصاب صاحبهُ بالوسوسة، أو يغلب الشكُّ على المريض أفعلَ الشيءَ أم لم يفعلْه، وربما استدرج الشيطان بالإنسان فزين له فراق الأهل والأحبة، وتعد به عن العَمل أو الفصلِ من الوظيفة، أو الانقطاع عن الدراسة، أو حرم الشاب عن استثمارِ طاقته، ولم يستفد من شبابه أو عمره.

إخوة الإسلام ولا شك أن هذا المرضَ ينتشرُ كلما جارت الحياةُ الماديةُ على حساب القيم المعنوية، ويتَفاقمُ كلما غابت عن الوجود شريعةُ السماء بهداها وعدلِها، واستحكمت قوانين البشر. بجورها وظلمها وشقوتها، وها كم شهادة مجربٍ خبير درس المرض وألّف فيه، وكان كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» خلاصة تجاربه ومرئياته عن بني قومه، يقول «دايل كارنيجي» عشتُ في «نيويورك» أكثر من سبع وثلاثين سنة فلم يحدث أن طرق أحدٌ بابي ليحذرني من مرض يدعى «القلق» هذا المرض الذي سبب في الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر أكثر مما سببه الجدري بعشرة آلاف ضعف. نعم لم يطرق أحدٌ بابي لِيحذرني أن شخصًا من كل عشرة أشخاصٍ من سكان أمريكا معرضٌ للإصابة بانهيار عصبي مرجعُه في أغلبِ الأحوال إلى القلق... ثم يقول: كارنيجي: ويقرر الأطباءُ أن واحدًا من كل عشرين أمريكيًا سوف يقضي جانبًا من حياته في مصح للأمراض العقلية، ومن الحقائق المريرة أن واحدًا من كل

ستة شبابٍ تقدموا للالتحاق بالخدمة العسكرية في خلال الحرب العالمية الأخيرة رد على أعقابه لأنه يعاني مرضًا جسميًا أو نقصًا عقليًا[(١)].

هذه معاشر المسلمين صيحةُ محزنةٌ قديمة، ووراء الإحصاءات الحديثة أدهى وأمر. وإذا كانت تلك البيئاتُ الفاسدةُ موطن هذا المرضِ وأمثالِهِ، فلا يعني براءةَ بلاد المسلمين منه، ولا عصمةَ المنتسبين للإسلام من آثاره.

وإذا كان الله قد حكم على هذه الدار بالفناء، وكتب على ابن آدم حظه فيها من الكبد والنكد والشقاوة أو السعادة، فذلك يعني أن نصوص الشريعة جاءت على ذكر الهم والحزن وما يتبعهما من غم وقلق، وضيق وغضب وتعرض للسراء والضراء، لكن ميزة هذه النصوص أنها موجهةٌ وهادفة. فالخوف أساسًا ينبغي أن يكون من الله، والخشية الحقيقية من عذابه وعقابه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[(٢)] والغضب يتبعه الرضا والمغفرة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[(٣)] ولا داعي للقلقِ والتحسر على ما مضى، أو زيادة الفرح على ما أوتي وأعطي ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ والصبر حين تحل الضراء والشكر حين تكون السراء، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن كما صح الخبر، والهموم ينبغي أن تقصر ولا تشعب، وفي الحديث «**من جعل الهم همًا واحدًا، هم المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك**»[(٤)] والدعاء سبب لإزالة الهم والقلق، وقد أبصر النبي ﷺ رجلًا من الأنصار في المسجد قد ركبته الديونُ

---

(١) انظر: جدد حياتك. محمد الغزالي ٣٧، ٣٨.

(٢) سورة المعارج: ٢٧.

(٣) سورة الشورى: ٣٧.

(٤) رواه ابن ماجه بسند حسن (صحيح الجامع الصغير ٥/ ٢٧٩).

ولزمته الهموم فأرشده أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**».

قال أبو أمامة رضي الله عنه: ففعلت ذلك فأذهب الله همي وقضى ديني، وبالجملة فأهل الإيمان لا مكان لهذا المرض عندهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١].

أيها المؤمنون تكاد تنحصر دواعي القلبي وكثرة الهموم والأحزان في التحسر على ماضٍ عمله الإنسان وهو عليه نادم، أو إشغال الفكر بمستقبل لا يدري ما الله صانع فيه. وهو منه متخوف وجل، أو مواجهة لواقع نازل لا يدري كيف الخلاص منه[٢].

أما القلق من المستقبل فقد قيل: إن من أخطاء الإنسان أن ينوء في حاضره بأعباء مستقبله، واستعجال الضوائق التي لم يحن موعدها ولا يدري ما في غيب الله منها. حمق كبير، وإفساد الحاضر السعيد بشؤون المستقبل المتقوقع خطأ صرف، وإساءة الظن وتشاؤم مبكر لا يليق بالمسلم الذي علمه الإسلام حسن الفأل وتوقع الخير، والرضاء بالقضاء والقدر وأما التحسر على الماضي الفاشل، والبكاء المجهد على ما وقع فيه من آلام وهزائم فذلك التحسر السلبي الذي يزيد الألم ألمًا وينكأ الجرح الذي أوشك على الشفاء، ويجر النفس إلى الوراء كلما رامت التقدم إلى الأمام ذاك في نظر العقلاء.

وهو في نظر الشرع تسخط على أقدار الله الواقعة لا ينبغي للمؤمن أن يقع فريسة له، ولا أن يثلم عقيدته بكثرة الأسى لفوات مرغوب أو عدم الحصول على

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) الغزالي: جدد حياتك: ص ٢٣، ٢٤.

محبوب قد يكون الخير في منعه وهو لا يدري. . . وقد يكون خيرًا له وهو يظن شرًا ووبالًا عليه إنها حسرات القلب دونما فائدة. . . وأقدار الله جارية لا محالة كذلك وجه المسلمون وأربوا، وعوتب غيرهم وبالحسرة أخذوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

أما النوازل الواقعة والشدائد الداهمة، فالعقلاء هم الذين يثبتون لها. والمؤمنون هم الذين يعتقدون أنها بإذن الله فيصبرون عليها، أما الضعفاء قليلو الإيمان فربما هدم الروعُ أفئدتهم، وربما رمت بهم العواصف الهائجة في مكان سحيق، والإسلام يرشد أن الصبر عند الصدمة الأولى. والحكماء يوصون بالتجلد للمصائب، والشجاعة في المواقف، ويقول الشاعر:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تُراعي

فإنك لو طلبت بقاء يومٍ ... على الأجل الذي لك لن تطاعي

ويقول الآخر:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهرِ لا أتضعضع

إخوة الإيمان: وهناك فرق بين الاهتمام بالمستقبل والاعتمام به، وبين الاستعداد له والاستغراق فيه، وبين التيقظ في استثمار اليوم الحاضر وبين التوجس المربك المحير، مما قد يفد به الغد، والتوسط في ذلك بدأ تستقبل الدنيا برضى ويقين وشجاعة، يصور ذلك أبو الحسن علي رضي الله عنه حين يقول:

أي يومي من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قدر

(١) سورة آل عمران: ١٥٦.

يـوم لا يـقـدر لا أحـذره ومـن المقدور لا ينجي الحذر[١]

أيها المسلمون وطالما أهم بعض الناس معاشه في هذه الدار، وربما كان شبحُ الفقر همًّا ملازمًا أورث صاحبه الفقر وإن كان غنيًا، وأضحت حياتهُ نكدًا وإن كان مثلهُ سعيدًا، وقد قيل: والناس من خوف الفقر في فقر ومن خوف الذل في ذل[٢].

أين الثقة بالله، وأين التوكلُ عليه، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

أما الموت فهو شبح مخيف ودافعٌ للقلق عند قوم، ولئن صح ذلك عند غير المسلمين الذين يظنون الحياة الدنيا مبدأهم ومنتهاهم، والمحطة الأولى والأخيرة لملذاتهم وشهواتهم... فليس الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين. فالموت لا يخيف، والحياة بعده لمن وفقه الله أسعد وأكرم، وأطول وأنعم. إن الموت في حس المسلم مرحلة لحياةٍ أخرى تعد حياتنا هذه لهوًا وعبثًا إلى جانبها، ولذلك يعبر القرآن عنها بلفظ أكبر في مبناه وأوسع في معناه فيقول ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

فلا معنى ولا داعي لقلق المسلم من الموت لذاته، والخوف مما بعد الموت لا يقود للهم السلبي والقلق المؤذي والمرض النفسي، بل يقود النفس إلى عمل الصالحات بانشراح صدر، ويقودها إلى توقي السيئات بوعي وتعقل.

---

(١) جدد حياتك: ٢٦، ٧٥.
(٢) جدد حياتك، الغزالي ص ٣٠.
(٣) سورة هود: ٦.
(٤) سورة العنكبوت: ٦٤.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[1].

نفعني الله وإياكم.



(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧- ٦١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وفق من شاء لطاعته وشرحَ صَدره لهداه، فاستقرت نفسه وقوي قلبه، ولم يجد الشيطان عليه سبيلًا، وأضل من شاء فجعل صَدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، وتناوشته الهموم وتحاوشته الشياطين، وكذلك يجعل الله الرجس على الذين ما يؤمنون. وأشهد أن لا إله إلا الله بذكره تطمئن القلوب، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله قدوة المهتدين وإمام المتقين- اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

أيها المسلمون سواءً كانت دواعي القلق تحسرًا على أمر مضى لم يدرك الإنسان بغيته منه، أو تخوفًا من مستقبل يوحي إليه الشيطان بمفاجآته الصعبة عليه، أو عجزًا عن مواجهة وتحدي الواقع الذي يعيشه في ظنه، أو هي نتيجة مجموعة من التخوفات الوهمية لا حقيقة لها- وكان المرض النفسي خلاصًا من مشكلة ظن المريض خطًا أنه يتخلص بها، أو كان نتيجة ترادف مشكلات استسلم الفرد لها، أو بسبب سوء معاملة من قريب أو بعيد جارت على المريض فغيرت مزاجه وتعكر صفو حياته، أو كان المرض لأي أسباب أخرى... فثمة أنواع من العلاج يشفي الله بها من كل داء، وأول الأدوية الناجعة للعلاج الإيمان بالله ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فمن يملأ الإيمان قلبه تفر شياطين الإنس والجن من حوله، وذكر الله على كل حال كفيلٌ بشرح الصدر وطمأنينة القلب ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

والإيمان بالقضاء والقدر وما يقذفه في القلب المرء من الرضا والتسليم دواءٌ ناجح بإذن الله فصاحبه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن

ليصيبه ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾(١).

والإيمان الحق بأسماء الله وصفاته يورث الطمأنينة ويذهب القلق، فالمالك مثلًا مقتضاه أنه هو المتصرف في مماليكه كيف شاء، «والحكيم» مقتضاه أن له الحكمة التامة في كل ما يصنع، و«الرحيم» تقضي بأنه لا أرحم بعباده منه، وهكذا بقية الأسماء والصفات الإلهية لو تأملها المرضى لكان عونًا لهم بإذن الله على الشفا- والعمل الصالح سبب للحياة الطيبة السعيدة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٢) وعكسه التردي في الموبقات فهو سبب للمعيشة الضنك والقلق الحاد ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾(٣).

وخذوا على سبيل أثر الصلاة في تهذيب النفوس وطهارتها وصلتها بخالقها، وقد أوحى الله إلى عبده فيما أوحى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾(٥) كان عليه الصلاة والسلام إذا جزيه أمر فزع إلى الصلاة.

و يقول الغزالي: إن الركض في ميادين الحياة بقدر ما يُجلل البدن بالغبار والعرق، يجلل الروح بالغيوم والأكدار، والمرء إثر كل شوط طويل يحتاج إلى

---

(١) سورة الحديد: ٢٢.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

(٣) سورة طه: ١٢٤.

(٤) سورة هود: ١٤.

(٥) سورة الإسراء: ٧٩.

ساعة يلم فيها شعثه، ويعيد النظام والنظافة إلى ما تعكر وانتكث من شأنه كله، وليست الصلاة إلا لحظات لاسترجاع هذا الكمال المفقود أو المنشود[1]. بل لم يعد الاعتراف بقيمة الصلاة في تجاوز المشكلات قصرًا على المسلمين، وهذا الدكتور إلكسيس كاريل يقول في كتابه: الإنسان ذلك المجهول: «لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدةٍ للنشاط غرفت إلى يومنا هذا-، وقد رأيت بوصفي طبيبًا كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير الطبية في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم[2].

ولئن كنا معاشر المسلمين نشعر محتاجين لمثل هذه العقول من الآخرين ففي كتاب ربنا وسنة نبينا غنيةٌ، فتلك مزيد لفتةٍ لأولئك الذين يتخلون عن الصلوات المكتوبة مع توفر الصحة في أجسامهم ورغد العيش في حياتهم. ثم تراهم بعد ذلك يشكون من قلق في حياتهم واضطراب في نفسياتهم، ولو عادوا إلى ربهم لعافاهم، ولو طلبوا الشفاء منه بمرضاته لأجابهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

إخوة الإسلام ويشكل الفراغ عاملًا مؤثرًا في المرضى النفسانيين، ويقول أحدُ الأطباء النفسانيين (إن ثلث مرضاي لا يشكون من أمراض نفسية معلومة واضحة بقدر ما يشكون من ألم الفراغ في حياتهم، ذلك الذي يُبعد البهجة والسعادة منها)[3].

وإذا ساغ وجود فراغ عند أصحاب الملل والنحل الأخرى فلا يسوغ وجود فراغ عند مسلم يعلم ويعمل بقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ

(١) جدد حياتك صلى الله عليه وعلى آله وسلم ١٩٨.

(٢) عن جدد حياتك صلى الله عليه وعلى آله وسلم ١٩٩.

(٣) دع القلق وابدأ الحياة، كارنجي ص ١٥٧.

إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١]، أو يفقه المصطفى ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**»[٢]. وكما يملأ الفراغ بطاعة الله، يملأ بالسعي في أرض الله بحثًا عن الرزق أو في طلب علم أو نحو ذلك مما ينفع المرء في دينه ودنياه، يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأرى الرجل فيعجبني، فإذا سألت عنه فقيل: لا حرفة له سقط من عيني[٣].

ومما يدفع القلق عن النفس عدمُ التطلع إلى ما عند الآخرين والرضا والقناعة بما قدر الله له، ومصيبة أن ينسى الإنسان ما أعطاه الله ويقلل التفكير فيما لديه، ويظل يرقب ويحصى ما عند الآخرين، ويكثر التفكير فيما ينقصه. ومن الجهل والحمق بل ومن بواعث المرض أن يتقمص المرء شخصيات الآخرين، ويتطلع إلى كل موهبة وهبها غيره، بل ربما حسدهم عليها وقد قيل إن التشبه بالغير انتحارٌ للشخصية ذاتها، وعلى المرء أن يتقبل نفسه على علاتها- ويحاول تقويم نفسه على منهج الله - وأن يرضى بما قسم له، وأن لديه قوةً ومواهب لم تمنح لغيره.

ومن الوصايا لثبات النفس ومقاومة القلق أن يثبت الإنسان أمام النقد،

فمن ذا الذي ترضى سجاياه   كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه

وألا يعول الإنسان كثيرًا على الثناء العاجل على المعروف في يسدى أو على النعمة تهدى، وكلم أن الحجور فطرةٌ، وأن مقابلة الإحسان بالإساءة شائع في الخليقة. وفي الأثر: اتق شر من أحسنت إليه.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي كفور

(١) سورة المؤمنون: ١١٥.
(٢) رواه البخاري وغيره (صحيح الجامع ٦/ ٣٢).
(٣) الغزالي: جدد حياتك ٦٧.
(٤) سورة العاديات: ٦.

جحود لنعم الله (تفسير القرطبي ٢٠/ ١٦٠) وما أجمل مقولة الإمام الشافعي الذي ملأ الدنيا علمًا ثم هو يقول بإخلاصٍ وتجرد: «وددت لو نشر هذا العلم دون أن يعرف صاحبه»(١).

عباد الله النظر في أمور الدنيا إلى من هو أسفل من الإنسان يطأ من كبريائه ويعرفه بمزيد نعمة الله، ويذهب عنه الوساوس والأحزان، ويطرد القلق وتلاعب الشيطان، قال عليه الصلاة والسلام «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وحسن الظن بالناس والاشتغال بالشكر والذكر، والاعتدال في النظرة إلى الحياة وإفساحُ مجال الأمل وانتظار الفرج، والاشتغال بنفع الناس والإحسان إليهم، وجمعُ الفكر على الاهتمام بالباقية دون الفانية، وملازمة الاستغفار والتوبة، واستشعار غنى النفس واستحضار الأدعية الشرعية، وعدم السماح للنفس بالثورة لأتفه الأسباب... كل هذه مع ما سبق أدوية دافعة للقلق بإذن الله، وعلاج شافٍ لتوتر النفسِ بحول الله... عافاني الله وإياكم والمسلمين من كل شر ومكروه- ووفقنا لانشراح الصدور في الدنيا، وراحة القلب في الآخرة- هذا وصلوا.



---

(١) الغزالي: جدد حياتك/ ١٣٣.

فرض الحج ومنافعه[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

إخوة الإسلام، في هذه الأيام تتوق نفوس المؤمنين إلى زيارة البلد الحرام، وتتطلع الأفئدة لأداء مناسك الحج أحد فرائض الإسلام.. وهناك من يقدر له ذلك ويشاء الله أن يبلغه إتمام المناسك وقضاء النسك، وهناك آخرون تقعد بهم الحاجة، أو تنعدم لديهم الوسيلة، أو يشغلهم ما هم فيه من فتن ومحن عن مجرد التفكير في الحج، فضلًا عن الاستعداد له أو بلوغه.

وعلى الذين يعيشون حالة الأمن والرخاء أن يشكروا الله على هذه النعمة وأن يستثمروا أعمارهم وصحتهم في المسارعة للخيرات، وعدم التسويف في عمل الصالحات وعليهم أن يشاركوا إخوانهم محنتهم بالدعاء والدعم والمساندة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وفي مواطن الحج ومواقفه فرصة للدعاء، وهي حرية بالإجابة والقبول، فلا تحرموا أنفسكم وإخوانكم المسلمين من الدعاء فهو سلاح نافذ، وهو طريق لتفريج الكربات بإذن الله.

أيها المسلمون لقد أنزل الله فيما أنزل في كتابه الكريم على رسوله الأمين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق، ٣٠/ ١١/ ١٤١٣هـ.

(٢) سورة آل عمران: ٩٧.

قال أهل التفسير: هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ والقول الأول أظهر[١].

وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم في صحيحه بسندهما عن أبي هريرة ﷺ قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: **أيها الناس: قد فرض عليكم الحج فحجوا**، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: **لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**. ثم قال: **ذروني ما تركتم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[٢].

وقد اختلفت عبارات السلف في المقصود بمعنى قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ويجمعها: الزاد، والراحلة، والصحة، ويؤكدها قول الرسول ﷺ وقد سئل: من الحاج يا رسول الله؟ قال: «**الشعث التفل**»، فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «**العجَ والثجّ**»، فقام آخر (وهنا موضع الشاهد) فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: **الزاد والراحلة**[٣].

والمقصود بالشعث التّفل: الذي لم يحلق رأسه، وقد اغبر من عدم الغسل، وتفرق من عدم المشط: أي تارك الزينة، والتفل الذي ترك استعمال الطيب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٥٠٨، ومسلم كتاب الحج ٤/ ١٠٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧.

(٣) الحديث رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وغيرهم بإسناد حسن، مشكاة المصابيح ٢/ ٧٧٦، انظر كلام ابن كثير في تصحيحه ٢/ ٦٨ التفسير.

أما العجّ فالمقصود به: رفع الصوت بالتلبية، والثجّ سيلان دم الهدي والأضاحي (المصادر السابقة).

إخوة الإسلام ويا من قدرتم على الحج وتيسرت لكم سبله ولم تحجوا بعد، الله الله بالمبادرة تأدية لفرض الله، وطاعة لرسوله ﷺ وهو يحثكم على الاستعجال في ذلك ويقول: «**تعجلوا إلى الحج- يعني الفريضة- فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له**»(١).

وفي الحديث الآخر يؤكد ﷺ على الاستعجال في أداء الفريضة، ويبين العوارض التي قد تصد الإنسان، فيقول ﷺ: «**من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة وتعرض الحاجة**»(٢).

واحذر- أخي المسلم- من التفريط في أداء الواجبات بشكل عام، وتأمل عقوبة من أطاق الحج فلم يحج- بشكل خاص- يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهوديًا مات أو نصرانيًا قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى عمر(٣)، وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جدة- أي مالًا وقادرًا على الحج- فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»(٤).

أيها المسلمون.. وفضلًا عن كون الحج أحد أركان الإسلام التي لا قيام له بدونه، وقد قال الله تعالى في نهاية آية الحج السابقة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

---

(١) الحديث رواه أحمد بسند حسن، صحيح الجامع ٣/ ٤٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩.

(٢) الحديث رواه أحمد وابن ماجه بسند حسن، صحيح الجامع ٥/ ٢٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠، سورة آل عمران: ٩٧.

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس وغيره رضي الله عنهما في تأويلها: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[١].

فضلًا عن وجوبه وعظم جريرة من جحده وأنكره.. فإن للحج سواء كان فريضة أو نفلًا منافع جمة، وفضائل كثيرة، جمعها الله تعالى في قوله ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ وجاء بيانها في سنة المصطفى ﷺ.

فمن منافع الحج وثماره: أنه وسيلة لمغفرة الذنوب، وهل يوجد شخص خلوًا من الذنوب والمعاصي. والرسول ﷺ يقول: «**من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[٢].

ويروى عن أبي هريرة أنه قال: «**حجة مبرورة تكفر خطايا سنة**»[٣].

وقد ثبت أن الحج يهدم ما قبله من الذنوب، كما ورد في قصة إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد جاء النبي ﷺ فقال: أبسط يمينك لأبايعك، فبسط الرسول ﷺ يده، فقبضها عمرو، فقال له النبي ﷺ: **مالك يا عمرو؟** قال: أردت أن أشترط، قال: **تشترط ماذا؟** قال: أن يغفر لي، قال: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»[٤] ويا له من فضل عظيم لمن وفقه الله.

ومن منافع الحج أن المتابعة فيه والاستمرار على العمرة معه سببان مانعان

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩.

(٢) الحديث رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، صحيح الجامع ٥/ ٢٨١ قال الحافظ ابن حجر: أي بغير ذنب، وظاهره غفران الصغار والكبائر والتبعات، وهو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرح بذلك (الفتح ٣/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣) رواه ابن حبان، المتجر الرابح ص ٢٨٦.

(٤) رواه ابن خزيمة، وهو مسلم أطول من هذا، المتجر الرابح ص ٢٨٥.

بإذن الله دون الفقر والذنوب، يقول الصادق المصدوق ﷺ: **«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة»**[١].

والحج المبرور طريق إلى الجنة.. وهي مبتغى كل مسلم- وقد قاله ﷺ **«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**[٢].

وفي الحديث الآخر **«وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»**[٣] **«والحجاج والعمار وفد الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»**[٤].

وفي لفظ: **«الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم»**[٥].

ومن منافع الحج أنه جهاد لكل ضعيف، وفي الحديث الصحيح يقول الرسول ﷺ: **«الحج جهاد كل ضعيف»**[٦].

هذا فضلًا عن كونه يعفي النساء عن الجهاد، ففي الحديث المتفق على صحته تقول عائشة رضي الله عنها استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقالت: **«جهادكن الحج»**[٧].

وفي الحديث الآخر: قالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله على النساء جهاد؟ قال: **«نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»**[٨].

---

(١) رواه الترمذي والنسائي بإسناد حسن، مشكاة المصابيح ٢/ ٧٧٥.
(٢) رواه أحمد وغيره بإسناد حسن، صحيح الجامع ٣/ ٩٧.
(٣) تكملة السابق.
(٤) حديث صحيح رواه البزار بسند حسن، صحيح الجامع ٣/.
(٥) رواه ابن ماجه والمشكاة ٢/ ٨٧٧.
(٦) رواه ابن ماجه بسند حسن، صحيح الجامع ٣/ ٩٧.
(٧) مشكاة المصابيح ٢/ ٧٧٣.
(٨) رواه ابن ماجه بسند صحيح، المشكاة ٢/ ٧٧٧.

والحج معاشر المسلمين- وسيلة بر للأرحام والأقربين، فحن حج عن أبيه أو عن أمه أو عن أحد أقاربه فهو من البر الذي تصدق لهم، لكن لابد أن يكون قد أدى الفريضة عن نفسه، ففي الحديث الصحيح عن أبي رزين العقيلي أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، قال: «**حج عن أبيك واعتمر**»(١).

ويا لها من فرصة يبر فيها الأحياء للأموات أو لمن لا يستطيعون الحج وإن كانوا أحياء، وخاصة إذا كانت فريضة الإسلام، فانفعوا أنفسكم معاشر المسلمين، وبروا غيركم، واستبقوا الخيرات، وبادروا بالطاعات، واعلموا أن ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا، واستغفر الله إن الله غفور رحيم.



---

(١) الحديث رواه الترمذي، وأبو داود والنسائي، وقال الترمذي حسن صحيح، صحيح الجامع ٣/ ٨٨، المشكاة ٢/ ٧٧٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يستحق الحمد والثناء، أشكره تعالى على نعمه وأستغفره من جميع الذنوب وأتوب إليه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله.

إخوة الإسلام لا تقف منافع الحج وآثاره عند هذا الحد، إذ أن الحج معبر وسبب لكثير من العبادات، ففيه ذكر الله دائمًا وأبدًا ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ وفيه الاستغفار ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

وفيه يلهج الحجيج بالتهليل والتكبير، كلما طافوا أو سعوا، وكلما رموا الجمار أو ذبحوا، بل وكلما أقاموا في مكان أو ارتحلوا، أو هبطوا ثنية أو صعدوا.

ويكفي الحجيج أن يتلبسوا بالتوحيد، ويجعلوه شعارهم، وألسنتهم تردد «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**» ويا لها من كلمات عظمى لو عقلها والتزم بها المسلمون في حلهم وإحرامهم، وفي كل لحظة من لحظات حياتهم.

والحج فرصة لنحر الهدي والتقرب إلى الله بسفك الدماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾.

قال مجاهد رحمه الله يريد استعظام البدن واستسمانها[1].

والحج فرصة كذلك لإطعام الطعام وإفشاء السلام وطيب الكلام. وقد جاء

(١) المتجر الرابح صلى الله عليه وعلى آله وسلم ٣١٥.

في الحديث: «**الحج المبرور ليس له جزاءه إلا الجنة**»، قيل: وما بره؟ قال: «**إطعام الطعام، وطيب الكلام**»[١].

فأنت مدعو أخي الحاج لإطعام الطعام وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، والكلمة الطيبة تشيع المحبة بين المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة للخير، كل ذلك من سمات المسلمين في كل زمان ومكان، ولاسيما في هذه الأزمان والأماكن الفاضلة، وحيث يجتمع المسلمون من كل حدب وصوب.

وأنت مدعو أخي الحاج لحفظ لسانك وسمعك وبصرك، وجميع جوارحك عن الحرام في كل منزل من منازل الحج، ولاسيما في المواطن التي ينبغي الاشتغال فيها بذكر الله كيوم عرفة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان فلان ردف النبي ﷺ (وفي رواية كان الفضل بن عباس) يوم عرفة، فجعل الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن، فقال له رسول الله ﷺ: «**أي أخي إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له**»[٢].

فهل يقدر المسلمون عامة والحجاج خاصة هذا اليوم حق قدره، فيشتغلوا بذكر الله ودعائه، أم تراهم يجتمعون للأحاديث العابرة، والحكايات النادرة التي تستجيب لها النفوس.. وكان يومًا كسائر الأيام؟!

والحج وسيلة للكسب الحلال لمن هو محتاج إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٣].

---

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن، وابن خزيمة والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وفي رواية لأحمد قال: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام، المتجر الرابح»/ ٢٨٧.

(٢) رواه أحمد إسناد صحيح، وابن خزيمة، المتجر الرابح ص ٣١٣.

(٣) سورة البقرة: ١٩٨.

روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت هذه الآية.

وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون: أيام ذكر. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

وبالجملة فالحج معدود في فضائل الأعمال بعد الإيمان والجهاد، ففي الحديث المتفق على صحته «سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: **إيمان بالله ورسوله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **الجهاد في سبيل الله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **حج مبرور**»[2].

حجاج بيت الله الحرام أوصيكم ونفسي بتقوى الله ومراقبته فيما تعملون أو تدعون، وأنصحكم ونفسي بالإخلاص لله في العمل، والمتابعة لرسوله ﷺ وهو القائل: «**خذوا عني مناسككم**» وليس يسوغ لك أخي الحاج أن تذهب إلى المشاعر وأنت لا تدري ما تصنع وترى أنه يكفيك أن تذهب مع الناس حيث ذهبوا، وتتحرك معهم حيث تحركوا، بل عليك أن تعرف أحكام الحج، وأركانه وواجباته وسننه، فإن كنت قارئًا فاقرأ مناسك الحج لأصحاب الفضيلة العلماء، وإن كنت لا تستطيع القراءة فاستمع إلى هذه الأحكام مسجلة على أشرطة الكاسيت، وهي منتشرة والحمد لله.

وإن لم يتيسر لك هذا ولا ذاك فاسأل عن الأحكام الهامة وصفة الحج والعمرة قبل السفر، فليس يسوغ لك الجهل في هذا الزمان .. ولا تعذر

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم، المتجر الرابح/ ٢٨٤، الفتح ٣/ ٣٨١.

بالتقصير بكل حال- حتى عند الشاعر يتوفر علماء ودعاة يستقبلون السائلين ويوجهون الغرباء، واحرص على الرفقة الصالحة فهم خير معين لك على معرفة ما تجهل، أو تذكيرك حين تغفل، وسأتعرض في الخطبة القادمة إن شاء الله لبعض أحكام الحج التي تدعو الحاجة لبيانها، وبعض الأخطاء التي يقع فيها بعض الحجاج، هدانا الله وإياهم للحق وثبتنا عليه، ورزقنا البصيرة في ديننا والفقه في عبادتنا.

أيها المسلمون من غير الحجاج أمامكم فرصة هذه الأيام لا تعوض ألا وهي عشر ذي الحجة التي قال النبي ﷺ بشأنها **«ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله ﷻ من هذه الأيام يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله، قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء»**[1].

فاجتهدوا بكل طاعة من صيام وصدقة وذكر وصلاة ونحوها .. واعلموا أن على من أراد الأضحية منكم ألا يأخذ من شعره ولا ظفره شيء حتى يضحي.



(١) رواه البخاري وغيره.

فهرس خطب
الجزء الأول

• محنة يوسف عليه السلام القصة والعبر ٧
الخطبة الأولى: ٧
الخطبة الثانية: ١٢
• الإمام الشافعي والنيل من العلماء ١٦
الخطبة الأولى: ١٦
الخطبة الثانية: ٢١
• (١) المسلم بين الخوف والرجاء ٢٥
الخطبة الأولى: ٢٥
الخطبة الثانية: ٣١
• (٢) المسلم بين الخوف والرجاء ٣٤
الخطبة الأولى: ٣٤
الخطبة الثانية: ٤٠
• ومن يتوكل على الله فهو حسبه ٤٤
الخطبة الأولى: ٤٤
الخطبة الثانية: ٤٩
• محنة التتر أحداث وعبر ٥٣
الخطبة الأولى: ٥٣
الخطبة الثانية: ٥٩
• عين جالوت بين جهاد الأمراء وإخلاص العلماء ٦٣
الخطبة الأولى: ٦٣

الخطبة الثانية: ٦٩
• (١) حصائد الألسن ٧٣
الخطبة الأولى: ٧٣
الخطبة الثانية: ٧٩
• (٢) حصائد الألسن ٨٣
الخطبة الأولى: ٨٣
الخطبة الثانية: ٨٩
• (٣) حصائد الألسن ٩٤
الخطبة الأولى: ٩٤
الخطبة الثانية: ١٠١
• معالم في تاريخ اليهود ١٠٥
الخطبة الأولى: ١٠٥
الخطبة الثانية: ١١١
• المعركة مع اليهود لماذا وإلى أين؟ ١١٤
الخطبة الأولى: ١١٤
الخطبة الثانية: ١٢٠
• (١) ثروة الأمة والفاحشة الآثمة ١٢٥
الخطبة الأولى: ١٢٥
الخطبة الثانية: ١٣٠
• (٢) أسباب الفاحشة ومحاورها الرئيسة ١٣٤
الخطبة الأولى: ١٣٤
الخطبة الثانية: ١٣٩
• (٣) طرق العلاج وقنوات الإصلاح في إصلاح الشباب ١٤٣

الخطبة الأولى: ١٤٣
الخطبة الثانية: ١٤٨
• دواعي التوبة في رمضان ١٥٢
الخطبة الأولى: ١٥٢
الخطبة الثانية: ١٥٨
• التوبة النصوح ١٦٢
الخطبة الأولى: ١٦٢
الخطبة الثانية: ١٦٧
• من عوامل الثبات على دين الله ١٧٠
الخطبة الأولى: ١٧٠
الخطبة الثانية: ١٧٦
• من أسباب الهداية ١٨٠
الخطبة الأولى: ١٨٠
الخطبة الثانية: ١٨٧
• بين تدبر القرآن وهجره ١٩٠
الخطبة الأولى: ١٩٠
الخطبة الثانية: ١٩٦
• (١) طريق المغفرة ١٩٩
الخطبة الأولى: ١٩٩
الخطبة الثانية: ٢٠٤
• (٢) طريق المغفرة ٢٠٧
الخطبة الأولى: ٢٠٧
الخطبة الثانية: ٢١٢

• (١) اليوم الأغر ٢١٥
الخطبة الأولى: ٢١٥
الخطبة الثانية: ٢١٩
• (٢) اليوم الأغر سننه وأحكامه ٢٢٢
الخطبة الأولى: ٢٢٢
الخطبة الثانية: ٢٢٨
• فيض العشر وفضل الدعاء ٢٣٢
الخطبة الأولى: ٢٣٢
الخطبة الثانية: ٢٣٧
• النصر والتمكين في يوم عاشوراء ٢٤٣
الخطبة الأولى: ٢٤٣
الخطبة الثانية: ٢٤٩
• ليث الإسلام والبطل الهمام ٢٥٣
الخطبة الأولى: ٢٥٣
الخطبة الثانية: ٢٥٩
• لماذا يتأخر النصر؟ ٢٦٣
الخطبة الأولى: ٢٦٣
الخطبة الثانية: ٢٦٨
• السلف والوقت ٢٧٢
الخطبة الأولى: ٢٧٢
الخطبة الثانية: ٢٧٨
• من أخطائنا في الصلاة ٢٨٣
الخطبة الأولى: ٢٨٣

الخطبة الثانية: ٢٩٠

• أول ما يرفع من هذه الأمة ٢٩٤

الخطبة الأولى: ٢٩٤

الخطبة الثانية: ٣٠١

• الخشوع الغائب ٣٠٥

الخطبة الأولى: ٣٠٥

الخطبة الثانية: ٣١٢

• حرب العقائد والدرس المستفاد ٣١٧

الخطبة الأولى: ٣١٧

الخطبة الثانية: ٣٢٣

• المرض الوافد ٣٢٧

الخطبة الأولى: ٣٢٧

الخطبة الثانية: ٣٣٤

• فرض الحج ومنافعه ٣٣٩

الخطبة الأولى: ٣٣٩

الخطبة الثانية: ٣٤٥

